الوزير المغربي

أبو القاسم الحسين بن علي

العالم الشاعر الناثر الثائر

دار الشروق

الوزير المغربي

الوزير المغربي

أبو القاسم الحسين بن علي
العالم الشاعر الناثر الثائر
(٣٧٠ ـ ٤١٨)

دراسة في سيرته وأدبه
مع ما تبقى من آثاره

الدكتور إحسان عباس

الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن

* الدكتور إحسان عباس: الوزير المغربي/ دراسة في سيرته وأدبه مع ما تبقى من آثاره.

* الطبعة الأولى ١٩٨٨ .

* الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع.
ص. ب ٩٢٦٤٦٣ تلفون ٦٢٤٣٢١
عمان ـ الأردن.

* التوزيع: المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش. م. م.
شارع المكحول/ بناية ثابت.
ص. ب ١٣/٥٦٨٧.
بيروت ـ لبنان.

* تنضيد الأحرف والماكيت: المجموعة الطباعية (ناصر عاصي) ش. م. م.

مقـــدّمة

للوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن عليّ دور كبير في العلم والأدب والسياسة: في العلم بما خلفه من مؤلفات مثل أدب الخواصّ والايناس وغيرهما من مؤلفات لم تصلنا، وفي الأدب بديوان شعر رآه ابن العديم بخطه كما رآه ابن خلكان، وديوان رسائل، وفي السياسة بمحاولته الثورة على الدولة الفاطمية لأن الحاكم الفاطمي قتل أباه وعمه وأخويه، وفي التنقل من وزارة إلى أخرى في المناطق العراقية، حتى ليوصف بأنه أحد دهاة العالم. وإنك لتعجب بهذا العالم الذي بلغ حداً متميزاً في الدقة العلمية وسعة الاطلاع، كما تعجب بالشاعر الرقيق والناثر اللبق، ولكنك قد تتردد في الاعجاب بذلك الرجل المغامر الذي خاض دنيا السياسة والمكايد والحروب بذكاء فذّ. وقد تحسُّ أن ذلك كله كان ذا جور على دوره العلمي والأدبي. ومع ذلك فإنه كان مدفوعاً إلى ذلك بقوة الظروف التي عاش في ظلها.

ومنذ أنْ تعرفت إلى علاقته بأبي العلاء أثناء عملي المستمر في بعض آثار أبي العلاء، حاولت أن أكتشف طبيعة تلك العلاقة، وذلك التقدير الذي كان المعري يحمله للوزير. لقد وحدت بينهما المعرة ـ وحلب ـ في النشأة، ولكن ذلك لا يكفي لتفسير علاقة ظلت مستمرة طوال العمر. وقد أدهشني حقاً

أن يرثيه أبو العلاء في اللزوميات، وهو كتاب متميز بالتأملات الفكرية، جاء بعد عهد المدح والرثاء اللذين يمثلهما سقط الزند. وقد طال بي العهد وأنا أعايش ما أجده في المصادر من شعره ونثره، وفي أثناء ذلك صدر كتاباه أدب الخواص والايناس، وكان الأول منهما مصدراً بدراسة قيمة لأستاذنا الجليل الشيخ حمد الجاسر؛ كما أن الأستاذ ابراهيم الأبياري نشر الايناس وقدم له بدراسة في المؤلف، وقبل ذلك بكثير أصدر الدكتور سامي الدهان رحمه الله رسالة الوزير في السياسة، وكتب لها مقدمة عرَّف فيها بالمؤلف بإسهاب، كما جمع التراجم التي وردت في ما اطلع عليه من مصادر. وقد قرأت كل هذه المقدمات وأفدت منها، حتى لقام في وهمي أنني لا أستطيع أن أتجاوز ما قدَّمه هؤلاء العلماء الأجلاء. وقد أدرت المسألة في نفسي طويلاً، ثم قرَّ العزم على كتابة دراسة عن الوزير المغربي، فمن يدري لعلني أستطيع أن أقول فيها أشياء لم يقلها الذين سبقوني إلى دراسته.

وقبل أيام أنهيت كتابي في دراسة عبد الحميد الكاتب، وحين درست الوزير المغربي وجدتني أدرس علماً كبيراً من أعلام النثر، ذا علاقة معنوية ومادية بعبد الحميد، فالعلاقة المعنوية هي إعجابه بشيخ الكتاب ومقدمهم، حتى سمّى ابنه عبد الحميد وكناه أبا يحيى، والعلاقة المادية هي أنه حلقة في السلسلة النضرة في تاريخ النثر الفني، تلك السلسلة التي بدأت أولى حلقاتها بعبد الحميد.

هذا هو الوزير المغربي «صانع» الملوك والدول، أقدّمه دون تزيد، وقد كان همي الأكبر رسم سيرته حسب مراحلها الزمنية، مع تقديم لمحة عن نشاطاته في حقول المعرفة، والله الموفق.

الجامعة الأردنية في ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧

إحسان عباس

١

سيرة الوزير المغربي

١ ـ نسبه ـ جدّه وأبوه :

الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد المغربي لم يكن من أهل المغرب، وإن أوحت هذه النسبة بذلك، بل كان مشرقياً بعيد الجذور في الانتماء المشرقي، يرفع نسبه إلى الملك الفارسي بهرام جور[١]، ويتناقل المؤرخون هذا النسب عنه دون شك أو إثارة لشك، فالناس مصدقون في أنسابهم. وانما نسب إلى المغرب لأن أحد أجداده (وهو علي بن محمد في سلسلة النسب) كان مسؤولاً في بغداد عما يعرف بديوان المغرب، وقد تردَّدَ ابنُ خلّكان في قَبولِ هذه الرواية لأن الوزير المغربي قال في كتابه «أدب الخواص» حين ذكر المتنبي «وإخواننا المغاربة يسمونه المتنبه. . . » ومن ثم استنتج ابن خلكان لقوله «إخواننا» أنه مغربي حقيقة[٢]. ولم يكن لهذا التردد أية ضرورة، فإن ابن خلكان لو اطلع على إحدى رسائل الوزير لدفع الشك

---

(١) الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون (وقيل ساسان هو المعروف بالحرون) بن بلاش بن جاماسب بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور (ابن خلكان ٢ : ١٧٢ نقلاً عن ابن الصيرفي المصري، وقد نقله غير ابن خلكان، انظر بغية الطلب ٥ : ١٤).

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٧٧.

باليقين، فالرجل صريح في تفسير هذه النسبة إذ يقول «وكان جد أبي وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلف على ديوان المغرب فنسب به إلى المغربي»[1].

وقد ظل الجدّ الأعلى أبو الحسن علي بن محمد يعيش في البصرة إلى أن قام آل البريدي ـ وهم من إقطاعيي البصرة وممن شغل مناصب عالية في الدولة ـ بثورة سيطروا من خلالها على البصرة والأهواز وواسط[2]، وذلك في حدود العام (٣٢٤ ـ ٣٢٥) فانتقل عليّ إلى بغداد. وقد كان له بعض مشاركة في الأدب إذ روي له البيتان التاليان: [3]

وأني على الإقتار أحملُ همةً
لها مسلكٌ بين المجرَّةِ والنسرِ
أؤمّلُ نفسي لا أؤملُ غيرها
من الناس أو يأتي الغنى وهو ذو صُغْرِ

وفي حيّ سوق العَطَش رُزِقَ بابنه الحسين ـ الجدّ الأدنى لمن أصبح يعرف من بعد باسم الوزير المغربي ـ وقد نشأ الجدُّ ببغداد، وتقلّد فيها أعمالاً متنوعة، وتزوج امرأة من بني الأوارجيّ كانت أخت هارون بن عبد العزيز الذي مدحه المتنبي بإحدى قصائده المبكرة[4]، أنجبت له ممن نعرف ولدين هما علي ومحمد.

وتحول الحسين الجدّ من بغداد يصحبه ختنه الأوارجي إلى حلب، فاستكتبه (أي الحسين) سيف الدولة ابن حمدان، ولم يصطحب ابنيه معه، بل تركهما في بغداد، وفيها كبرا وترعرعا، واستولى الجدّ ـ حسبما يقوله

(١) بغية الطلب ٥: ١٦، وانظر أيضاً ٥: ١٢٤.
(٢) تجارب الأمم ١: ٣٦٦.
(٣) أدب الخواص: ١٠٢.
(٤) هي القصيدة التي مطلعها:
أمن ازديارك في الدجى الرقباء   إذ حيث أنت من الظلام ضياء

حفيده ـ على سيف الدولة استيلاء «تشهد به مدائحُ أبي نصر ابن نباتة فيه». فهو يتحدث عن «مدائح» ـ بصيغة الجمع ـ وعند الرجوع إلى ديوان ابن نباتة لم أجد له إلا قصيدة واحدة في مدحه هي القصيدة السابعة ـ حسب ترتيب الديوان[1] ـ وقد جاءت في ستة وخمسين بيتاً، وهي مصدرة بالعبارة الآتية: «وقال وكتب بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي بن المغربي الكاتب وكان له صديقاً، وسأله أن يعمل له قصيدةً يشرحُ بها حاله مع سيف الدولة لينشده إياها، وذلك قبل إفضاء الوزارة إلى أبي القاسم». وقد كشفت هذه المقدمة أن القصيدة لم يكن هدفها الحقيقي بأن تكون مدحاً في ابن المغربي، ولم تكن وليدة مبادرة من ابن نباتة، بل نظمت بطلب من ابن المغربي لتكونَ وسيلةً تلفتُ إليه انتباه سيف الدولة، وأن رابطة الصداقة ـ لا المنزلة التي بلغها ابن المغربي ـ هي التي سوّغت نظمها، ولكن هذه المقدمة أفادت أن ابن المغربي الجدّ لم يبق كاتباً لدى سيف الدولة بل ترقّى إلى منزلة الوزارة.

ومن المستغرب ألا نجد لابن نباتة مدائح أخرى فيه، بعد أن اجتمعت الصداقة وعلو المنزلة في قَرَنٍ. نعم إنها تحتوي على مدح ابن المغربي في قوله:

فعاشَ لها ابنُ المغربيِّ فإنه ... نداهُ إلى حَمْدِ الرجالِ ذرائعُ
أخي وخليلي والحبيبُ وَجُنَّتي ... وسيفي ورمحي والفؤادُ المشايع
أكلُّ ظُباه للمنون مناصب ... وأدنى نداه للسحاب طبائع
فتىً تأنسُ الدنيا به وهو موحشٌ ... وتدنو إلى أهوائه وهو شاسع

ولكن المقصود فيها هو سيف الدولة:

أعذني بسيف الدولة اليوم أن أرى ... أُخادِعُ أعدائي به وأصانع

(١) ديوان ابن نباتة ١: ٢١١ ـ ٢١٨.

على أنا وإن لم نجد قصائد أخرى لابن نباتة في مدح ابن المغربي الجدّ، فذلك لا يعني أن حديث الحفيد عن جده، كان مباهاة وتكثراً، لأن بلوغه منزلة الوزارة يؤكد ما أحرزه من رفعة المكانة في مملكة حلب، وهذا من شأنه أيضاً أن يطمئننا إلى أن ما نسبه الحفيد إليه من أنه «كان كاتباً مجيداً شاعراً، حسن النظم والنثر»[1] ليس محمولاً كذلك على الاسراف في المبالغة، وإن كنا لا نملك القدر الكافي من شعره ونثره للحكم على مدى جودته، وقد روى له حفيده هذه الأبيات[2]:

إنّ شكوى المرءِ فيما نابه   خَوَرٌ في نفسه مما نَزل
واطّراح الفكرِ في رَفْعِ الأذى   خَوَرٌ في عقل من عنه عدل
فانفِ عنك الهمَّ بالعزم وَدَعْ   عقلك الجمّ مُعَدّاً للحيل

وهي أبياتٌ ذهنية خالصة ليس فيها رهافة شعر الكتاب. فأما نثره فقد احتفظ منه حفيده برسالة في وصف النخلة يقول في أولها[3]: «فأما ذوات الطول المديد، والقوام بغير تأويد، المخصوصات بالطلع النضيد، والمزيّنات بالسَّعَفِ والجريد، الممنوحات عمومة الأنساب[4]، الباقيات على مرور الأحقاب، المطمعات في المحل أنواع الرطاب، فبدء خلقها من التراب...». ويتحدث في هذه الرسالة ـ محافظاً على السجع فيها ـ عن تطور ثمر النخيل في مراحله المختلفة حتى يصبح رطباً جنياً، وعن ما تمثله النخلة من مكانة معنوية رفيعة بذكرها مراراً في القرآن الكريم، وتسخيرها لمريم تهزّها فيتساقط عنها الرطب. واختيار ابن المغربي وصفَ النخلة موضوعاً لرسالة يدلّ على أنه لم يكن كاتباً ديوانياً فحسب، بل كان يمارس الكتابة الانشائية، خارج نطاق الديوان.

---

(١) بغية الطلب ٥: ١٢٤.
(٢) بغية الطلب ٥: ١٢٦.
(٣) بغية الطلب ٥: ١٢٤.
(٤) يشير إلى قول للرسول جاء فيه «عمتكم النخلة».

وخلاصة ما هنالك أن هذا الجد قد رسم لأبنائه وحفدته من بعده طريقاً لم يحيدوا عنها وهي طريق ذات شقين متصلين: خدمة الدولة والتمرس بفنون الكتابة. وقد ظلَّ حياً حتى سنة ٣٥٤، ففي ذلك العام عقد سيف الدولة الفداء مع الروم واشترى أسرى المسلمين بجميع ما كان معه من المال، ولم يفِ المالُ بفداء جميع الأسرى فرهن كاتبه ابن المغربي عليهم «بدنته الجوهر المعدومة المثل»[1]، ولعله توفي في العام المذكور أيضاً.

وقبل وفاته كان ابناه اللذان تركناهما في بغداد قد كبرا، وأرسل الإخشيد في استقدامهما إلى مصر. أما لماذا يفعل الاخشيد ذلك فأمر يشبه اللغز، نعم كان أبوهما قد تعرف إلى الاخشيد أثناء وجوده في الشام، أول انتقاله إليها من بغداد، ولكن ما هي المكانة التي بلغها الأَخَوَان في بغداد حتى تحمل الاخشيد على إرسال فاتكٍ الملقب بالمجنون ـ ممدوح المتنبي من بعد ـ ليجيءَ بهما إلى مصر عن طريق الرحبة؟[2] وبماذا كان ينوي أن يكلفهما؟ أكبر الظن أن استدعاءه لهما إنما كان استجابةً لرغبة الأب الذي نفترض أن معرفته بالاخشيد بلغت حد الصداقة، ولكن يبقى السؤال وارداً، لماذا لم يضمهما أبوهما إليه في كنف سيف الدولة وله منه تلك المنزلة؟

ومن الواضح أن إقامة الأخوين بمصر لم تطل، إذ نرى الابن علياً يخلفُ أباه في خدمة سيف الدولة (المتوفى سنة ٣٥٦) بحلب، ويستولي على أمره، كما استولى أبوه من قبل، ومن بعد روى لأبي العلاء المعري ـ أو لغيره ونقل الرواية أبو العلاء ـ أنه كان مع سيف الدولة وهما خاليان، فسأله سيف الدولة عن التزويج فقال له عليّ بن الحسين: لي بنتُ عمّ وأنا أنتظرُ قدومها

---

(١) بغية الطلب ٥: ١٢٧.
(٢) بغية الطلب ٥: ١٢٧.

عليّ. فتلفَّتَ سيف الدولة يميناً وشمالاً هل بقربه من يسمعه ثم قال: لا تفعل، بنتُ العم ثَبَتَ الغمّ[1]. ويبدو أنه لم يفعل إذ إنه تزوج ـ أثناء مقامه بديار الشام بنت محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني[2]، وهي أم الحسين ـ موضوع هذه الدراسة ـ ولعلها أيضاً أم أخوين آخرين له. والنعماني نسبة إلى النعمانية، وهي بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة، وأهلها كلهم شيعة[3]، فأمُّ الحسين عراقية شيعية، ورث عنها أبناؤها في النعمانية أملاكاً[4].

وبعد وفاة سيف الدولة استمر عليٌّ في خدمة ابنه سعد الدولة أبي المعالي وشاركهُ الرأيَ في إدارة الدولة، كما شاركه في مدائح أبي العباس النامي[5]، ولم يصلنا من مدائحه فيه شيء، كما لم يصلنا شيء من مدائح ابن نباتة فيه مع تصريح ابنه بذلك[6] ولعله في هذه الفترة اتصل به عبد المحسن الصوري (٣٣٩ ـ ٤١٩) ومدحه، ومن مدائحه فيه قصيدة مطلعها[7]:

أتــرى بثـأرٍ أم بِدَيْنِ ... علقــتْ محاسنهــا بعيني

ومنها في المدح:

كانــت كذلك قبــل أنْ ... يأتــي علــيُّ بن الحسين
فـاليومَ حالُ الشعــر ثا ... لثــةٌ لحــالِ الشعريين
أغنــى وأعفــى مدحــه الـ ... ـعــافين عن كَذِبٍ ومين

(١) الصاهل والشاحج: ٦٦٨.
(٢) ابن خلكان ٢: ١٧٢.
(٣) معجم البلدان لياقوت ٤: ٧٩٦.
(٤) بغية الطلب ٥: ١٧.
(٥) بغية الطلب ٥: ١٧.
(٦) أدب الخواص: ٧١.
(٧) ابن خلكان ٣: ٢٣٣.

ولا ندري كم أقام عليٌّ في صحبة سعد الدولة، فقد تقلبت الأيام بأبي المعالي كثيراً، بين سيطرة على حلب وفقدان لها، وحروب مع الروم، أو شراء للهدنة منهم بالمال، ففارقه علي بن الحسين. ويوصف ما جرى بين الرجلين بأنه كان «نبوة أوجبت انفصاله»[١] ويقال عن هذا الانفصال في موضع آخر: «ثم شجر بينهما ما يتفق مثله بين المتصاحبين في الدنيا»[٢]. ومما يدلّ على أن «النبوة» بين الرجلين كانت حادة أن سعد الدولة فيما يبدو لم يسمح لعليّ أن يصحب أهله معه. وهذا مما يوحي به قول الابن: «فإنا كنّا بحلب مُعَوَّقينَ من بعده»، فإن لم يكن هذا هو معنى التعويق، حملنا الأمر على أن علياً بادر إلى مفارقة حلب، فراراً بنفسه دون أن يتمكن من اصطحاب أهله معه، فغادر الرحبة إلى الأنبار في طريقه إلى مدينة السلام. وفي رواية أن سعد الدولة أباح دمه، فلجأ إلى مشهد عليّ بالكوفة ومن مقامه هنالك كاتب العزيز، فرحَّبَ بمقدمه[٣]. ويبدو أن ذهابه إلى العراق كان في حدود سنة ٣٧٩ وهي السنة التي توفي فيها شرف الدولة البويهي وخلفه ابنه بهاء الدولة، وشجر الخلاف بينه وبين فخر الدولة البويهي، وغلبت الفوضى والاضطراب على العراق، وجاء من يحذّر علياً بأن بقاءه في العراق محفوف بالخطر، وكان يعلم أيضاً أن عودته إلى حلب تغرير بالنفس، غير أن تَعَرُّفَ حالِ مَنْ خلَّفهم وراءه فيما يشبه الأسر، حمله على ركوب الصعب، فعاد إلى حلب، ولكنه لم يُطِلِ الاقامةَ في ما يظهر، ولم تبقَ له وجهة يؤمها ـ بعد أن أغلقت الشام والعراق بابيهما في وجهه ـ إلا أن يؤم مصر، وهكذا كان. وأغرته الحظوة التي لقيها هنالك باستقدام جميع من تخلفوا في حلب[٤]،

(١) بغية الطلب ٥: ١٥.
(٢) بغية الطلب ٥: ١٧.
(٣) ذيل تاريخ دمشق: ٣٨ ونهاية الأرب ٢٦: ١٥٨ وابن الأثير ٩: ٨٨.
(٤) ذيل تاريخ دمشق: ٣٨ ونهاية الأرب ٢٦: ١٥٩.

وكان دخوله إلى مصر في النصف من جمادى الأولى سنة ٣٨١؛ وفي مصر اتخذه العزيز كاتباً له [١].

ولكي نستطيع أن نتصور ما كان يحدث حينئذ علينا أن نتذكر أن التنافس بين القوى الثلاث: الحمدانيين والفاطميين والروم كان يجعل ديار الشام لقمة متنازَعة، ويسمح لبعض الطامحين بالاستقلال، وهكذا استطاع غلامٌ اسمه بكجور أن يستقلَّ بدمشق، ويعلنَ العصيان على سعد الدولة. ثم إن هذا الغلام أساء التصرف إلى الفاطميين فأخذوا منه دمشق، فذهب إلى الرقّة وعاش فيها خاملاً، غير أنه لم يَنْسَ أن الفرص قد تسنحُ للمرء إذا هو اهتبلها، فكتب إلى العزيز يذكر له جلالةَ حلب، وأنها «دهليز العراق» ويحرّضه على انتزاعها من يد سعد الدولة، فأجيب بكجور إلى ما أراد، وَزُوِّدَ بكل ما طلب، وجعل علي بن الحسين ابن المغربي كاتباً له، وزحف بالجيش إلى حلب ونزل في الموضع المعروف بالنيرب، وبدا أن الفوز محققٌ لسعد الدولة إذ تخلى عن بكجور من كان يؤمّل لديهم نصرته فاستدعى كاتبه ابن المغربي وقال له: «غررتني وأوهمتني أن العزيز يجيئني ويعاونني، وأن العرب تُخْلِصُ لي وتناصحني... وما كان لشيء من ذلك حقيقة، فما الرأي الآن فإن بإزائنا عسكراً عظيماً». فنصحه ابن المغربي أن يرجع إلى الرقة ويكاتب العزيز يخبره بأن من بُعِثَ لنجدته تخلّف عنه. إلا أن بكجور أصاخ إلى نصيحة رجل آخر من رجاله أشار عليه بالثبات، فما كان من ابن المغربي إلا أن بذل لبدوي من بني كلاب أن يوصله إلى الرقة مقابل ألف دينار ففعل [٢]. وقد كانت نتيجة المعركة بين بكجور وسعد الدولة هزيمة بكجور ثم مقتله، وسار سعد الدولة إلى الرقة وفيها سلامة الرشيقي وأولاد بكجور، ففاوضه سلامة على تسليم

(١) ذيل تاريخ دمشق: ٢٧ - ٣٤ وابن الأثير ٩: ٨٧ - ٨٩.
(٢) ذيل تاريخ دمشق: ٣٧.

البلد شرط الإبقاء على أولاد بكجور وأمواله ما عدا آلات الحرب والعدد. وكان الذي كتب نصَّ اليمين ليرددها سعد الدولة هو ابن المغربي نفسه الذي كان قد هرب منه قبل حوالي سنتين، ولم يؤاخذه سعد الدولة بما كان فعل[1].

وبعيد النصر الذي أحرزه سعد الدولة بقليل أدركته منيته، وخلفه ابنه أبو الفضائل، فما كان من ابن المغربي إلا أن كتب إلى العزيز «يعظِّم أمرَ حلب عنده، ويكبّر في نفسه أحوالها ويهوّن عليه حصولها»[2] فأرسل إليها قائداً اسمه منجوتكين وضمَّ إليه ابن المغربي ليقومَ بالأمرِ والتدبير، وزحف جيش الفاطميين إلى حلب، فاستنجد أبو الفضائل بالامبراطور بسيل، فأمر بسيل البرجيَّ صاحب أنطاكية بأن يجمع جيشاً ويقصد حلب ويدفعَ جيشَ المصريين عنها، فنزل البرجي في الموضع المعروف بجسر الحديد بين أنطاكية وحلب، فتحوَّل منجوتكين وابن المغربي عن حلب لمناجزة الروم كي لا يحصلوا بين عدوين، وواقفوا الروم، والنهر المعروف بالمقلوب يفصلُ بين الفريقين، وكان النصر في المعركة لمنجوتكين وابن المغربي.

هذه المعركة خلّدها أبو العلاء المعري في قصيدة له مطلعها[3]:

هو الهجرُ حتى ما يُلِمّ خيالُ ... وبعضُ صدود الزائرين وصالُ

ويذكرُ أن المعركة كانت عند حارم، وأن البحر جاش على حارم في صورة كتائب، وتساقطت عليها الشهبُ في صورة نصال، ويشير إلى النهر الفاصل بين الجيشين بقوله:

وقى الخيلَ من ماءِ المخاضة عفة ... وهنَّ إلى ماءِ النفوسِ نهالُ
يردن دماءَ الروم وهي غريضةٌ ... ويتركن وِرْدَ الماءِ وهو زلال

(١) ذيل تاريخ دمشق: ٣٨.
(٢) ذيل تاريخ دمشق: ٣٩.
(٣) شروح سقط الزند: ١٠٤٦.

ثم يتوجه إلى ابن المغربي مادحاً:

فلا زلتَ بدراً كاملاً في ضيائه   على أنه عند النماءِ هلال
فما لخميسٍ لم تَقُدْهُ عرامةٌ   ولا لزمانٍ لستَ فيه جمال

ها هنا يمكننا أن نتوقف قليلاً لنسأل: هل كانت هذه القصيدة أول علاقة بين المعري وآل المغربي، وإذا كانت كذلك فكيف بدأ التعارف، وماذا كان يريد أبو العلاء من هذا المدح؟ للإجابة على هذه الأسئلة جميعاً علينا أن نتذكر أن أبا العلاء كان في العشرين من عمره يوم نظم القصيدة، ولما لم يكن شاعراً طالبَ عطاء، فإنه لا تفسيرَ لهذا المدح إلا أن يكون إشادةً بعلاقة سابقة بلغت حدَّ الصداقة الممزوجة بالاعجاب، فإن لم تكن صداقةٌ شخصية فلا أقلَّ من أن تكون رعايةٌ للمعرة وأهلها يوم كان ابنُ المغربيّ وزيراً لسعد الدولة. ولدينا قصيدة أخرى يدل مستواها على أنها بقيةٌ من قصيدة حَذَفَ منها أبو العلاء الكثير، لأنها كانت من ثمرات الصبا، وفي هذه القصيدة يمدح عليّ ابن الحسين المغربي ويشير إلى أصله الفارسي ويمجّد ذلك الأصل ثم يقول[1]:

فهلاّ تقلُّ بُغاةُ اللجينِ   ونائلك الذهبُ الأحمرُ
ومن يطلبُ الدّرَّ في لجةٍ   ومن فيك أشرفُهُ يُنْثَر

إننا إذا قدرنا أن هذه القصيدة تم نظمها حين كان أبو العلاء في الخامسة عشرة أو قريباً منها، فذلك قد يسمح بتصور فترة نمت فيها علاقةٌ متينة بينه وبين الكاتب الوزير لدى الحمدانيين، وهي صلة تجعله يحملُ ذكرياتٍ طيبة عن تلك العلاقة. فإذا تذكر عليَّ بن الحسين من بعد قال: «كان ذلك الرجل سيداً، ولمن ضَعُفَ من أهل الأدب مؤيداً، ولمن قوي منهم وادّاً، ودونه للنوب محادّاً»[2].

(١) شروح سقط الزند: ١٨٩.
(٢) رسالة الغفران: ٥٢٤.

وحين أيقن لؤلؤ الكبير الوصي على أبي الفضائل بأن مساعدة الروم له لم تعد ممكنة، بعد تلك الهزيمة، كاتب ابن المغربي والقشوري (كاتِبَ منجوتكين) لعلهما أن يقنعا منجوتكين بترك حلب وشأنها، والعودة إلى دمشق، وبذل لهما على ذلك مالاً، وصادف ذلك قلةً في الميرة والعلوفات والأقوات، مما جعل منجوتكين يرحّبُ بالانسحاب والانكفاء إلى دمشق. غير أن العزيز لما عرف ذلك استاء، وكان لابن المغربي في حضرته أعداء يكيدون له، ويقعون فيه، فأوغروا صدره عليه فعزله عن التدبير وولّى رجلاً آخر مكانه[1].

ولست أعتقد أن هذا الاقصاء قد طال أمده وإن سكتت المصادر عن عودة ابن المغربي إلى سابق حظوته، ولعل ذلك تمّ أيام العزيز إذ تقول إحدى الروايات إنه بلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور ويأتمنه على الأسرار[2]. ثم نجده في ظل الحاكم سنة ٣٩٠ أحد المقربين الذين يصاحبون الخليفة حين يبرز للناس، أو يجلس في العشايا في قصره، وهم خمسة عن يمينه وخمسة عن يساره، وابن المغربي وأخوه في الخمسة الذين يجلسون في الجهة اليسرى[3].

ثم تسكت المصادر عن ذكر أي نشاط متميز لابني المغربي، إذ يبدو أن الأمور جرت كالمعتاد وهما في منصبيهما، حتى أمر الحاكم بقتلهما وقتل أبناء عليٍّ منهما.

٢ ـ نشأته ـ بين الشام ومصر:

عند هذا الحدِّ يجب أن نعودَ قليلاً إلى الوراء: عندما كان علي بن

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ٤٢.
(٢) نهاية الأرب ٢٦: ١٥٨.
(٣) اتعاظ الحنفا ٢: ٣١.

الحسين المغربي يعيش في حلب، رزق بابنه حسين، وقد قيد تأريخ مولده بأقصى دقةٍ حين قال: «وُلِدَ سلَّمه الله وبلَّغه مبلغَ الصالحين أولَ وقت طلوع الفجر من ليلة صباحها يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمائة»[1]، ولا ريب في أن حلب كانت مسقط رأسه، وأن ما قيل خلاف ذلك فهو خطأ كقول ابن الجوزي إنه ولد بمصر[2]، والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله في أدب الخواص: «قال بعض عامة بلدنا الحلبيين . .»[3] وحنينه إلى بابلاّ إحدى ضواحي حلب وتسميته إياها بـ «الوطن»، وهو بعيد عنها:

ليس من لم يَسِلْ حنيناً إلى الأو   طان إن شتت النوى بظريفِ

وحديثه عن هرب أبيه من الشام إلى العراق وبقاء أسرته بحلب، قبل أن يعرف طريقاً إلى مصر مرة ثانية، وحديث أبيه إلى سيف الدولة عن إزماعه الزواج وهو بحلب، واليقين القاطع بأن أباه لم يفارق مدينة حلب إلا بعد سنة ٣٧٠، أي العام الذي ولد فيه الحسين، وعدم تردد ابن العديم ـ وهو المؤرخ المدقق ـ في القطع بأن مكان مولده هو حلب، ومتات ابن القارح الحلبي إليه برابطة البلدية[4] وقد وصل أبوه إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٨١[5] ـ كما تقدم ـ وإذن كان عمر الحسين حين انتقل آل المغربي إلى مصر قرابة إحدى عشرة سنة. وأراني أرجّح أنه بدأ تحصيله العلميّ في سن مبكرة وهو بحلب، إذ كانت ملكاته تؤهله لذلك حتى أن أكثر الناس بغضاً له يصفه بالذكاء[6]، وأنه بدأه على نحو مكثف. وهذا الفرض وحده هو الذي يفسر كيف استطاع قبل أن يستكمل أربع عشرة سنة ـ بشهادة أبيه نفسه ـ: «أن

---

(١) بغية الطلب ٥: ١٧ والوافي ١٢: ٤٤١ والبداية والنهاية ١٢: ٢٣.
(٢) المنتظم ٨: ٣٢ وابن الأثير ٩: ٣٣١ ومرآة الزمان ١٢: ٤٧ والبداية والنهاية ١٢: ٢٣.
(٣) أدب الخواص: ٧١.
(٤) رسالة الغفران: ٥٥.
(٥) الاشارة إلى من نال الوزارة: ٤٧.
(٦) لسان الميزان ٢: ٣٠١.

يستظهر القرآن وعدة من الكتب المجردة[1] في اللغة والنحو ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم وأن ينظم الشعر ويتصرف في النثر ويبلغ من الخطّ ما يقصّر عنه نظراؤه وكذلك من الحساب والجبر والمقابلة ما يزيد عن ما يحتاج إليه الكاتب»[2]. ونظرة واحدة إلى هذه العلوم التي بدأ بها وأتقنها تدلُّ على أن والده كان يريده أن يقتفي أثره وأثرَ جده، فيتخرج وهو مزوّد بكلٍّ الثقافة التي تتطلبها مهنة الكتابة. وليس في جريدة الشيوخ الذين درس عليهم من نعده أستاذاً له في الفترة الشامية سوى والده ومحمد بن عيسى النامي. وبعض الذين يحملون النسبة إلى حلب مثل علي بن لؤلؤ الحلبي وعلي بن محمد الحلبي وأحد التنوخيين وهو محمد بن الحسن التنوخي. ولكن الظن يذهبُ بي إلى أنه تعرف، وهو صغير السن، إلى أبي العلاء وزاره بصحبة أبيه في المعرة، وأعجب الصبي بذلك الضرير الذي لا يكبره إلا بسبع سنوات أو ثمان، ويعرف الكثير الكثير، عن ظهر قلب، وأعجب المعريّ بالصبي (وبرَّك على رأسه) وتنبأ له بأنه سيبذّ أقرانه، كل هذه فروضٌ حقاً ولكنني لا أراها بعيدة عن الصواب، فقد انتقل إعجاب الأب بالمعري إلى ابنه، وكان ذلك الاعجاب عاملاً في إقباله على المعرفة بنهم، وتوجُّهِهِ لإتقان اللغة، ذلك الجانب الذي بلغ فيه تفوق أبي العلاء حداً يبهرُ كلاً من عرفه وقاربه. ولنا أن نقول إن هذا الاعجاب بالمعري هو الذي كان له الدور الفعّال في نقل الحسين من دائرة ثقافة الكتاب ـ وهي إلمامٌ بالضروريّ ـ إلى ثقافة العلماء، وهي الغوصُ في كل علم، وإتقانُهُ على حدة. وفي رسالة كتبها من مصر إلى أبي العلاء وأخيه ما يؤكد تلك العلاقة، وأنها كانت قبل رحيله عن الشام. إن شخصاً يكتب «إني كتبتُ وما لي جارحةٌ إلا وهي جريحة حبّهما، ولا جانحةٌ

(١) في بعض الروايات: «المحررة»، والمجرّدة هي التي تقتصر على المتون دون الحواشي.
(٢) بغية الطلب ٥: ١٧ ـ ١٨ والوافي ١٢: ٤٤١ وابن خلكان ٢: ١٧٢ وروضات الجنات: ٢٤٠، وأعيان الشيعة ٢٧: ٩.

إلا وهي جانحة إلى قربها» لا يمكن أن يقول مثل هذا القول إلا ولديه معرفة سابقة تسمحُ له بذلك. ومثل ذلك أيضاً قوله: «ولا غرو وإن بعد العهد إذا قرب الود، ولا ضير إن تناءت الأشباح فقد تدانت الأرواح»، وهذا يعني أن هناك عهداً كان موجوداً ثم مضى وتناءى، وأن الأشباح -أي الأجسام- كانت متقاربة فتناءت كذلك. نعم إن الرسالة تمرين مبتدىء على حديثٍ عاطفيّ يراوح بين النثر والشعر لإظهار قدرة إنشائية نثراً ونظماً، ولا تتحدث بشيء عن وجود صلة على أرض الواقع ولا تكشف عن شيء مهم إلا إذا صدقنا أن الشكوى التي يبثها تمثّل واقع الكاتب النفسي يومئذ. ولكن على ذلك كله فإنها تؤكد علاقة كانت قائمة تسمح بتلك الشكوى نفسها. وتشير رسالة من رسائله ضاعت وقصيدتان إحداهما ميمية والأخرى رائية إلى أن علاقته كانت واشجة لا بأبي العلاء وأسرته وحسب بل كانت بالمعرة نفسها وثيقة، وهذا ما تصوره رسالة المنيح للمعري التي ردَّ بها على الرسالة الضائعة والقصيدتين، إذ يقول «وإنما هو في الرحيل عنها كجسم ذي روح، نُقِلَ من الغِرْقِىء إلى اللُّوح، وهي بعدُ كقسيمة الوسيمة ذهب عطرها وبقي نَشْرها، وإنما شَرُفَتْ على سواها، وطالت على البلاد دون ما والاها، لإقامته بها في تلك الأيام، وإنامَتِهِ عن أهلها نواظرَ أزام، فَعُرِفَتْ به، ونالتْ خَيْرَهَا من حسبه...»(1). ثم يحاول اعتماد حسن التعليل في انتقال الحسين عن المعرة بقوله: «ولعل المعرَّةَ قد نظرت أصحَّ النظر، وفكرت فيما لا ينتقض من الفكر، فعلمتْ أنه عِقْدٌ لا يصلحُ لمقلَّدها، وسوارٌ يرتفعُ لجلالته عن يدها»(2)، لهذا تخلَّتِ المعرةُ عن أنانيتها وسمحت بفراقه لها ولكنه «ظَعَنَ وأَرَجُهُ مقيم، وارتحل وللثناءِ تخييم»(2)، وعلى الرغم من التواضع الجمّ الذي يبديه المعري إزاء هذا

---

(1) رسائل المعري ١: ١٦٢ - ١٦٣ والغرقىء: القشر الرقيق حول بياض البيضة، واللُّوح: الجو، والقسيمة: جونة العطار، والوسيمة: المرأة الجميلة، وأزام: السنة الشديدة.

(2) رسائل المعري ١: ١٦٣، ١٦٤.

الشاب الناشىء ـ والتواضعُ من سماته الملازمة ـ (هـل أَدَبـي في أَدَبـه إلا كالقطرةِ في المطرة)[1] فإنه صريحٌ في مدى ما يحمله له من حبٍّ وتقدير «فيعلم أن الرُّوعَ وجوانحَ الضلوع، مفعمةٌ له بالإعظام، مترعةٌ بمحبته إتراع الجام» وهذا الحبُّ غير مستمد من إفضال المغربي الأب على المعري بل من تفوق المغربي الابن وتميزه ونبله، وقد ذهب المعري في ذلك مذهباً أثـار النقـد ضده: «حتى استجهلني الذي لا يعلم، وتكلَّم في فضيلتي من تكلم، لأني ما اقتنعتُ بتفضيله على الأحداث، دون سكَّان الأجـداث»[2]. فإذا كان ابـن المغربي حين اختصر إصلاح المنطق لم يطمئن إلـى عرضـه إلا علـى أبـي العلاء، فذلك يؤكد تلك الثقةَ والاعجاب المتبادلين. وقد يقال إنه فعل ذلك بنصيحةٍ من أبيه، ولكن هذه الصلة الوثيقة بالمعرة والمعري تجعلنا نتأكد من أن تلك النصيحة كانت توكيداً لما في نفس الابن، ولكن هذا الحديث سابق لأوانه وسيجيء في مكانه.

في مصر وجد ابن المغربي بيئةً علمية رحبة، فاستكمل ثقافات ابتدأها في الشام، وسلك اتجاهات ثقافية أخرى جديدة: كانت مؤسسات العلـم ـ وفي مقدمتها «دار العلم» متنوعة، وكانت المكتبات ـ وبخاصة مكتبة القصر ـ حافلةً بصنوف الكتب في كل علم. فوجـد في دار العلـم جنـادة بن محمـد الهروي[3] الذي كان مكثراً من حفظ اللغة ونقلها، ومعه الحافظ عبد الغني بن سعيد المصري[4] حافظ مصر في عصره، والمقرىء الأنطاكي أبو علي الحسن ابن سليمان[5] أحفظ أهل زمانه للقراءات، وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم المذاكرات والمطارحـات، ولسبـب لا ندريه نقـم

---

(١) رسائل المعري ١: ١٧٥.
(٢) رسائل المعري ١: ١٧٦.
(٣) ابن خلكان ١: ٣٧٢.
(٤) ابن خلكان ٣: ٢٢٣.
(٥) غاية النهاية ١: ٢١٥.

عليهم الحاكم من بعد كما نقم على آل المغربي، فقتل جنادةَ والحسن، واختفى عبد الغني. ولعل أستاذنا الجليل الشيخ حمد الجاسر على صواب حين يقول: «لا أستبعدُ أنّ قتل جنادة شيخ ابن المغربي له صلة بقتل أبي المغربي وعمّه وأخويه، وإن كان المؤرخون يفرّقون بين زمن الحادثتين»[1] وتلك مسألة لعلّني أعود إليها عند الحديث عن مقتل آل المغربي. وهؤلاء الثلاثة متقاربو الثقافة ويمكن أن نعدّهم في من يحسنون اللغة والنحو، فإذا أضفنا إليهم محمد بن الحسين اليمني وكان نحوياً، ومحمد بن عبد الملك التاريخي وكان كذلك، وجدنا أن انصراف الحسين إلى اللغة والنحو استأثر باهتمامه في مطلع حياته الثقافية. على أنه اتصل في مصر بعلماء آخرين من أهمهم أبو جعفر الطحاوي، وسمع عليه كتاب المزني[2]. ولعله في هذه الفترة نفسها سمع موطأ مالك من جهتين على شيخين، كما سمع صحيحي البخاري ومسلم وجامعَ سفيان ومسانيدَ عدةً عن التابعين[3]، وقد لقي بمصر عدداً من الشيوخ، وعدّ له ابن العديم ثمانية عشر شيخاً، ويمكن إضافة أسماء أخرى إليهم. وتعرف إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة وحدّث عنه وروى عنه كتاب إصلاح المنطق باسناد يتصل إلى ابن السكيت، كما رواه عن جنادة الهروي باسناد آخر، ويخبرنا أنه كان يحادث ابن حنزابة ويجاريه شعر المتنبي، فكان الوزير يظهر تفضيل المتنبي، بما يتجاوز إحساسه الحقيقي نحوه، إذ كان المتنبي قد عرَّض به هاجياً في بعض شعره[4].

(١) أدب الخواص (المقدمة): ٢٢.
(٢) بغية الطلب ٥: ١٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن خلكان ١: ٣٤٩ (نقلاً عن أدب الخواص، وذلك من الفقرات الضائعة) وتعريض المتنبي به هو قوله:

بها نبطيّ من أهل السواد يدرّس أنسابَ أهلِ العلا

ولكن الذي صاحبه بعيد الرحيل عن الشام وأقام ملازماً له ولأبيه هو علي ابن منصور الحلبي المعروف بابن القارح والملقب دوخلة ، فإن أباه استدعاه فيما يقال إلى القاهرة ليكون مؤدباً للحسين[1] ، غير أن ابن القارح يصرح بأن علياً ابن المغربي هو الذي ربّاه ، وأنه هو قام بتربية إخوةِ الحسين ولا يذكر شيئاً عن تأديبه للحسين نفسه ، وذلك إذ يقول راوياً أحد المواقف بينه وبين الحسين : «وقلتُ له على أُنْسٍ بيني وبينه لي حُرُماتٌ ثلاث : البلديةُ وتربيةُ أبيه لي وتربيتي لإخوته» . ويذكر ابن القارح أن الحسين قال في جوابه : «هذه حُرَمٌ مهتّكة : البلديةُ نَسَبٌ بين الجدران ، وتربية أبي لك منةٌ لنا عليك ، وتربيتك لإخوتي بالخلع والدنانير»[2] . وأنا أستبعد أن يكون ابن القارح قد قام بتأديب الحسين لأسباب منها أن التحصيل الأولي الذي ناله الحسين قبل الرحيل إلى مصر كان يغنيه عن مؤدب ، وأنه حين وصل إلى مصر ـ فيما أقدر ـ كان يتطلّع إلى لقاء علماء يفوقون ابن القارح في المستوى العلمي . وإذا كان والده هو الذي ربى ابن القارح في حلب حقاً ، فإن الحسين عرفه في دور مبكر من حياته ، واطلع عن كثب على مساوئه ، وأضمر له كراهيةً في نفسه . ولعلَّ فارقَ السن بينهما لم يكن كبيراً ، بحيث يمكّن ابنَ القارح من أن يصبح لدى الحسين موضعَ احترام . ثم إن هذا التنافر بين قطبين يتجاوز العلاقةَ بين المؤدب وتلميذه ، لأنه خرج إلى العلن على نحو فاضح ، إذ عبر عنه الحسين بالاحتقار ، وعبّر عنه ابن القارح بمحض الهجاء ، وذلك شيء تجاوز حدودَ مصر إلى أن تم اللقاء بميافارقين من بعد ، وذاع حتى إن رجلاً كأبي العلاء المعري حين ذُكِرَ ابن القارح أمامه ميَّزه بقوله : «هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي»[3] . وتورد المصادر من هجاء ابن القارح للحسين قوله[4] :

---

(١) ذكر الصفدي في الوافي (٢٢ : ٢٣٤) أنه كان مؤدباً له .

(٢) رسالة الغفران : ٥٥ .

(٣) رسالة الغفران : ٥١ .

(٤) الوافي ٢٢ : ٢٣٤ .

لُقِّبْتَ بالكامل ستراً على نقصك كالباني على الخصّ

قصرتَ كالكُنْفِ إذا شُيِّدَتْ بُيِّضَ أعلاهنَّ بالجص

يا عُرَّةَ الدنيا بلا غُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ الشؤمِ والحرص

قتلت أهليك وأنهبتَ بيـ ـتَ الله بالموصلِ تستعصي

وهذا الهجاءُ صدر بعد مقتل آل المغربي والهرب من مصر وما اتصل بذلك من أحداث، أي أن الكراهية اتصلت واتصل بها الهجاء، وتجمعت سيئاتٌ جديدة بين الرجلين تحجب إمكان التقارب، ومع ذلك نجد ابنَ المغربيّ يستدعي ابنَ القارح حين صار في ميافارقين، وذلك حديث نرجئه إلى أن يحين أوانه.

وكان قد مضى على إقامة الحسين بمصر أقلّ من ست سنوات، حين وجد أنه يستطيع مبارحةَ التلقّي إلى العطاء، والتعلُّمَ إلى التأليف أو ما يشبه التأليف، فعمد إلى اختصار مؤلَّفٍ معروف مشهور، لأن الاختصار يتيحُ له السيطرةَ على الكتاب، ووقع اختياره أو اختيار والده، على كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت. ويحدثنا أبوه بإيجاز عن ذلك الاختصار فيقول: «تناهى باختصاره، وأوفى على جميع فوائده، حتى لم يَفُتْهُ شيءٌ من ألفاظه، وغيَّرَ من أبوابه ما أوجب التدبيرُ تغييرَه للحاجةِ إلى الاختصار وجمع كل نوع إلى ما يليق به»[1].

كان كتاب إصلاح المنطق قد خضع للاختصار قبل ذلك مرات، اختصره مؤلفه نفسه، فأسقط منه أبواباً كثيرة لعله وجدها غيرَ ضرورية كثيراً لمن يرجعون إلى الكتاب، ثم اختصره ثان وثالث، فأخلُّوا بمعنى الاختصار، وتهمَّمَ آخرون باختصاره فنكلوا. أما الحسين فإنه في ردِّ النظائر إلى بعضها جعله في ثلاثة أقسام: أمثلة الأسماء، وأمثلة الأفعال، واللفيف. واضطره

(١) بغية الطلب ٥: ١٨.

هذا التفريع إلى ما يجاوز حدَّ الاختصار وذلك بإضافة أبواب جديدة إلى الكتاب، ووضع أسماء لأبواب الكتاب الأصلية مثل باب ليس، وباب المذكر والمؤنث، وباب العدد. . . وجعل الأبواب الطويلة منه مرتبة على حروف المعجم، فجاءت أبواب الكتاب الأصلي ٢١٨ باباً والأبواب المزيدة ١٠٧ أبواب[1]، ويبدو من هذا الوصف أن الشاب الناشىء اتبع في تقريب فوائد الكتاب منهجاً جديداً، وأنه كان إلى التأليف أقرب، فإذا تذكرنا في أي سن فعل ذلك أدركنا مدى تضلّعه في اللغة، وثقته بنفسه في الاستدراك على عالم كبير مثل ابن السكيت، وذلك أمرٌ لا يتأتّى بسهولة، ولا بد أن الحسين الفتى كان قد ضَرَبَ في حفظ اللغة وأمهاتِ كتبها بسهمٍ وافر.

لهذا لا نستكثر أن يتعاظم إعجابُ المعري به، ذلك أن رغبة الحسين أو رغبة أبيه، شاءت أن يُعْرَضَ المختصر على أبي العلاء، وكان كلٌّ منهما يعلم أنه لا يقدّم العمل لتقييم نقديّ، فالاحسان الذي واكب العملَ ملأ نفس الأب إعجاباً والابنِ حبوراً، وإنما كانا يتطلعان إلى شهادة رجل ثقة، شهادةٍ تكفلُ للفتى السير على المحجة الواضحة، وتضعه فوق نظرائه وتجعله مساوياً لكثير ممن سبقوه في المضمار، ومن يستطيع أن يمنح مثل هذه الشهادة سوى حُجّةِ اللغة في عصره؟ وقد عرف أبو العلاء معنى ذلك التوجه، واستثارته الصداقة القديمة للأب والاعجاب بالفتى إلى كتابة الرسالة الاغريضية.

وإنما سميت بالاغريضية لأنه ذكر فيها «الاغريض» - وهو الطلع - وتتألف هذه الرسالة من ثلاث دورات، في الأولى ترحيبٌ بما تلقّاه المعري من شعر ابن المغربيّ والثانية احتفاءٌ بِمَقْدَم اختصار إصلاح المنطق، والثالثة في شؤون شتى، ويهمنا منها الدورة الثانية التي يتحدث فيها المعري عن تلك

(١) أدب الخواص: ٢٠ (نقلاً عن طرة مخطوطة الاسكوريال رقم ٦٠٥).

المهارة التي استطاعت أن تُجْري نهـرَ الفرات في خَرْتِ إبـرة (يعنـي جودة الاختصار ودقته) «ودلَّتْ على جوامعِ اللغةِ بالايماء، كما دلَّ المُضْمَرُ على ما طال من الأسماء» فقد أسقط ابنُ المغربيّ الشواهدَ من الكتاب وهي أحد عشر نوعاً، وحقّ له ذلك فإن أبا يوسف بن السكيت غلا في التكثّر من الشواهد. وتحدث المعـري عن معرفـة يقينية بكتـاب إصـلاح المنطـق، فقـد كان من محفوظاته، وكيف أنه بُنِيَ على عشرين حرفاً (وَعَدَّ تلك الحروف)، فلو أن أبا يوسف عاش ورأى ما صنعه ابن المغربي لفاظ كمدا، إذ الاختصـار كمـرآة المنجم شَخْصُهَا ضئيلٌ ملموم، وتستحضرُ القمرين والنجـوم[1]. وإذا نحـن وضعنا تشبيهات المعري وتصوراته جانباً لأنها جزء من طبيعته الأدبية، وجدنا أن إطراءه لعمل ابن المغربي لم يكن مجاملةً أبـداً، وإنمـا كان وليدَ قراءةٍ دقيقة لما صنعه ذلك الفتى، وحكمٍ نقديٍّ منصف.

على أنا يجب أن نتذكر شيئاً كان في صميم طبيعة المعري، وهو أنه كان في رسائله يبتكر دائماً صعيداً جديداً - تعليميّ الغاية - يضـعُ فيه ما يريد أن يسوقه من أفكار، وكان ينتحي منحىً غير مألوف في اللغة والتصوير والتمثيل، ليرضي ذوقه الفنيّ، ولم يكن ذلك كله مصحوبـاً بأي شعـور بالاستعـلاء. ولهذا فإنه في رسالة الاغريض (وفي رسالة المنيح على حدّ سواء) كان يوحي لابـن المغربـيّ بأن أمامـه طريقـاً طويلاً لبلـوغ درجـة الاتقـان، وليس من الضروري أن يكون ذلك بتقليد المعري، بل بالرؤية الذاتية الواعية، وقـد فعل ابن المغربيّ ذلك بتوجيه أكبر أستاذٍ له، وإن لم يتلقَّ العلم مباشرة على يديه.

سمَّى ابنُ المغربي اختصاره لإصلاح المنطق باسم «المنخَّل»، معتمداً في الاختصار نسخةَ أستاذه جنادة الهـروي، وهـي مقـروءة علـى الأزهـري

(١) رسائل المعري ١ : ١٨٥ - ١٨٦.

صاحب تهذيب اللغة عن أبي الفضل المنذري عن أبي شعيب الحراني عن المؤلف. وقام بقراءة الأصل والاختصار على أستاذه جنادة نحو عشر مرات[1]. وقد عرف «المنخل لدى معاصريه فرووه عنه، وكان ممن رواه عنه أبو ياسر الفرج بن إبراهيم البغدادي[2] الكاتب الشاعر. ويبدو أن الأديب الأندلسي أبا القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي اطلع عليه، وصنع له خطبة[3] وأثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله: «فإنه غايةٌ لا يتعاطاها إلا من بَهَر عِتْقُهُ واشتهر سبقه، وطريقةٌ لا يتوخّاها إلا من رَسَخَتْ في العلم قَدَمه، وترامتْ به إلى معالي الأمور هممه»[4]. وما كاد يلقي القلم من تحبيره للمنخل حتى اقترح عليه أبوه أن ينظم الكتاب، فابتدأ بذلك وعمل منه عدة أوراق في ليلة[5] ويبدو أنه لم يتم هذا العمل، إذ لا نسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

وبعد ذلك النجاح الأول - في ميدان العلم - ظلّ ابن المغربي في مصر حوالي أربعة عشر عاماً، فماذا تراه كان يعمل وفي أي الاتجاهات برز نشاطه؟ هل عمل كاتباً في الديوان؟ وإذا كان قد فعل فأين كان مقامه من أبيه وعمّه في هذا المجال؟ إن المصادر لا تحدّثنا بشيءٍ دقيق في هذا الصدد، ولهذا علينا أن نكوِّن صورةً قريبة الشبه بالواقع اعتماداً على استقراء الظروف وبعض المعلومات القليلة المتناثرة في المصادر:

فاستقراء الظروف يقول لنا إن هذه الفترة هي فترة الاستقرار الوحيدة في حياة ابن المغربي، وما بعدها كلّه تنقلٌ من بلد إلى بلد، وملاحقةٌ للفرص حيث لاحت. وفترةُ الاستقرار تلك هي أصلحُ مراحلِ حياته للازدياد من

---

(١) أدب الخواص (مقدمة المحقق): ٢٠ (نقلاً عن طرة نسخة الاسكوريال رقم ٦٠٥).
(٢) الذيل والتكملة ٨: ٢٥٩.
(٣) إحكام صنعة الكلام: ٢٨.
(٤) الذخيرة ٤: ٤٧٦.
(٥) بغية الطلب ٥: ١٨.

العلم وللاقدام على مزيدٍ من التأليف. صحيحٌ أن رحيله وأهله من الشام جعلهم يفقدون الكتب التي جمعها أسلافه حين رحلوا إلى مصر، ولكن مصر استطاعت أن تعوضهم عنها لما كانت تتمتع به من غنىً باهر في الكتب والمكتبات. ولذلك نظنه انصرف إلى تحصيل العلم بكلّ جِدٍّ ودأب. ولعله يشير إلى هذه الفترة من حياته حين يقول: «فإني نشأتُ وغذيت بكتب الحديث وحفظ القرآن، ومثافنة الفقهاءِ، ومجالسة العلماء، ووالله ما رأيتُ قطّ بتلك البلاد مأدبةً ولا وليمةً إلا لمقرئين، ولا كنتُ متشاغلاً إلا بعلم أو دين.. وأما الأحاديث المنثورة التي كنت أبكّر بكورَ الغراب لاستماعها وأطّرح رتبةَ الدنيا في مزاحمة أشياعها، فأكثر من أن تحصى»[1].. فمثل هذا الحرص على الطلب يتلاءم وتلك المرحلةَ من حياته، إذ كان البال مهيأً لذلك، والعيش في رعاية الأهل يسعف عليه.

وهو يحدثنا أنه أَلَّفَ كتابه «أدب الخواص» وسِنُّهُ خمسٌ وعشرون سنة أو نحوها[2]، أي في تلك الفترة نفسها، في حدود ٣٩٥. ولا ريب في أن خطته في هذا الكتاب تدلُّ على تمكّن متميز في معرفة الشعر والنسب والأخبار واللغة، وقد كان الباعث على تصنيفه الدلالة على معجز القرآن «إذ كان بِتَبَحُّرِ ألفاظِ هؤلاء القوم (أي العرب) والمعرفة بمعادن ألفاظهم وبمنازع أغراضهم يُعْلَمُ معجز القرآن علماً حسياً ذاتياً. وأنا أرى أن علم العالم أن القرآن معجز من طريق القياس والاستدلال ومن طريق الحسّ والادراك أشرفُ وأعلى من علم العالم باعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره والاعتبار بالفصحاء الذين تقدموه وكانوا حجة عليه»[3]. ويبدو لنا المدخلُ للكتاب بسيطاً لأول وهلة، فهو في نواته جَمْعٌ للمختار من أشعار العرب، ولكنَّ هذه النواة لا تلبث

(١) بغية الطلب ٥: ١٧.
(٢) أدب الخواص: ٨٦.
(٣) أدب الخواص: ٨٣.

أن تتغير فتصبح جمعاً للمختار من أشعار الأربعة: امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى، ومرتبطاً بهذا يجيء المختار لكلٍّ من اسمه امرؤ القيس ولكلٍّ النوابغ والأزاهر والعُشْي. ويجيءُ تحوُّلٌ آخر في الخطة إذ إن كل ذلك يتمٌّ في إطار الحديث عن قبيلة كلٍّ شاعر ثم المختار من أشعار كل قبيلة. وذلك يعني أن الكتاب يضمُّ الشعرَ والأخبارَ والأنسابَ مع قِسْطٍ من غريب اللغة. وقد كان منهجه في اختيار الشعر أن ينتقيَ البارعَ من أبيات القصيدة ثم يلقيها جانباً مدة أيام، ثم يعيدُ فيها النظر برأي مستأنَفٍ، ثم يختار من المختار أحسنه. واستكمالاً لخطته اقتصر في شرح الغريب على ما يتطلبه المتوسط في الأدب، كما اقتصر في تبيان السرقات الشعرية على ما يفيد في ذاته لا ما يفيد مَحْضَ العلم بأنه مسروق. ورغبةً في الايجاز ألغى الأسانيد إلا في ثلاثة مواضع: موضع خلاف في الرواية، وموضع غفل لم يكن إسناده معروفاً فإيراد الاسناد يقوّي منه، وأن يكون راوي الخبر ذا مقام خاصّ في نفس المؤلف وكان من أماثل من أدركه في زمنه. ذلك هو أدب الخواص، فإن كان القارىء يحبّ الشعر عدَّه مختارَ أشعارِ القبائل، وإن كان يحبُّ الأخبار تمثَّله مؤلفاً في سير الجاهلية والإسلام، وليس كلّ السير بل السير المستغربة، وإن كان يحبُّ اللغة تصوّره معرضاً لعقائل اللغة والشواهد عليها، وإن كان يحبُّ النسب ـ وهو أصعب علوم العرب ـ عدَّه سياقةً لجماهير الأنساب(١).

أحببت تبيان هذا النسق التصاعدي في خطة الكتاب لأدلَّ بذلك على أن مثل هذا التصور «المركّب» ليس وليدَ تجربةٍ مبتدئة بل وليد نضجٍ عميق يرفده اطّلاع واسع وقدرةٌ نقدية أصيلة، وعكوف على الدقّة العلمية في التقييد والضبط، ولذلك قلت إن ابن المغربي لم يكتف بالثقافة الصالحة للكاتب بل تجاوزها إلى ثقافة العالم الضليع في علمه. واختياره للصعوبتين ـ المتمثلتين

(١) أدب الخواص: ٨٣ ـ ٨٥.

في اللغة والنسب ـ دليلٌ على تمكنه من الأصول، ونظرةٌ واحدة فيما وَصَلَنا من مؤلفاته ومروياته تدلنا على أننا نجدُ لديه من المرويات، ومن الاحاطة بالدقة فيما يرويه، ما لا نجده عند غيره. حتى ليمكن أن نلحظ لديه شَغَفَهُ بغرائبِ الأخبار، ومحاسن الأشعار التي قلّما يلتفتُ إليها غيره. وبسبب من هذا التفرد في المعرفة والدقة وحسن الخطّ أصبح ابن المغربي لدى الأجيال التالية حجةً فيما يرويه في اللغة، وما يقيّده من ضبط، وما يورده من أنساب. وكان يزيد الخالفين اطمئناناً أن يروا المادةَ مكتوبةً بخطه. وإليك نماذج من الأخذ برأيه في اللغة والضبط للأسماء، والاعتماد على خطه:

الجرجة ـ الخرجة : كان الوزير ابن المغربي يسأل عن هذه الكلمة على سبيل الامتحان، ويقول ما الصوابُ من القولين، ولم يفسّر[١].

شلا : ورأيت بخط الوزير ابن المغربي في بعض تصانيفه يذكر أنه قد أجاز الكسائي أشليتُ الكلبَ على الصيد، بمعنى أغريته، قال: لأنه يُدْعَى ثم يؤسد فوضع موضعه[٢].

النكيثة : ذكر الوزير ابن المغربي أن النكيثة في البيت هي النفس:

وقربت بالقربى وجدِّك أنني
متى يكُ عهدٌ بالنكيثةِ أشهدِ[٣]

النمّي : في قول الشاعر:

---

(١) التنبيه والإيضاح ١: ١٩٥ (واللسان جرج).
(٢) مادة (شلا) في اللسان عن ابن بري.
(٣) التنبيه والايضاح ١: ١٩٠ واللسان (نكث) والبيت لطرفة.

ولو شئتُ أبديت نميَّهُمْ
وأدخلتُ تحتَ الثيابِ الإبَرْ

قال الوزير المغربي أراد بالنمي هنا العيب، وأصله الرصاص، جعله في العيب بمنزلة الرصاص في الفضة[١].

الدهناء : بخط الوزير ابن المغربي: الدهناء عند البصريين مقصور وعند الكوفيين يقصر ويمد، والدهان الأمطار اللينة، واحدها دهن، وأرض دهناء مثل الحسن والحسناء، والدهان: الأديم الأحمر[٢].

قسا : بالضم والمد، قرأتُ بخط ابن مختار اللغوي المصري مما نقله من خطّ الوزير المغربي: قسا منون وقساء ممدوداً موضع، وقسا موضع غير منون، هذا نصٌّ عليه ولم يحتجّ[٣].

جعفيّ : ذكر الوزير أبو القاسم المغربي في جُعفيّ أربعَ لغات فقال، يقال جُعْفيٌّ منسوب منون مشدد، وجُعفيّ مشدد غير منون، ويقال جُعْفِي غير مشدد، ويقال جُعْف بوزن فُعْل ثلاثياً من غير ياء النسبة[٤].

ولو قلنا إن معظم ما ألفه ابن المغربي إنما كان نتاج هذه الفترة المصرية لم نبعد كثيراً عن الحقيقة، وذلك هو ما يذهب إليه أيضاً أستاذنا الشيخ حمد الجاسر[٥]، مستثنياً من ذلك أشعاره ورسائله، لأنه لم يقتصر في كتابة الشعر

---

(١) اللسان (نجم) عن ابن بري.
(٢) معجم البلدان لياقوت ٢: ٦٣٥.
(٣) معجم البلدان لياقوت ٤: ٩١ - ٩٢.
(٤) ابن خلكان ١: ٤٥٢ نقلاً عن أدب الخواص.
(٥) أدب الخواص (مقدمة المحقق): ٢٩ ويجب ألا نغالي في هذا، فقد استطاع ابن المغربي أن يكوّن مكتبة وأن يجد بعض الفترات المسعفة على التأليف في المرحلة الأخيرة من حياته.

والرسائل على هذه الفترة وحدها، بل عاش الشعرُ والنثرُ معه حيثما اتجه. وقد رأينا أنّ المنخّل وأدب الخواص ينتميان إلى تلك المرحلة، ونضيفُ إليهما «الايناس» وهو كتاب في الأنساب بناه على كتاب لمحمد بن حبيب عنوانه «مختلف القبائل ومؤتلفها»، فالأنساب فيه نتيجةٌ لضبط الأسماء المتشاكلة مثل فَهْم وَقَهْم، والتمييز بين ما تطابق دون اختلاف كبكر بن وائل من عدنان، وبكر بن وائل من قحطان، وإفراد الأسماء التي تتطلب ضبطاً مفارقاً مثل شُمْس (بضم الشين)، وقد رُتِّبَ الكتاب على حروف المعجم، وَوُجِدَ على ظهر الأصل بخطه: «متى ما نَسَخَ هذا الكتاب ناسخٌ غير ضابط انعكس الغرض، فصار هُداهُ ضلالةً بالحقيقة، ومتى ما كُتِبَ أيضاً بأجاً[1] واحداً ولم يُفَرَّقْ بين فصوله مَرِجَ والتبس وَصَعُبَ إخراج ما يراد منه»[2]. كما نضيف كتاباً له كبيراً في الأنساب أشار إليه في أدب الخواص[3]، والمأثور في ملح الخدور، رآه ابن العديم بخطّه وأورد منه مقتبسات ألحقتُها بهذه الدراسة، وتتميم كتاب الفهرست لابن النديم[4]، وأرجّح أن الزيادات فيه أوصلت الفهرست إلى عصر المغربي، وذلك يتحمل الزيادة مع الزمن وربما لم يكن محدوداً بفترة واحدة. ويلحق بهذا النوع من الكتب كتاب النساء. أما كتب القبائل مثل كتاب بني ضبيعة وكتاب بني أسد وكتاب ذبيان وكتاب تغلب فالأرجح أنها فصول داخلةٌ في كتاب أدب الخواص ولم تكن كتباً منفصلة. وهناك كتب تُنْسَبُ إليه ولم يكن تأليفها يحتاج إلى اطلاع واسع أو تعدد في المصادر وهي كتب الاختيارات: اختيار شعر أبي تمام، واختيار شعر البحتري، واختيار شعر المتنبي والطعن عليه، ومنتخب كتاب الأغاني[5] وهي مما يمكن أن يُنْسَبَ إلى

---

(١) البأج: الطريق الواحد والوجه الواحد، أي إيراده دون فصل بين الجمل.
(٢) الايناس: ٣٣ (صورة طرة مخطوطة تشستربيتي).
(٣) أدب الخواص: ١٣٨.
(٤) معجم الأدباء ٦: ١٩٧، ٤٦٧ (١٦: ٣١٧ ـ ٣١٨).
(٥) معجم الأدباء ٥: ١٥٠ (١٣: ٩٧).

فترة التنقل والشتات. وهناك كتاب من هذا الصنف نفسه وهو الاختيار من نثر عليّ بن عبيدة الريحاني، وإنما أفردته لأن الريحاني كان مكثراً من التأليف، وكان لا بد لمن يريد أن يختار من نثره الاطلاع على عددٍ كبير من كتبه، وليس الأمر هنا كالاعتمادِ على كتابٍ واحدٍ في الاختيار.

وهنالك عدد من كتبه لا نعرف منها إلا الأسماء، ولم يذكرها إلا المتأخرون ككتاب الالحاق بالاشتقاق[1] والعماد في النجوم[2].

وقد عد له أستاذنا الشيخ حمد الجاسر ستة وعشرين مؤلفاً[3] تكرر منها مختصر إصلاح المنطق، وَعُدَّتْ فيها كتب القبائل (وسقط كتاب تغلب) وهي ليست كتباً مستقلة على وجه حاسم. ولحق الوهمُ ذكرَ كتبٍ أخرى، فكتاب السيرة النبوية ليس سوى كتاب السيرة لابن هشام (تهذيب سيرة ابن اسحاق) مكتوباً بخطٍّ ابن المغربي. ويبدو لي أن اختصار الغريب المصنف ليس سوى وهم أيضاً، وأن المراد هو اختصار إصلاح المنطق، وما أرى كتاب المنثور الذي ذكره ابن حجر في الاصابة وتبصير المنتبه[4] إلا كتاب المأثور. ولا ريب في أن لابن المغربي ديواناً شعرياً، لكنه لم يصلنا مجتمعاً، وما يذكره بروكلمان من أن في الامبروزيانا (رقم: ١٩ حسب الفهرسة القديمة) قطعةً من شعره، فإنه من الأوهام الكبيرة، ولقد رحلت إلى الامبروزيانا بميلان سنة ١٩٨٣ بحثاً عن تلك القطعة من الديوان، فلم أجد تحت الرقم المذكور إلا كناشة فيها مختارات من الأشعار من بينها ستة أبيات ـ في ثلاث قطع ـ لابنِ المغربيّ.

---

(١) ذكره الزبيدي في التاج (أزد) وهداية العارفين ١: ٣٠٧.
(٢) هداية العارفين ١: ٣٠٨.
(٣) أدب الخواص (مقدمة المحقق): ٣٠ ـ ٣٧.
(٤) الاصابة ١: ٣٥٥ والتبصير: ٢٧٠.

وانفرد الداودي بذكر مؤلفات أخرى لم تذكرها سائر المصادر وهي فضائل القبائل، وكتاب أخبار بني حمدان وأشعارهم، وكتاب الشاهد والغائب، وهذا الأخير بيَّنَ فيه أوضاع كلام العرب والمنقولَ منه وأقسامه تبييناً يكاد يكون أصلاً لكلٍّ ما يسأل عنه من الألفاظ المنقولة عن أصولها إلى استعمال محدث. كما ذكر له المسبحي كتاب «الاماء الشاعرات» وكتاباً في «مقامات الزهاد» وهذا الثاني ينتمي إلى فترة متأخرة من حياته.

إلى جانب هذا النشاط في التأليف هل كان ابن المغربي يعمل عملاً آخر، وبعبارة أدق هل كان ذا وظيفة (منصب) في الدولة، وما هي تلك الوظيفة على وجه التحديد؟ إن الذهبيَّ حين يتحدث عنه يلقبه بـ «ناظر ديوان الزمان بها»[1] (يعني مصر). دعنا نضع إزاء هذا الخبر خبرين آخرين أحدهما يقول إن أبا القاسم الحسين بن علي كان يتولّى ديوان السواد فَصُرِفَ عنه وولّي بدله رجلٌ نصراني اسمه منصور بن عبدون، ومن ثم نشأت البغضاءُ بين الرجلين[2]، والثاني يذهب إلى أن ابن المغربي الأب لما غضب عليه العزيز عزله وولّي مكانه صالح بن علي الروذباري، واسترجع ابنَ المغربيِّ إلى مصر فلم يزلْ بها حتى قام الحاكم فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه[3]. هذه ثلاثة أخبار أحدها يجعل ابن المغربي ناظرَ ديوان الزمان، والثاني يجعله صاحبَ ديوان السواد، والثالث يجعله جليساً للحاكم، فأين تقعُ الحقيقةُ من خلال هذه الأخبار؟

لا معنى للخبر الأول في رأيي لأنه ليس هناك ديوان اسمه «ديوان الزمان» وأقربُ ما هنالك إلى تصويب هذا النص أن نقرأ «ديوان الزمام» وهو ديوان نشأ في الدولة العباسية حوالي سنة ١٦٢ في خلافة المهدي إذ يذكر

(١) تاريخ الذهبي (مخطوطة المتحف البريطاني ٤٩، الورقة ٩/ أ) وبروكلمان، التكملة ١: ٦٠٠.
(٢) ذيل تاريخ دمشق: ٦١.
(٣) خطط المقريزي ٢: ١٥٧.

الطبري أنّ المهدي وضع في ذلك العام دواوين الأزمة. وكان عملُ ديوان الزمام - في أصل نشأته - الاشرافَ والرقابة على أعمال الدواوين ذات العلاقة بأمور الأموال من واردات ونفقاتٍ[1]، ويبدو أن هذا الديوان بهذا الاسم لم يكن موجوداً في العصر الفاطمي بمصر، وأن الذهبي - إن صحّ التصويب - يستعمل مصطلحاً عراقياً للدلالة على شيء مشابه، وأقرب مصطلح إليه «نظر الدواوين» أو «ديوان النظر»[2]، فإن لم يكن الأمر كذلك فلنا أن نعتبر «ناظر ديوان الزمان» لقبَ تشريفٍ وتعظيمٍ كأن نقول في وصف أحدهم «ناظر عين الزمان» أو ما أشبه.

وأما الخبر الثاني فيتحدث عن ولاية «ديوان السواد» وديوان السواد يلحق بالعراق، بل هو يعني ديوان العراق بعد استحداث ثلاثة دواوين هي ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد تنضوي تحتها فئات الدواوين المختلفة. وليس من المعقول أن يكون متولّي ديوان السواد موجوداً بمصر، وعلى هذا يكون اسم الديوان هنا محرفاً أيضاً. فإن لم يكن كذلك، فهو ترجمة لمصطلح عراقيّ آخر، ولعله يقابل «ديوان الضياع» أي هو ديوان يتولى أمورَ الاقطاعات الفاطمية ببلاد الشام، التي يمكن أن يطلق على أجزاء منها «سواد الشام»[3].

ويتحدث الخبر الثالث عن مجالسة الحاكم دون الارتباط بوظيفة معينة، وهذا شيء لا يتطلب توقفاً أو تفسيراً، فقد كانت علاقة أبيه وعمه بالدولة الفاطمية طيبة، وما كان غضب العزيز على أبيه إلاّ غضباً عابراً، وبحكم تلك العلاقة كان في إمكان الحسين أن يذهب إلى قصر الخلافة في

---

(١) الدكتور مصطفى الحياري: الدواوين من كتاب الخراج (مقدمة المحقق): ٤٢، ٤٣.
(٢) الموسوعة الإسلامية ٢: ٣٢٩ (الطبعة الثانية بالانجليزية).
(٣) لنا أن نستأنس بقول ابن المغربي يخاطب الجيوش بالرملة: «والرأي أن تبادروا وتنادوا في السواد، وتسمعوا الشراة في الجبال بإباحة النهب والغنيمة» (ذيل تجارب الأمم: ٢٣٥).

صحبة أبيه أو عمه، وأن يتعرف إلى الخليفة، وأن تقدمه إليه ثقافته وعلمه بالإضافة إلى مكانته الاجتماعية. وقد احتفظت لنا المصادر بخطبة قام بها بين يدي الحاكم (رقم: ١٥) وأكبر الظن أن هذه الخطبة كانت سنة **٣٩١** لأن فيها إشارة إلى ملك الروم الذي «خرق إزار السلم وهتك حجاب الأمن». وذلك أن ملك الروم في أواخر سنة **٣٨٩** نزل على شيزر فأخذها وانتقل إلى حمص فأخذها أيضاً وسبى وأحرق[1]. وفي سنة **٣٩١** وصلَ رسولٌ من ملك الروم، وكان له استقبالٌ حافل، وإلى ذلك تشير الخطبة «فعاد يفتل حَبْلَ الهدنة ويمدُّ إليك أمير المؤمنين كف الرغبة»، وفي الخطبة تحريض على الجهاد، ولكن الأهم من ذلك في الحديث عن سيرة الحسين أنه ختم الخطبة بالالتفات إلى نفسه «عبدك ووليك ابن أوليائك» وفيه يؤكد أن الحسين حتى ذلك التاريخ كان يرنو إلى منصب في الدولة كأن يعين مذكّراً للجيش، أو خطيباً بحضرة الحاكم، إن لم نفترض أنه كان يطمح إلى الترقي من منصب دانٍ إلى منصبٍ أسمى منه.

ومهما يكن من شيء فإن الروايات الثلاث أخذت تتقارب، إذ يبدو أنه بعد هذه الخطبة نال منصباً في أحد الدواوين، أياً كان ذلك الديوان، أهو ديوان الزمام أو ديوان الضياع أو ديوان الخراج، وأن المنافسة بدأت بينه وبين ابن عبدون وشارك فيها أبوه، وبدأت المكايداتُ والوقائعُ تتصل، وظلَّ الأمر على ذلك حتى سنة **٣٩٩**، ففي أول ذلك العام انفرد ابنُ عبدون بالنظر في ديوان الخراج دون شريك[2]، ومعنى ذلك أنَّ ابن المغربيّ فقد منصبه ولكنه لم يكفَّ عن «الوقيعة فيه (في ابن عبدون) والكلام عليه وعلى الكتّاب النصارى إلى أن قبض على جماعتهم، فلما حصلوا في القبض أمر الحاكم

(١) اتعاظ الحنفا: ٢: ٣٢.
(٢) اتعاظ الحنفا: ٢: ٧٦.

بأن يُضْرَبَ كلٌّ واحد منهم خمسمائة سوط، فإن مات رُمِي به للكلاب وإن عاش أُعيد ضربه إلى أن يموت»[1].

وفي الوقت نفسه لم يكن منصور بن عبدون أقلَّ شراسةً وحقداً في تحريض الحاكم على بني المغربي وإغرائه بهم وحثّه على قتلهم، فتقدم الحاكم إلى السياف - وهو جعفر الصقلبي - وأمره أن يحضر علياً ومحمداً ابني المغربي ويدخلهما الحجرة ويضرب أعناقهما ففعل، ثم أمره بقتل الحسينِ وأخويه محمدٍ والمحسّن، فاستتر الحسين وأُخِذَ أخواه وقتلا[2]، وكان ذلك لثلاثٍ خلون من ذي القعدة سنة أربعمائة[3].

هل كانت الخصومة بين آل المغربي وابن عبدون هي السببَ الوحيدَ الذي أدّى إلى هذه النهاية الفاجعة؟ نستطيع أن نفترض عدةَ أسبابٍ كأن نقول مثلاً إنّ طولَ العشرة جعل بني المغربيّ ذوي إدلال على الخلافة، يرون لهم فضلاً عليها، وأن الوشايات ضدهم أصبحت لدى الخليفة سهلةَ التصديق. وقد نقول إن جانباً من التصريحات التي كان يطلقها الحسين، محمّلةً بطموحه المتصاعد كانت تُلْقَى على أذن الخليفة، وأنها حين تكاثرت ضاق بها ذرعاً، والخبر عن الغلو في الطموح لدى الحسين قابلٌ للتصديق بسهولة، وإن رواه شخصٌ حاقد. فقد روى ابن القارح أن الحسين قال له ذات يوم: ما نرضى بالخمول الذي نحن فيه، فقال ابن القارح: وأيّ خمولٍ هنا، تأخذون من مولانا - خلد الله ملكه - في كل سنة ستة آلاف دينار، وأبوك من شيوخ الدولة، وهو معظّم مكرم، فقال الحسين: أريد أن تُصار إلى أبوابنا (بغية الطلب: دواويننا) الكتائبُ والمواكبُ والمقانب، ولا أرضى بأن يُجْرَى علينا

---

(1) ذيل تاريخ دمشق: ٦١ - ٦٢.

(2) ذيل تاريخ دمشق: ٦٢.

(3) أخبار الدول المنقطعة: ٤٨.

كالولدان والنسوان. وأبلغَ ابنُ القارح هذا الموقفَ إلى عليٍّ والد الحسين فقال: ما أخوفني أن يخضبَ أبو القاسم هذه من هذه (وقبض على لحيته وهامته). ويبدو أن تفجّر نفسِ الحسين بالتعبير عن هذا الطموح كان ظاهرة متكرّرة، فقد روى ابنُ القارح أن أباه قال في مناسبة أخرى: «أنا أخافُ همَّةَ أبي القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا وِرْداً لا صَدَرَ عنه»[1]. وقد نقول إن هذا الطموح ارتقى ـ بعد الحرمان من المنصب ـ إلى درجة الثورة، ولعلَّ هناك إشارة إلى ذلك في موقف تمَّ بينه وبين ابن القارح، حين استدعاه ليلعنه في وجهه، فقال ابن القارح: ولمَ؟ قال: لمخالفتك إياي فيما تعلم[2]. فهل كانت تلك المخالفة تتعلق بشيء من ذلك؟ إن هنا غموضاً مقصوداً، قد يقوّي الظن بأن الحسين كان يدبِّر شيئاً ولكن مخالفةَ ابنِ القارح له أفسدتْ عليه خطته. وقد نربط بين مقتل آل المغربي ومقتل جنادة الهروي وصديقه المقرىء، لاتصالِ أسبابهما بأسباب الحسين وأبيه، ونتخيلُ وجودَ مؤامرة واسعة الأطراف قضى الحاكم على عناصرها تباعاً. أو لعلنا أن نردد ما قاله أحد المصادر وهو أن الحاكم إنما غضب من ابن المغربي وأمر بقتله «لأنه كان يضرب بينه وبين وجوه دولته»[3]. وإذا سلَّمنا بذلك وجدنا أنه قد يعلل غضبه على الحسين، فلم شمل الغضب سائر أهله؟ قد نقول ذلك وغيره، ولكن سهولة القتل لدى الحاكم تحول بيننا وبين الامعان في البحث عن أسباب؛ فكل المصادر تصفه بالتقلب وسرعة الانتقال من حال إلى حال، ولا تكاد تربط حوادث القتل المتتابعة بأسباب ما، وهذا يجعل أية وشاية ـ حظّها من الصدق ضئيل جداً ـ تودي بحياة هذا وذاك من الناس. كانت الرؤوس تتطاير دون حساب، وكان ما يقرر اليوم ينقض غداً، وفي مثل هذه المواقف

(١) رسالة الغفران: ٥٣ وبغية الطلب ٥: ١٨.
(٢) رسالة الغفران: ٥٥.
(٣) العقد الثمين ٤: ٧٠.

لا يؤدي البحث عن العلل الكامنة وراء الأشياء إلا إلى الحمل على السادية المفرطة أو السوداوية المتهوّسة.

٣ ـ الثورة في الرملة:

بقي ابن المغربي مختفياً منذ الثالث من ذي القعدة حتى الثاني عشر منه[1] (عام ٤٠٠) حين أتيح له أن يخرج متنكراً في زي جمّال[2]، برفقة قافلة من الأعراب، مجتازاً شبه جزيرة سيناء إلى فلسطين، وقيل إن الحاكم بعث من يطلبه فلم يُدْرَكْ[3] وحين وصل الرملة نزل بحلة حسان بن المفرج بن دغفل ابن الجراح واستجار به فأجاره، وأنشده قصيدة يثني فيها عليه وعلى قبيلة طيء بعامة:

يا طيءَ الخيراتِ بين حلالكم أمنُ الشريدِ وهمّة الطلاّبِ
سمكت خيامكمُ بأسنمةِ الربى مرفوعةً للطارقِ المنتابِ

ثم يصف الذعر الذي تلبس به حتى ضاق به عليه إهابه، وأنه مذ حلّ في ديار بني الجراح قد عرف معنى النوم والطمأنينة، فلما سمع حسان منه هذه القصيدة هشّ له وجدَّد تعهده بحمايته، وسكّن من روعه.

كانت قبيلة طيء تؤازر القرامطة في أول الأمر، ولذلك فإن هؤلاء حين استولوا على الرملة سنة ٣٦٠ عينوا لها حاكماً منهم وجعلوا معه دغفل بن الجراح جدّ حسان، ومنذ ذلك التاريخ وجدت الامارة الطائية التي تغلبت على معظم القسم الجنوبي من بلاد الشام، ولهذا عملت الدولة الفاطمية على

---

(١) في طبقات الداوودي: ١٥٣ للثاني من ذي القعدة سنة أربعمائة، وعلى هذا يمكن أن تكون الكلمة: للثامن، للثاني عشر، للثاني والعشرين.

(٢) هكذا في طبقات الداوودي ـ بالجيم ـ وورد في اتعاظ الحنفا ١٢: ٨٢ في زي حمال (بالحاء المهملة) وانظر التذييل.

(٣) العقد الثمين ٤: ٧٠ وأخبار الدولة المنقطعة: ٤٨.

استمالة طيء وفصلها عن الحركة القرمطية وعلى ضمان ولاء طيء لتساعد الدولة في تثبيت سلطانها على ما استولت عليه من بلاد الشام، وفي الوقت نفسه بذل الفاطميون كل جهد للحيلولة، دون استقواء طيء، بحيث تصبح قوة تهدّد الوجود الفاطمي في الشام. وكانت خطة الفاطميين اكتساب تلك القبيلة بالأموال والاقطاعات، ولكن رغبة الدولة الفاطمية في إبقاء طيء في حدود التبعية والضعف كثيراً ما حفز تلك القبيلة إلى مساندة بعض الحركات المناوئة للفاطميين[1].

لعل صورة هذا الوضع كانت واضحة تماماً في ذهن الحسين، حين وجه وجهه صَوْبَ الرملة؛ كان في طلبه الجوار يلوذُ بقيم عربية معروفة، ولكن نفسه كانت تنطوي على ما هو أبعد من الاطمئنان الهادىء إلى حماية شيخ ذي نفوذ واسع، كانت نفسه تجيشُ بالانتقام، والقضاء على الحاكم لا بل على الدولة الفاطمية إن أمكن. وبعد أن كفكف من دموعه على إخوته وأبيه وعمه، وأذكرته مصارعهم الطفَّ وكربلاء (المقطوعة: ٩٦) وكيف خَلَتْ منهم محاريب المساجد، بعد هذا أخذ يفتلُ لأعدائه حبالَ مؤامرة كبيرة محكمة. ولعله لم تكن لديه خطة معدة مرتبة المراحل، بل كان يستمد من حقده الشديد على الحاكم ما يستثير ذكاءه لاغتنام كل فرصة تلوح لإحكام المؤامرة وتوسيع نطاقها. كانت الخطوة الأولى ـ بطبيعة الحال ـ أن يكسب ثقة حسان بن المفرج، وهو في الوقت نفسه يكتشف مواطن الضعف فيه، ويتأتى بكل لباقة لإفساد نفسه على الحاكم. ولعله في بادىء الأمر استثار عاطفته ممتزجةً باستنكاره وامتعاضه لما ارتكبه الحاكم من فظائع وشرور، لا بقتل آل المغربيّ وحسب، بل بقتل الكثيرين من الناس، وإذن فهو خليفة لا

---

(١) الامارة الطائية: ٤٤ ـ ٤٨ (باختصار).

يؤمن جانبه، وخطره على الامارة الطائية وعلى حسان وأهله محقق وشيك.

وتضطرب الروايات بعض اضطراب في تسلسل الأحداث، وفي كيفية استغلال ابن المغربي لها إعداداً للثورة وقطعاً لروابط التفاهم بين بني الجراح والفاطميين. هل كان الصدام بين بني الجراح وجيش الفاطميين أولاً ثم تبع ذلك اللجوء إلى سند جديد وخلافة جديدة؟ أم كان الأمر بالعكس، أي بدأ البحث عن خليفة بديل، فاغتاظ الحاكم وأرسل جيشاً لتأديب العصاة؟ إن هذا الاضطراب في الروايات سرعان ما يزول إذا أخذنا بالرأي القائل: إنَّ حملة يارُخْتكين لم تكن موجهةً ضد آل الجراح منذ البداية، ولكن الظروفَ حولتها كذلك. وهذا يعني أن تسلسل الأحداث تمّ على الوجه الآتي:

١ ـ كانت الجيوش الفاطمية قبل بضع سنوات قد عانت كسرةً عند باب حلب على يد بسيل ملك الروم. ولهذا جهز الحاكم جيشاً بقيادة مملوك كان لأبيه العزيز اسمه يارختكين (يا روخ تكين). فخرج هذا القائد من مصر في عدد قليل إذ كان معوله على الجيش الفاطمي في الرملة وعدده خمسة آلاف. وكان الحاكم قد أوصى وجوهَ القواد بإبداء كلِّ آيات التبجيل والاحترام ليارختكين وأن يترجلوا في موكبه. وكان من جملة من أُمروا بخدمته عليّ ومحمود ابنا المفرج بن الجراح وأخوا حسان، فجاءا إلى أبيهما وعرّفاه أنهما يرفضان ذلك النوع من الإذلال في خدمة يارختكين، وحذّراه منه، وأنه إذا عظمت قوته واستفحل أمره أصبح خطراً على بني الجراح ولم يَعُدْ لهم مقام في الرملة. إذن كان بنو الجراح كارهين لقدوم يارختكين، متوجسين خيفةً من أن يوهن من قوتهم إلى حدّ طردهم من إمارتهم. فإذا جاءت مشورة ابن المغربي بالتصدي له فمعنى ذلك أنها صادفت هوى كامناً في نفوسهم. واقترب ابن المغربي من حسان وهمس في أذنه بأن التخلّص من يارختكين هو الرأي الأمثل، فأخذ بنو الجراح يستعدون لمواجهته، وتسربت الأخبار بذلك إلى

يارختكين، وكان قد وصل الجفار من جنوبي فلسطين، فشاور أصحابه، واستقر الرأي على أن يبعث رسولاً إلى الجيش المرابط في الرملة، ويستدعي أحد القواد ومعه ألف فارس، يلاقونه عند عسقلان، وقدَّرَ أن يوافيه القائدُ في ثلاثة أيام، إلا أن رسوله لم يصل إلى الرملة، فقد جرى القبضُ عليه في الطريق. ولما انقضتِ المهلة، سار يارختكين على طريق الساحل ففاجأته جموع حسان عند رفح والداروم، ودارت معركة غير متكافئة، أسر فيها يارختكين وأخذ ولده وحرمه، وأُخذت أموال التجار، وعادت الأعرابُ إلى الرملة، إذ أصبحت المدينة هدفاً لأطماعهم لأن فيها الجيش الفاطمي، فشنوا الغارة على الرملة ورساتيقها، إلا أن عسكر الرملة استطاع صدّهم، حتى فكروا في الارتحال عنها.

٢ ـ أصيب ابن المغربي بقلق شديد: إن ارتحال الأعراب يعني التخاذل أمام قوة الفاطميين، وفساد الخطة في أول مراحلها، ولهذا وقف يقول لهم: «إن رحلتم على هذه الصورة وقع الطمعُ فيكم، وإن صبرتم حتى تفتحوا البلد خافكم الحاكم وملكتم الشام، والرأي أن تبادروا وتنادوا في السواد وتسمعوا الشراة في الجبال بإباحة النهب والغنيمة». فأصغوا إلى نصيحته وعمموا النداء فانثالت الجموع المتعطشة إلى النهب من كل صوب، وزحفوا إلى الرملة فاستولوا عليها ونهبوا كل ما قدروا عليه وعاثوا فيها فساداً. وانزعج الحاكم لما حدث فأرسل رسالةً إلى المفرج بن دغفل يعاتبه ويحذره ويطالبه باطلاق يارختكين من يد ابنه حسان وإرجاعه إلى مصر، ولم ينسَ أن يعده بمكافأة مالية ضخمة إذا هو فعل ذلك.

٣ ـ كان يارختكين يلقى على يد حسان أسوأ ما يمكن أن يعاملَ به أسير، إذ عامله بامتهان شديد وتفنَّن في إذلاله، وتتحدث المصادر عن ذلك الاذلال تصريحاً وتعريضاً، فتصرّح بأنه «سمع غناء جواريه وحظاياه وهو مقيّدٌ معه في

المجلس» وتُعَرِّض بأنه «ارتكب منه فواحشَ عظيمة» وتعود إلى الوضوح الكلي حين تصف مصيره. ولكنها تربط ذلك المصير بـ «دور الشيطان» المتصوّر في صورة آدمي اسمه الحسين بن علي المغربي، ففيما كان المفرج يتأمل رسالة الحاكم ووعوده، فزع ابنُ المغربي إلى حسان وقال له: «إن والدك سيركب إليك ولا يبرح من عندك إلا بيارختكين، ومتى أفرجتم عنه وعاد إلى الحاكم ردَّه إليكم في العساكر التي لا قِبَلَ لكم بها»، وكان في رأس حسان نشوة، ولعلها هي احدى مواطن الضعف التي كان يستغلها ابن المغربي، فانتفض حسان، وأمر بإحضار يارختكين، وذبحه صبراً بين يديه، وأنفذ رأسه إلى المفرج أبيه[1]، وأدرك المفرج أن الأحداث قد قطعت شوطاً بعيداً في تطورها، فلم يفاتح ابنه بشيء.

٤ ـ بلغ بنو الجراح في علاقتهم بالحاكم نقطة اللارجوع. وكان ابن المغربي يدرك ذلك، فتفتق ذهنه عن خطة بارعة، وهي أن يوجد الخليفة البديل الذي يستند إليه بنو الجراح في استمداد «غطاء الشرعية» لسلطانهم، ووجده. فاجتمع بالمفرج وأولاده وقال لهم: «قد كشفتم القناع في مباينة الحاكم، ولم يبقَ من بعدُ للصلح موضع»[2]. والتفت إلى مكة، ولفت إليها انتباههم قائلاً: هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة لا مطعن ولا مغمز في نسبه (هذه إحدى فوائد علم الأنساب الذي أتقنه) وهو في بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع، والصواب أن ننصبه إماماً ونقوم معه على الحاكم. فاقتنع بنو الجراح بوجهة نظره، وأمره حسان بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة وعرض الأمر عليه. ولما نزل على أبي الفتوح أطمعه في الرئاسة

---

(١) سياق الأحداث متابع لرواية أبي شجاع في ذيل تجارب الأمم: ٢٣٣ ـ ٢٣٥ وقارن أيضاً بالعقد الثمين ٤: ٧٠، ٧٣، وأخبار الدول المنقطعة: ٤٩ ـ ٥٠ وبغية الطلب ٨: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) ذيل تجارب الأمم: ٢٣٥.

والخلافة وضمن له طاعةَ حسان وقومه، وكانت العقبة الكبرى هي قلة ما في يد أبي الفتوح من مال، يستميل به الأنصار والمؤيدين، وحين شكا ذلك إلى ابن المغربي أشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من الأموال وانتزاع ما عليها من أطواق الذهب والفضة وضربها دراهم ودنانير، ففعل ذلك، وعرفت دراهمه بـ «الفتحية» وقيل بـ «الكعبية»[1]، وإلى هذا يشير ابن القارح حين يعدد ذنوب ابن المغربي بقوله: «وبغضي له ـ شهد الله ـ حياً وميتاً أوجبه أخذُ محاريب الكعبة، الذهب والفضة، وضربها دنانير ودراهم، وسماها «الكعبية»»[2].

ها هي السيئات تتوالد، وتتكاثر ويعلو بعضها بعضاً لتقع جميعها على رأس «الشيطان المدبّر». والروايات تطلب السهولة، إذ ما أسهل نسبة كل شيء إلى رجل موتور لا همَّ له إلا تنغيص حياة الخصم أو القضاء عليه. ولم تكتف الروايات بنسبة تجريد الكعبة من ذهبها وفضتها إلى ابن المغربي، بل تشاء المصادفات أن يموتَ رجلٌ ذو مال طائل بجدة، فيوصي بمائة ألف من ثروته لأبي الفتوح ليستغلّها في تدبير أموره[3]، ولكن ابن المغربي لا يقنع بذلك بل يحرضه على احتياز الثروة كلها[4]. وهكذا حُلَّت العقدة المالية. وعندئذ جمع أبو الفتوح بني حسن وشاورهم في الأمر، فمالت بهم دواعي السيادة وأعطوه البيعة[5]، فأظهر أبو الفتوح دعوته وبايعه سائر أهل الحرمين، وتلقَّبَ الراشد بالله[6].

---

(١) رسالة الغفران: ٥٨.

(٢) الاعتماد في التفصيلات هنا على تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث: ٤٠٢) وعلى أخبار الدول المنقطعة: ٤٨ والعقد الثمين ٤: ٧٠ وهو يجمع عدة روايات ولعل الفتحية هي الدراهم والكعبية هي الدنانير.

(٣) العقد الثمين ٤: ٧٥.

(٤) ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦.

(٥) ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦.

(٦) العقد الثمين ٤: ٧٥ (عن الذهبي) وابن خلدون ٤: ١٠١.

٥ ـ لما تمَّ كل ذلك عاد الحسين إلى الرملة واجتمع بالمفرج وبنيه الثلاثة حسان ومحمود وعلي، وأخذ بيعتهم لأبي الفتوح. ويقال إنه قام خطيباً، وذلك غير مستبعد، ولكنَّ الخطبة التي تنسب إليه في هذا المقام هي فاتحة خطبة لابن نباتة، وسيجيء الحديث عنها فيما بعد. وبعد أن فرغ من أخذ البيعة لأبي الفتوح عاد إلى مكة ليكون في موكب الخليفة الجديد في مسيره إلى الرملة. وعجل أبو الفتوح في سيره ومعه نحو ألف فارس من بني حسن، ونحو ألف عبد من قواده، فلما اقترب الموكب من الرملة تلقاه حسان وأبوه المفرج وسائر وجوه العرب، وقبّلوا الأرض بين يديه، ونزل في دار بني الجراح، وتوافد الناس للتسليم عليه بالخلافة، وكان متقلداً سيفاً زعم أنه ذو الفقار، وفي يده قضيب ذكر أنه قضيبُ الرسول صلوات الله عليه، ونادى في الناس بأمان الخائفين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

٦ ـ ركب أبو الفتوح في يوم الجمعة، والمفرج وأولاده بين يديه مشاة، حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارقي الخطيب وأمره بالخطبة، فصعد المنبر، واشرأبت إليه الأعناق، فحمد الله وأثنى عليه وقرأ ﴿طسم. تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفةً منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين. ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ (القصص: ١ ـ ٦). ولعل ابن نباتة كان يشير بيده نحو مصر، حيث يقيم «فرعون وهامان وجنودهما» ثم يشير إلى الجماهير وفيها أبو الفتوح وحسان

(١) العقد الثمين ٤ : ٧٥ (عن الذهبي) وذيل تجارب الأمم : ٢٣٦ وبغية الطلب ٨ : ١٢٩ ويختلف المؤرخون في السنة التي خلع فيها أبو الفتوح الطاعة للفاطميين، انظر العقد الثمين ٤ : ٧٥ ـ ٧٦ حيث أورد روايات مختلفة.

وابن المغربي «الذين سيرثون الأرض»، فقد وافقت الآيات واقع الحال. ولما انتهت الصلاة عاد أبو الفتوح إلى دار الامارة[1].

٧ ـ وها هنا وقفة لا بد منها، وإن كانت تقطع تسلسل الأحداث. لقد ذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أن ابن نباتة توفي سنة ٣٧٤ ونقل عنه ذلك ابن خلكان[2]. فإذا صح ذلك استحال أن يكون ابن نباتة موجوداً لدى قدوم أبي الفتوح إلى الرملة، ولم تصح نسبة الخطابة إليه في ذلك الموقف. والأرجح أن ابن نباتة عاش إلى ما بعد هذا التاريخ بكثير، وكان في الرملة حين دخلها أبو الفتوح، فقد جاء في مرآة الزمان أنه هو الذي غسل ابن المغربي حين توفي، وعمل بوصيته حين وضع في تابوته ألف دينار لتكون علامة للنقيب الذي سيدفنه في مشهد عليّ حين يصل جثمانه إلى الكوفة؛ وتتعارض هذه الرواية مع رواية أخرى جاء فيها أن ابن المغربي رآه في المنام وسأله: ما فعل الله بك؟ (وهو سؤال يدل على أن الخطيب توفي قبل ابن المغربي ولكنه من ناحية أخرى يدل على علاقة بينهما، كما يدل على اهتمامه بأمره ويومىء إلى أنه كان قلقاً على مصيره) فقال ابن نباتة: دفع لي صدقة فيها سطران بالأحمر وهما:

قد كان أمنٌ لك من قبلِ ذا ... واليومَ أضحى لك أمنانِ
والصفحُ لا يَحْسُنُ عن محسنٍ ... وإنما يحسنُ عن جاني

قال: فانتبهت من النوم وأنا أكررهما[3]: والشطر الأخير في هذين البيتين حيث ترد لفظة «جاني» يصور سبب ذلك القلق، الذي كان إسقاطاً من ابن المغربي على «صديقه» وشريكه في الثورة، وهو ما يمثل حقيقةَ حاله هو.

---

(١) ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦ ـ ٢٣٧ وتنسب هذه الخطبة إلى ابن المغربي في العقد الثمين ٤: ٧٣ وأنه قالها حين أراد أخذ البيعة لأبي الفتوح.
(٢) ابن خلكان ٣: ١٥٧.
(٣) ابن خلكان ٣: ١٥٧ ـ ١٥٨.

٨ ـ وكان أبو الحسن التهامي شاعر الرملة في تلك الأحداث قد اتخذ من الرملة دار إقامة، وتزوج بها، وتقلّد فيها الخطابة[١]، ووقف كثيراً من قصائده على المفرج الطائي وبنيه، وأصبحت صلته بابن المغربي وثيقة، ففي ديوانه أربع قصائد تتصل بالمغربي[٢]، ومنها واحدة أثارها عتابُ ابن المغربي له لأنه تأخّرَ في مدحه. ترى هل كانت هذه القصائد حين كان اللقاء بالرملة، أو كانت بعد ذلك؟ إن اشتراك التهاميّ في الثورة على الحاكم مع ابن المغربي أبعده عن الرملة وحكم عليه بالتنقل من بلد إلى بلد، وأغلب الظن أن لقاءهما تم من بعد في ميافارقين والموصل إذ نجد التهامي يمدح أبا نصر ابن مروان كما يمدح قرواش ابن المقلد العقيلي بقصائد كثيرة. ومما يرجّح هذا الفرض أن التهامي يخاطب المغربي بلقب «الوزير» و «الكامل» وهما لقبان حازهما من بعد، ولا أرى أنه حازهما بمصر لأنه لم يكن حينئذ وزيراً. وتؤكد قصائد الديوان حقائقَ مهمة منها أن التهامي كان حقاً في الرملة لما وصلها ابن المغربي، وأنه كان يعرف كيف تصرَّفَ حسان إزاء الحاكم وقتل يارختكين، وإلى ذلك يشير بقوله[٣]:

وما زلت ذخراً للامام وعدةً ... لكلِّ إمام عدةٌ وذخائرُ
فلما جرى ما كان، نفر قلبه ... لأنك نفّاعٌ إذا شئتَ ضائر
تولّي إماماً ثم تعزلُ مثله ... فإن تُدْعَ مأموراً فإنك آمر

ومما يؤكده الديوان ذلك الطموح لدى التهامي لنيل المجد، شأنه في ذلك شأن ابن المغربي. وفي الديوان قصائد قالها وهو محبوس بخزانة البنود، مما يؤكد النهاية التي تتحدث عنها المصادر التاريخية، وفي إحدى تلك القصائد يقول وهو مسجون[٤]:

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٢: ١١٦.
(٢) ديوان التهامي: ١١٦، ١٥١، ٣٣٠، ٥٣٦.
(٣) ديوان التهامي: ٢٥٢.
(٤) ديوان التهامي: ٢٦١.

لعمري لقد طوَّفتُ في طلب العلا وحالفني برٌّ وحالفني بحرُ
أروم جسيماتِ الأمور وإنما قصاراي أن أبقى إذا بقي الدهر
ولو كنتُ أرضى بالقليل وجدته ولكنّ في نفسي أموراً لها أمر

ومما يلفت النظر في إحدى قصائده ما يردده من قالة الناس عنه، وأنهم يقولون إنه سجن لطلبه الملك، مع أنه أديب محارَفٌ في عيشه، ويختم هذا بقوله: [1]

وكلٌّ بما قاله آثمٌ سيقرا الذي قال في صُحْفِهِ
وليس سوى نكبات الزمان ورأي يضلّل من ضعفه

ومدائحه في ابن المغربي، كسائر قصائد المدح، في الثناء على الجود والاشادة بالنسب الرفيع، وغير ذلك من الخصال، ونموذجه قوله في إحدى قصائده[2]:

طَلْقُ المحيّا للعفاةِ وإنما يلقى العبوس به على لوّامه
تتقاصر الأفهامُ دون صفاته وَيُغَضُّ عنه الطرفُ في إعظامه
يقظان في كسب العلاء فإن يَنَمْ فكأنه يقظانُ عند منامه
تُلْقى الوزارةُ وهي دونَ محلّه وَيُرَى المخدَّمُ وهو من خدامه

وقد انضم إلى مواليه آل الجراح، وإلى ممدوحه الجديد، في الثورة على الفاطميين، وكان له دور هامّ فيها، وقد ذكر سبط ابن الجوزي أنه «طلب الخلافة بالشام وخرج معه جماعة، فغدر به آل الجراح الطائيون وتقرَّبُوا به إلى الحاكم وحملوه إليه فحبسه في خزانة البنود إلى أن مات، وقيل إن الحاكم عفا عنه وخلّى سبيله»[3]. ولكن ابن خلدون يورد رواية أخرى، إذ يذكر

---

(١) ديوان التهامي: ٤١٣.
(٢) ديوان التهامي: ٤٣٥.
(٣) مرآة الزمان (أحمد الثالث رقم ٢٩٠٧) ١٢: ٣١.

اثنين آخرين فرّا من الرملة حين أخفقت الثورة، أحدهما اسمه سبابة، فرَّ إلى ديار بكر مع ابن المغربي، والثاني يقال له «التهامي» وقد فرَّ إلى الريّ[1]، فإذا كان هو الشاعر، فإن بني الجراح لم يسلموه إلى الحاكم. وبذلك يصبح مصيره غامضاً لأن أشهر الروايات في الحديث عن نهايته أن بني الجراح قاموا بثورة أخرى على الفاطميين، واستعانوا بالتهامي، وأرسل معه حسان رسائل كثيرةً يستنفر فيها بني قرة ببرقة للثورة. فأُخِذَ التهاميّ، وسئل عن نسبته فانتسب إلى تميم، ثم انكشف أمره فاعتُقِلَ بخزانة البنود في القاهرة، وقُتِلَ سراً في سجنه سنة (٤١٦)[2].

٩ ـ لم يلجأ الحاكم إلى القوة تجاه آل الجراح، كما تحاول بعض الروايات أن تقول، بل كان عليه أن يستنفد الوسائل الأخرى قبل ذلك، فقد كان يعلم حقَّ العلم ما بين أفراد بني الجراح من خلاف، كما كان خبيراً بالمغمز الضعيف في نفسياتهم، ولهذا استغل سحر «الأصفر الرنان» ـ الذي يرقص على الظفر ويدعو إلى الكفر ـ فأرسل أموالاً طائلة تُفَرَّقُ على الصغير والكبير من آل الجراح. وكانت حصة حسان وكل واحد من إخوته خمسين ألف دينار سوى هدايا وثياب وحظايا تُهْدَى إليهم. وفي الوقت نفسه طمأن الحاكم حسانَ حول مصرع يارختكين وسهَّله عليه[3] كأنه يقول له إنه مستعدٌ لنسيان تلك الحادثة إذا هو خذل أبا الفتوح. وتكشَّفَ شَرَهُ حسانَ الحقيقيّ حين سمع بالمال والحظية، وأرسل أمه إلى مصر ومعها تذكرة بما يريده من حوائج، وفي جملتها أن تُهْدَى إليه جارية من إماء القصر، وأن ينال إقطاعاً وتقريراً، فتكفل له الحاكم بكلِّ ما طلب، وكتب له أماناً بخطِّه، وجهَّز له جاريةً تحملُ كميةً طائلة من المال، ولأبيه كذلك[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٠٢.
(٢) الوافي بالوفيات ٢٢ : ١١٦.
(٣) العقد الثمين ٤ : ٧١.
(٤) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٨.

١٠ ـ لم يكن أبو الفتوح بحاجة إلى أن يرى حسان يرفل في الخلع التي بعثها الحاكم له حتى يستيقن بأن المسرحية قد قاربت النهاية، فقد كانت نياتُ آل الجراح نحوه قد أخذتْ تتغير. فذهب إلى ابن المغربي وقال له: «أغويتني وأخرجتني من بلدي ونعمتي وإمارتي، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفّقون سوقَهُمْ بي عند الحاكم، ويبيعوني بيعاً بالدراهم، فيجبُ عليك أن تخلّصني كما أوقعتني، وتسهّلَ سبيلي بالعودة إلى الحجاز فإني راض من الغنيمة بالإياب، ومتى لم تفعلْ اضطررتُ إلى أن أركب فرسي وأركب التغرير في طلب النجاة»[1].

حاول ابن المغربي تشجيعَ الخليفة المخذول وتقوية عزيمته لكي لا يتخاذل، فقيل إنه ذهب معه إلى المفرج والد حسان، وأخبراه بتحول أبنائه عن نصرة أبي الفتوح، وقيل إن ابن المغربي لم يجد الحلَّ المناسب الذي يسعف به صاحبه على التوّ، فلما طال الأمر على أبي الفتوح ذهب وحده لمقابلة المفرج سراً وقال له: «إني فارقت نعمتي وكاشفتُ الحاكم، وذلك لركوني إلى ذمامكم، وسكوني إلى مقامكم، ولي في عنقك مواثيق، وأنت أحقُّ مَنْ وفى لمكانك من قومك ورياستهم. وإن خير ما وَرَّثَهُ الإنسان ولده ما يكونُ له به الحمدُ والشكر وحسن الذكر، وأرى حساناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم واتّبعه أكثر أصحابه، وأنا خائفٌ من غدره بي، وما أريد إلا العودَ إلى الوطن»[2].

---

(١) العقد الثمين ٤: ٧١ ـ ٧٢ واقتصر في أخبار الدول المنقطعة: ٥٠ على قوله: «أنت أوقعتني فخلصني» وفي تاريخ أبي شجاع: «إنما فارقت نعمتي وأبديت للحاكم صفحتي سكوناً إلى ذمامك، وأنا الآن خائف من غدر حسان، فأبلغني مأمني وسيرني إلى وطني».

(٢) العقد الثمين ٤: ٧٢ وفي أخبار الدول المنقطعة: ٥٠ أن أبا الفتوح وابن المغربي ذهبا إلى المفرج معاً فقال لهما: وما تريدان منّي؟ فقال له العلوي: إن عليك حقاً وأودّ أن تجازيني عليه بأن تبعث معي من يوصلني إلى مكة، ولا تحوجني أن أركب فرسي المسنّ وأهرب بنفسي فتتخطفني العرب، وفي هذه الرواية في العقد (٤: ٧٤) ولا تحوجني إلى أن أركب فرساً أملس.

١١ ـ وسواء أأصبح أبو الفتوح العلوي في جوار المفرج فكتب فيه إلى الحاكم بالعفو والمسامحة، وردّه إلى مكة، أو كان هو الذي صحبه حتى أوصله إلى مكة، أو بعث معه جماعة من طيء ساروا معه حتى أوصلوه إليها[١]، فالنتيجة في ذلك واحدة، وهي: عودة أبي الفتوح إلى حجمه بعد انتفاخه، وعودة آل الجراح إلى طاعة الدولة الفاطمية، وخروج ابن المغربي من الوليمة «بغير حمّص» كما يقال في المثل العامي وإخفاقه في الثأر لنفسه ولأهله من «فرعون» الذي علا في الأرض. وينقل مؤلف العقد الثمين عن ابن خلدون أن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح وأسلموه إلى الحاكم وأنه راجَعَ الطاعةَ فعفا عنه[٢]، وهذا خطأ مبني على وهم. فابن خلدون لم يقلْ إن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح، وإنما يقول إنهم «أسلموه» ـ ومعنى ذلك أنهم خذلوه؛ ومما يؤكد هذا المعنى قول ابن خلدون في موطن آخر «فردّاه (أي أبا الفتوح) إلى مكة، وراجعا طاعةَ الحاكم وراجعَ هو كذلك»[٣].

١٢ ـ لم يكن المال هو العنصر الوحيد الذي أفسد على الشريف أبي الفتوح كلَّ تطلعاته، ثم أفسد تخاذلُهُ على ابن المغربي كلَّ ما كان يُعَلّقه من آمال على ثورة عارمة تحيط بمصر الفاطمية من شرقها وغربها وجنوبها الشرقي (الحجاز) بل كانت خطة الحاكم مُرَكّبةً محكمة، حاول من خلالها أن يقوض كل ما يمكن أن يمنحَ الثورةَ قوةً واستمراراً، فعمل على إحباطها في الشام والحجاز في آن معاً، أما في الشام فقد عرفنا كيف تولّى تحويل الثورة إلى الافلاس، وأما في الحجاز، فإنه قطع الميرةَ عن الحرمين[٤] ليمهّد بذلك لثورة الرعية على أبي الفتوح، ودسّ إلى مولى أبي الفتوح الذي كان ينقل له

---

(١) العقد الثمين ٤: ٧٤، ٧٥.
(٢) العقد الثمين ٤: ٧٦.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٤: ١٠٢.
(٤) تاريخ ابن خلدون ٤: ٥٧.

أخبار الحاكم واسمه أحمد بن أبي العلاء مَنْ قتله بوشايةِ عطّارٍ عليه[1] وكتب كتاباً إلى ابن أبي الطيب وهو ابن عمٍّ أبي الفتوح وقلّده الحرمين وأنفذ له ولشيوخٍ من بني حسن مالاً وثياباً. وأسرعت الرسل إلى أبي الفتوح تخبره بما حدث فازداد قلقاً وخاف خروجَ الحرمين من يده[2]، وكان ذلك مما عجَّل في عودته إلى الطاعة وطلب العفو.

٤ ـ أين الصديق في وقت الضيق:

ها نحن قد تتبعنا فصول تلك الحركة ومراحلها، وقد بلغنا عام ٤٠١ أو تجاوزناه قليلاً، وقد حجبت أحداثَ التاريخِ الأخرى عن عيني ابن المغربي مذبحةٌ وثورةٌ ونكسة. وإذا كان الحسين قد نجا بنفسه من المذبحة، فإنه عاد ليضعَ نفسه عُرْضةً للقتل حين قام بالثورة، ثم عرضةً للانهيار المعنوي التامّ حين انتكست الثورة. فأين غاب الصديق عن كل هذه الأحداث، أين أبو العلاء المعري؟ لماذا لا نسمعُ صوته في كلِّ تلك المراحل؟ هل من المعقول أن يلوذَ بالصمت في هذا المجال؟ ألم يكن ابن المغربيّ الأب يستحقُّ منه كلمةَ رثاء، ألم يكن الابن بحاجةٍ إلى من يشدُّ من أزره معنوياً؟ دعنا نستعرض الأحداث التي مرَّ بها أبو العلاء حتى العام الذي أخفقت فيه ثورة ابن المغربي: تحدثنا المصادر أن أبا العلاء دخل بغداد سنة ٣٩٩، أي في العام الذي بدأت فيه حظوظ آل المغربي بالانعكاس، وأنه أقام ببغداد سنةً وسبعة أشهر، أي أن مقتل صديقه ابن المغربي الاب وأخيه وابنيه تمَّ وهو في بغداد، فالأرجحُ أن الخبر تأخَّر حتى بلغه، وحين بلغه كان وقعه فيما نقدّرُ عميقاً، ونحن نعلم أنه حين أزمع العودةَ كان قد مني بفقد أمه، وأذهله الخبر الفاجعُ عن كلِّ شيء آخر، تحكي صورةَ ذلك رسالتُهُ الوالهةُ ذات التداعي الحرّ

---

(١) العقد الثمين ٤ : ٧٦.
(٢) ذيل تجارب الأمم : ٢٣٨، وقارن بسير أعلام النبلاء ١٥ : ١٢٩.

والجملِ المبعثرة، كأنها تنمُّ عن ذهن مشتت لا يستطيع أن يجمعها معاً[١]، وكان قد نوى العزلة، وأكّد نيته برسالةٍ كتبها إلى أهل المعرة، فهل نقولُ إن إصراره على اعتزال الناس أكَّده وقوى عزيمته فيه فجيعته في الأم، والصديق ابن المغربي الأب، وإخفاق ثورة الابن؟ ولنذكر - فقد ينفعنا أن نذكر - كيف كان المعرّي ضيقَ النفس بعجز الحكام في بلاد الشام عن التصدي للروم، بل إنه في بعض رسائله يَعْجَبُ من أهل بلاده كيف يثبتون في أوطانهم مع إلحاح الكوارث عليهم[٢]. كان يحسُّ بما يعانيه وطنه الصغير والكبير، كان وطنه الصغير - المعرة - بحاجةٍ إلى رعاية ولذلك وجدناه يلمح إلى ابن المغربي في رسالة المنيح بأن لا ينسى المزالف والمزارع في المعرة لأنها بحاجة إلى رعاية رجل ذي نفوذ مثله[٣]، وكان وطنه الكبير بحاجةٍ إلى من ينقذه من ذلك التشرذم إلى «ملوك طوائف» متنازعين، ولهذا نجده مستبشراً بإحدى الثورات البدوية بعد عودته من العراق، فهو يخاطب صديقاً له في بغداد بقوله[٤]:

وما أذهلتني عن ودادك روعة	وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائية عامرية	يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرانها	إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو[٥]
فوارس طعانون ما زال للقنا	مع الشيب يوماً في عوارضهم وخط[٦]
ونبالة من بحتر لو تعمدوا	بليل أناسيّ النواظر لم يخطوا

(١) هي الرسالة السابعة في نشرة مرغوليوث ص ٢٨.
(٢) هي الرسالة الثامنة ص ٣٤.
(٣) انظر رسائل المعري ١ : ١٤٩.
(٤) شروح السقط: ١٦٧٥.
(٥) تقطو: تقارب الخطو.
(٦) للوخط معنيان: وخط المشيب ووخط الرماح.

فأنت ترى في هذه الأبيات ـ رغم تسميته للثورة باسم «فتنة» ـ أنه مبتهج بأولئك الفرسان، يحس بالاعجاب نحوهم والاكبار بشجاعتهم، ومن يدري فلعله كان يراهن بينه وبين نفسه على انتصارهم لأن ذلك يؤدي إلى التخلص من أولئك الحكام الذين لا يستطيعون دفع الروم أو دحرهم، ونحن نعلم كذلك أن اعتزاله للناس اقترن بأنه آلى على نفسه ألا يفرَّ إذا فرَّ الناس حين يدخلُ الروم بلده، وإنما سيظل ملازماً سجنه، وليكنْ ما يكون: هل من المغالاة في شيء بعد كل ذلك، أن نرى في إخفاق ثورة ابن المغربي صدمةً لنفس المعري بالاضافة إلى صدمته في أمه وفي ذهاب ماله وفي مقتل صديقه ابن المغربي الأب، وفي سقوط توجهه نحو ابن المغربي الابن ليظلَّ يتعهدُ المعرة، وفي تبدد آماله في ثورته التي كانت تبشر بالتخلّص من تلك الحكومات الضعيفة التي لا تستطيع حماية الشام؟ إذا نحن قبلنا ذلك أدركنا أن وقوع تلك الأحداث وهو غائبٌ عنها بعيداً في بغداد لم يخفّفْ تلك الصدمة بل ضاعف من قوتها وتأثيرها.

على أن صلته بابن المغربي لم تنقطع تماماً، ولكن لعلها استؤنفت بعد ارتحال ابن المغربي عن الرملة، ولدينا جزء من رسالة[1] توحي بأنها كتبت وهو يشكو الشيخوخة «كلما همَّ خبري بالهمود، وأشرفتْ ناري على الخمود» كتبها المعري إليه، يقول له فيها: «ولو كنت عن نفسي راضياً لشرّفْتُهَا بزيارة حضرته، ولكني عنها غير راض، وما أقربني إلى انقراض»، وما تبقّى من هذه الرسالة لا يغني كثيراً في استطلاع حقيقة المكاتبة: حول أي شيء دارت، ومن أين صدرت، وإلى أين كان أبو العلاء يزمع أن يتوجه لزيارة صديقه؟

٥ ـ رحلة في المجهول ـ بعد الثورة ـ تقلب في وزارة إثر أخرى:

ولنرجع إلى ابن المغربي نفسه بعد إخفاق ثورته: تقول بعض المصادر

(١) انظر رقم: ٢١ في رسائل أبي العلاء (مرغوليوث) ص ٥٦.

إنه فرَّ من الرملة إلى الموصل، أو إلى ديار بكر، وتتلطف بعض المصادر الأخرى في تصوير ذلك الفرار، فهو لم يجمع عليه ثيابه متخفياً في النهار سارياً في الليل لئلا يكون ملاحقاً، بل إن خوفه من إرجاعه إلى الحاكم على يد بني الجراح جعله يطلب منهم أن يسيروا به ـ في حمايتهم ـ إلى العراق، فبعث المفرج معه طائفة من بني بُحْتُر الطائيين حتى أخرجوه من المناطق التي يشملها نفوذ المغاربة (أي الفاطميين)[1]، ولكن كلا الأمرين فرارٌ نأى بابن المغربي عن كلِّ تفكير بالثورة أو الانتقام ـ بعد ذلك ـ من الفاطميين.

لماذا لم يفكر ابن المغربي بطلب العفو من الحاكم وإصلاح حالِ الثرى الذي جفَّ بينهما: أليس حسان الذي قتل يارختكين، وأباح الرملة للأعراب، أكبر منه ذنباً؟ ألم يكن أبو الفتوح الذي نازع الحاكمَ الخلافةَ، وجرَّد محاريب الكعبة من الذهب والفضة وسكّها نقوداً معلناً بذلك ولادة دولة مستقلة في الحجاز والشام أشد تورطاً منه؟ نعم إنه كان «المحرّض الأكبر» على تحقيق ما تمّ ضد الدولة، ولكنه في النهاية يظلُّ الإنسانَ المظلومَ الذي فقد أهله وكاد يفقد حياته، وهو لا يعلم لهم ولا لنفسه ذنوباً محدّدة. ألا يمكن أن يفيء الحاكم إلى الهدوء، فيعفو عنه كما عفا عن الآخرين؟

يقول ابن المغربي في إحدى قصائده مخاطباً الحاكم بعد قتله لأهله[2]:

وأنت وحسبي أنت تعلمُ أن لي ... لساناً وراءَ المجدِ يبني ويهدمُ
وليس حليماً من تُقَبَّلُ كفُّهُ ... فيرضى، ولكن من تُعَضّ فيحلم

ويرى ابن العديم والمقريزي أن ابن المغربي كتب إلى الحاكم رسالةً وصدّرها بالبيتين لما عَلِقَ بنو الجراح بحبال الاغراء المادي وتخلَّوْا عن أبي

(١) أخبار الدول المنقطعة: ٥٠.
(٢) القطعة رقم: ٩٢ من الشعر، وانظر بغية الطلب ٥: ٢٥، وخطط المقريزي ٢: ١٥٨.

الفتوح وانحلَّ ما عقده ابن المغربي من أمره. وهذا قد يفهم منه أنه كان يحاول استدراج الحاكم إلى العفو، فكتب إليه الحاكم أماناً هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب كتبه المنصور أبو علي الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين لحسين بن علي بن حسين المغربي: إنك آمن بأمان الله ورسوله محمد المصطفى وأبينا عليّ المرتضى والأئمة من آلهما مصابيح الدجى صلى الله عليهم وسلم، وأمان أبينا الأقرب نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين قدَّسَ الله روحه وصلَّى عليه، على النفس والجسم وجميع الحواسّ والجوارح والمال والحال والأهل والأقارب والأسباب أماناً ماضياً لا يُتَعَقَّبُ بتأويل ولا يُتْبَعُ بفسخٍ ولا تبديل، وإن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين آمن حسين بن علي بهذا الأمان بعد أن تحقق له ذنوباً كبيرة وأجراماً عظيمة، فصفح عن علم، وتجاوز عن معرفة وحلم، وجعل هذا الأمان كالإسلام الذي يمحو ما قبله، ويمهِّدُ الخير لما بعده، فكلُّ سعايةٍ ووشاية وذنب وجريمة تنسب إلى حسين بن علي هذا قد تحقَّق أمير المؤمنين أكثر منها وصفح عنه، فلا يد له عليه إلا الاحسان إليه. وإن الحسين ابن علي هذا اختياره عند وقوفه على هذا الكتاب في انكفائه إلى الباب العزيز والتعرض للخدمة، أو التوفر على العبادة لا يُكْرَهُ على خدمة يستعفي منها ولا تُقْبَلُ عليه الأقاويل في خدمة يتعلَّق بها. وأقسم أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ذلك بأيمان الله وغليظ مواثيقه وبيته الحرام ومشاعره العظام وآياته الكرام وحقوق جميع آبائه عليهم السلام، فمتى غيَّر أو بدل أو أمر أو أملى أو أسرَّ أو أعلن أو دسَّ أو اغتال فجميع المسلمين في شرق الأرض ومغاربها وفي الموقان والري وجدة وأذربيجان والدينور وهمذان والسهل والجبل والقريب والبعيد والعراق والشام وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر وحلب ومصر والحجاز والمغرب في حلٍّ وسعة من بيعته، وقد فسح الله لهم وفسح لهم أمير

المؤمنين في النكث لها، وبرأ نفسه مما أوجبه عليهم والتزموه في أعناقهم منها، وقد برىء من الله ورسوله، والله ورسوله منه بريئان، وبرىءَ إليه من حوله وقوته، والتجأ إلى حول نفسه وقوتها، وأشهد الله وملائكته وصالحي خلقه على نفسه بذلك كله: أماناً مؤكداً وذماماً مؤبداً، وعهداً مسؤولاً وميثاقاً محفوظاً مرعياً، وكفى بالله شهيداً، وكتب المنصور بيده[1].

ها هنا رجل خائف يخشى أن يسلمه بنو الجراح إلى الحاكم، ثم هو يكاتب الحاكم لعله يستعطف قلبه. هذا شيء قائم على التعارض، والحقيقة بعد ذلك كله، أن ابن المغربي لم يكتب مستعطفاً، والبيتان الشاهدان على الاستعطاف ينطويان على التهديد «تعلم أن لي لساناً وراء المجد يبني ويهدم»، وفيهما إيماء إلى طيش الحاكم وجهله وعجزه عن إظهار الحلم في المواطن الضرورية، وسواء أفهم الحاكم ذلك أم لم يفهم فإنه كتب له أماناً وشحنه بالمواثيق المؤكدة والأيمان المغلظة، والتعهدات المؤيدة، ومع ذلك فالأمان شرك الصائد، والوفاء بالأمان لا يفهمه من بنيت حياته على التقلب المستمر، وقد وضح ذلك من سلوك الحاكم حتى أصبح الاطمئنان إلى أمان يصدره مَظِنَّةَ غفلةٍ ساذجة. ولو وضعنا الرجلين ابن المغربي والحاكم متقابلين لقلنا كان الأول قد يئس من العودة إلى مصر، مهما يبذل له من أمان، بعد كل تلك النيران التي أذكاها لتحرقَ الدولة الفاطمية، وكان الثاني غير يائس من عودة صاحبه، وليكن الأمان مغناطيس الجذب له، لعله إن خُدِعَ عن نفسه وعاد أن يشفي الحاكم غليله منه بالطريقة التعذيبية المناسبة، ولهذا لم ينتظر ابن المغربي أماناً لأنه لم يكن يتوقعه، وغادر الرملة فاراً بنفسه ـ أو في صحبة البحتريين من طيء ـ حتى وصل إلى بغداد.

وحين دخل بغداد كان الخليفة هو القادر بالله (– ٤٢٢) الذي تصفه

---

(١) بغية الطلب ٥: ٢٥ (ولم يورده المقريزي).

المصادر بالدين والعلم والوقار وكثرة الصدقات، والقائم بخلافته في بغداد بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة (- ٤٠٣) وقد تزوَّج القادر بنته سكينة. وتولى بعده ابنه سلطان الدولة (- ٤١٥)، فاستخلف أخاه مشرف الدولة ببغداد وجعل إليه إمرةَ الأتراك خاصة، فحسَّنُوا له العصيان فاستولى على بغداد وواسط وقطع خطبة أخيه سلطان الدولة[1] فانحاز أخوه إلى أرجان ثم اصطلحا وتقاسما الملك، فبقي مشرف الدولة في العراق وشيراز وكرمان ولأخيه سلطان الدولة فارس وبخارى. وتوفي مشرف الدولة سنة ٣١٦ وخلفه أخوه جلال الدولة ببغداد. وكانت البطائح تحت إمرة مهذب الدولة علي بن نصر (- ٤٠٨) كما كانت الموصل ومعها أحياناً الكوفة وسقي الفرات تحت حكم قرواش بن المقلد العقيلي (- ٤٤٣) وكانت ديار بكر في يد بني مروان، وأعظم رجالهم الملك نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي الذي حكم إحدى وخمسين سنة (- ٤٥٣).

في هذا الجو الجديد زج ابن المغربي بنفسه أو زَجَّتْ به الأقدار لكي يعيش متنقلاً من مكان إلى آخر طوال البقية الباقية من عمره (٤٠٢ - ٤١٨)، وكان تنقله من منصب إلى آخر إما بداعي الطموح إلى ما هو أحسن، وإما هرباً من وضع جديد لم يعد الركون إليه مأموناً، ومن العسير تتبع خطواته بتسلسل دقيق، فما أعرضه هنا ليس إلا صورة مقاربة لا أظنها تسلم من الخطأ:

١ - حين وصل بغداد أَمَّ حضرةَ فخر الملك أبي غالب محمد بن علي بن خلف[2]، وكان وزير بهاء الدولة ثم وزر من بعده لابنه سلطان الدولة، فإن كان وصل بغداد وبهاءُ الدولة حيٌّ، فمعنى ذلك أنه كان هنالك قبل سنة

(١) سير أعلام النبلاء ١٧: ٣٤٦.
(٢) ابن خلكان ٥: ١٢٤ (وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى) وسير أعلام النبلاء ١٧: ٢٨٢.

٤٠٣[١]، وكان فخر الملك من أعظم وزراء آل بويه، واسع النعمة، جزيل العطايا، مقصداً للشعراء من أمثال ابن نباتة ومهيار، وأنشأ ببغداد بيمارستاناً عظيماً، ولهذا ليس بغريب أن يقصده ابن المغربي. وأقدّر أنه كان وزيراً ذا حولٍ وطول واثقاً من نفسه ولم يكن يرى في ابن المغربي إلا رجلاً غريباً لجأ إليه ليستعين بجاهه، فهو يبذل له ما يستطيعه من عون. ولكن المشكلة ـ غير المتوقعة ـ هي أن الخليفة القادر بالله لم يَرْحُبْ بابن المغربي صدراً، بل رأى أن وجوده في بغداد خطر على الدولة. كان القادر بالله بين أمرين: إما أن يرى في ابن المغربي رجلاً موتوراً من الفاطميين، فمن الخير استقباله والحفاوة به ليستقوي به وبمعرفته على مقاومة المدِّ الفاطمي، وإما أن يرى فيه دسيسةً بعثها الفاطميون لافساد الدولة العباسية، وكان أن اختار الفَرْضَ الثاني مع أن الشواهد كانت ترجح الفرض الأول. ولم يستطع فخر الملك أن يُلين قلبَ الخليفة نحوه، فخرج إلى واسط، «وكتب فخر الملك بحراسته هناك ومعرفه حقه»[٢]. فأقام في تلك المدينة أياماً في درب الواسطيين[٣]، ولم يكن يحضر الصلاةَ في مسجد الحيّ، فدخل عليه أبو بكر أحمد بن العباس الدوبنائي وقال: يا شيخ، يا أستاذ، يا وزير، مهما شئتَ كُنْ، إن كنت تحضر مسجدنا هذا في الصلوات الخمس وإلا فانتقل عنا، فقال: السمع والطاعة أيها الشيخ، ثم انتقل عنهم من يومه[٤]؛ ولعله في هذه الفترة بواسط تعرف إلى أبي تغلب أحمد بن عبيد الله العاقولي الذي كان خليفة للسلطان والحكام على

(١) في بغية الطلب ٥: ٢٦ فخر الملك «وزير مشرف الدولة» وهذا إن كان دقيقاً يعني أن وصول المغربي تأخر حتى ما بعد ٤٠٣، ولكني لا أظنه يتمتع بدقة كافية.
(٢) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٣) بغية الطلب ٥: ٢٧.
(٤) المصدر نفسه، وسؤالات الحافظ السلفي: ٩٧ ـ ٩٨ وفيه لما نزل الوزير المقرىء ولفظة «المقرىء» هنا تصحيف للفظة «المغربي» ـ أو هكذا قرأها ابن العديم في الأصل الذي نقل عنه. أما محقق السؤالات فيرى أن الوزير المقرىء هو أبو القاسم عيسى بن علي الوزير ويحيل على تذكرة الحفاظ: ١٠٢٣.

تلك المدينة، وكان معظماً مفخماً، فأصبح صديقاً للمغربي[1].

وتتصل بالتهمة التي وجهها إليه الخليفة رسالةٌ كتبها في الدفاع عن نفسه وفي دَحْضِ أمور ألصقت به (رقم: ١٤). ويفتتح هذه الرسالة بالتعجب من الدهر وأموره، ثم يثبت أنه بصري عراقي، وأن النسبة إلى المغرب ليست نسبةً إلى بلد أو قطر، ويتحدث عن جدّه وأبيه، وهو شيء قد أفدنا منه في بناء سيرته، فيما تقدَّم. ولكن الاتهام الكبير كان منصباً على أنه قد اعتقد المذهب الاسماعيلي - مذهب الدولة الفاطمية - وتديَّن به، ولهذا ألحَّ في رسالته على ثقافته الحديثية، وعلى إحاطته بكتب السنة مثل الموطأ والصحيحين وغير ذلك إحاطة رواية ودراية. ونحن نصدقه وإن كان ما قاله في معرض الرّدِّ على التهم. ولكنا نجده حاول جاهداً أن يخفي كلَّ صلة له بالنسب الشيعي - من جهتي الأب والأم - وبالثقافة الشيعية، وأظن أن موقف الدفاع لم يكنْ يسمحُ بذلك، وإن كان الجوُّ من حوله في الدويلات المختلفة شيعياً.

هل اقترن وصول ابن المغربي بتلك الحملة الشعواء التي قام بها القادر بالله (سنة ٤٠٢) لكتابة محاضر يوقّع فيها الأشرافُ والقضاة والفقهاء والمعدّلون بالطعن في نسب الفاطميين ونسبتهم إلى ديصان؟[2] يبدو اقتران الأمرين أو على الأقل وقوعهما في جوٍّ واحد، أما أن نقول إن وصول ابن المغربي هو الذي أثار الحملة، فلعله يلحق بالمغالاة، وذلك أن أحداثاً أخرى كانت تستدعي ذلك التجريح في النسب، وأقربها ما كان فعله قرواش في العام السابق، إذ أظهر طاعة الحاكم وحمل الخطيبَ على الدعاء لسيدنا ومولانا «إمام الزمان وحِصْن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية عبدك ووليك المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله»[3]. كل ذلك من

(١) معجم الأدباء لياقوت ٥: ٢٢٦.
(٢) المنتظم ٧: ٢٥٥.
(٣) المنتظم ٧: ٢٥٠ - ٢٥١.

أجل ثلاثين ألف دينار تسلّمها من الحاكم.

٢ ـ قتل الوزير فخر الملك أبو غالب سنة ٤٠٧، واستطاع ابن المغربي أن يصلح حاله ويبرىء ساحته عند الخليفة، فعاد إلى بغداد وأقام فيها أياماً.

في هذه الفترة زار البطيحة حيث مهذب الدولة ووزيره أبو القاسم هبة الله بن عيسى[1]. ويبدو أن وزير البطيحة كان متضايقاً من زيارته، ولهذا اتهمه ابن المغربي بأنه بعث إليه رجلاً اسمه سليمان بن الربيع ليسأله في بعض غريب اللغة وحوشيّها. وقد وصف ابنُ المغربي تلك الألفاظ بأنها «لا يتشاغلُ بمثلها أهلُ التحصيل ولا يتوفّر على تأملها إلا كلُّ ذي تأمل عليل» (الرسالة رقم: ١) وعجب كيف يُسْأَلُ عنها رجلٌ غريب عن البطيحة، وفيها «هبة الله بحر الأدب» (يعرض بأنه هو مرسلها الحقيقي). وقد أجاب عن الألفاظ التي سئل عنها، ثم قايضه بمثل بضاعته وأزيد، فامتحنه في اللغة والنحو والنسب والسير والقرآن وعلومه وصناعة الخراج، فدلّ بذلك على تعمقه في كلّ علم واطلاعه على مشكلاته وأسراره.

٣ ـ لم يقم في بغداد إلا أياماً، ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب (وهو بالكوفة) وسار معه إلى الموصل، وكان ابن أبي الوزير وزيراً لقرواش بها، فخاف منافسة ابن المغربي له، فحمل إليه مالاً كثيراً، وأوحى له بالرحيل عن الموصل[2]. وسوف يعود إلى الموصل في زيارة أو زيارات أخرى، ولكن يبدو أن رسالته (رقم: ٣) تمثل «الانطباع» الأوليّ لأول وروده إليها: «فوجدتُ هواءها يعطِّلُ سوقَ بقراط اعتدالاً وطيبة، وماءَها يسلّي عن مُجاج النحلِ استمراءً وعذوبة، وصقعها قد «تبغدد» رقةً ولطفاً، وجوّها قد تزندق تنعماً وظرفاً... ورأيت أرضها أطيبَ الأرض خِيماً،

---

(١) بما أن هبة الله توفي سنة ٤٠٦ فقد جعلنا هذه الحادثة في هذه الفترة.

(٢) بغية الطلب ٥: ٢٦ والذخيرة ٤: ٤٧٧.

وأزينها أَديماً، تُنْسَجُ بالسندس الأخضر، وتفترُّ عن الأقحوان الأحمر». وأما رجالها فقد «لطفوا عن بدوية الشام وغلظته، وجمدوا عن ذَوْبِ العراق وخلابته»، ولعله كان يرجو أن يقيمَ في الموصل إذ وجد من يتقن الكتابة فيها قليلين على خلاف حال الشعر، ونوى أن يعينهم ببعض ما يستطيع تقديمه لهم، ولكنه وجد المقام فيها متعذراً.

٤ ـ وكانت فترة إقامته في الموصل مُدَيدَةً يسيرة، وحين فارقها توجه إلى ديار بكر فأقام عند صاحبها نصر الدولة أبي نصر مدةً على سبيل الضيافة. ثم إن نصر الدولة أراد أن يكلَ إليه تصريفَ الأمور برسم الوزارة، فتأبى كثيراً وأظهر تمنعاً شديداً، ثم قبل بعد إلحاح كثير، وكان زيه حينئذ زيَّ الصوفية أو الزهاد، أي المرقعة والصوف، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى عاد إلى أبهة الوزراء، «وظهر أمره بعد الالتباس، وانكشفت حاله عند جميع الناس»[1]. وتورد المصادر هنا أبياتاً تنسبها إليه وتجدها مصورةً لما جرى له تمام التصوير لأنها تتحدث عن طَرْحِ المرقعة ولبس الشفوف، والهيام في حبّ غزال لا يرضيه لبس الصوف (المقطوعة: ٦٩) إلا أن المقريزي يقول: «فصار حاله كمن قيل فيه وقد ابتاع غلاماً تركياً كان يهواه قبل أن يبتاعه «تبدل من مرقعة ونسك... الأبيات»[2]... فكأنه ينفي نسبة الأبيات إليه.

هذه المرحلة من حياته في ديار بكر تسمى الدفعة الأولى، لأنه وزر لنصر الدولة مرتين[3]، وأقام في كل مرة مدة طويلة نسبياً في أعلى حال وأجل مرتبة وأعظم منزلة.

وفي تلك الدفعة الأولى توجَّه الوزير إلى بدليس لانجاز بعض

---

(١) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٢) خطط المقريزي ٢: ١٥٨.
(٣) ابن خلكان ١: ١٧٨.

المهمات، فأصابه مرض حادّ، فقد معه قوته وانقطعت شهوته إلى الطعام، فعاد من بدليس إلى ميافارقين، لعله إذا وافاه الأجل أن يكون فيها أو قريباً منها، وقد أتعبته الرحلة كثيراً وزادت في انحطاط قوته، مع أنه في كلِّ يوم كان يقطع مسافة غير طويلة، وفي الطريق إلى ميافارقين نزل بدير مارماري وقد اضمحلت قوته أو كادت، واستبد به الضعف والاعياء، واستدعى لدى حلوله في الدير بشرابٍ، لكنَّ معدته لم تسعفه بل دفعته خارجاً، مما جعل من حوله نهباً للقلق وجعله آيساً من الشفاء. ثم إن الراهب الموكّل بالدير جاء له بشيءٍ من الرمان، وسأل بعض الغلمان هنالك أن «يفرطوا» بعض حبِّ الرمان له، فقيل له إنه لا يستطيع أن يتكلم ولا أن يسمع الكلام، وأن إقهاءه عن الطعام قد بلغ حدَّ الامتناع الكلي، وأن معدته لا يثبت فيها طعام أو شراب، فألحَّ الراهب على إعطائه شيئاً من حب الرمان «لعله ينتفع ببركة الدير» فتناول منه شيئاً يسيراً ثبت في معدته، وجعل يأخذ منه بالتدريج شيئاً بعد شيء، حتى عاد إليه بعض قوته وانتعشت نفسه بعضَ انتعاش. وكان الراهب قد طبخ لغلمان الدير عدساً، فاشتهى الوزير بعضه، وبعدما أكل نهض وتمشى على السطح متفرّجاً، واعتقد أنه تماثل من مرضه، ولكنه ربط ذلك كلَّه «ببركة الدير»، وتخيَّل أن ما حدث كان شيئاً شبيهاً بالمعجزة، يتحدث عنها أينما حلّ. وهذه الحادثة جعلته في حيرة من الرأي حول النصارى: لا يمكن أن يكونوا كفاراً مشركين ما دام مثل تلك الآية يحدث في أديرتهم، ثم هم يقولون إن الله جوهر ثلاثة أقانيم فيعتقدون ثلاثة آلهة، فيعبدون ثلاثة أرباب وهم على ذلك مشركون فما المخرج؟ هنا لجأ إلى إيليا مطران نصيبين عندما زارها من بعد، وألقى عليه هذا السؤال وأسئلةً أخرى[1] وسأتحدث عن تلك الزيارات والمحاورات من بعد.

---

(١) مجالس إيليا (مجلة المشرق: ٢٠) ٣٥ ـ ٣٦.

وفي الفترة نفسها التقى به الشاعر أبو نصر المنازي[1] ومدحه، وتاريخ مدحته له هو سنة ٤٠٦، وتجمع المصادر على أن المنازي وزر لنصر الدولة ولعل ذلك كان بعد وفاة المغربي. ومطلع قصيدته المشار إليها:

اصفح لطرفِ الصبِّ عن نظراته — إن كنت آخذَهُ بما لم ياتِهِ

ومنها في المدح:

ولئن جزَتْ نعمَ الحسينِ محامدٌ — فليجزينّ الغيثُ عن هَطَلاته
أقنى وأغنى فانقلبتُ ولي به — شُغْلان بين صفاته وَصِلاته
حاولتُ عدَّ خلالِهِ فوجدتها — تشقى الرواةُ لها شقاءَ عداته
أبصرتُ سُبْلَ المجدِ من لَحَظَاته — وأفدتُ حُسْنَ القولِ من لفظاته
وأرى الفصاحةَ والسماحةَ والغنى — ومكارمَ الأخلاقِ بعضَ هباته
ورث المعالي عن عليٍّ وابتنى — رُتَباً مشيّدة إلى رتباته
وكذاك لابن القَيْلِ إرثُ علائه — فرضاً ولابن القَيْنِ إرثُ علاته[2]

٥ ـ توفي الكافي وزير قرواش، وأصبح الجو ممهداً لعودة الوزير المغربي إلى الموصل، فكتب إليه قرواش يعرض عليه الوزارة، وما كاد يتسلم رسالةَ قرواش حتى وجد في نفسه نزوعاً شديداً إلى مبارحة بلاط نصر الدولة. وقد نظن لأول وهلة أن سحر الموصل الخلاّب قد ظلَّ يداعبُ خياله، وهذا إن صح فإنه لا يكفي لتعليل سرعة الاستجابة لديه، وإذن فلا بد أن منزلته العظيمة عند نصر الدولة كانت قد أخذت تنحدر.

ويقصُّ علينا نصر الدولة قصةَ ما حدث فيقول:

(١) ترجمة المنازي أحمد بن يوسف في وفيات الأعيان ١: ١٤٣ وسير أعلام النبلاء ١٧: ٥٨٣ والوافي ٨: ٢٨٥ (وكانت وفاته سنة ٤٣٧).
(٢) بغية الطلب ٢: ١٥٧ ـ ١٥٨ والعلاة: السندان، والقين: الحداد.

«لما خدمني عند مجيئه من مصر، وما جرى له مع الحاكم، جاءني يوماً ومعه سدس كاغد فقال لي: قد أثبتُّ في هذا السدس أسماءَ أصحابك الذين قد أخذوا أموالك وأَخْلَوْا خزانتك من مالٍ يُعَدّ فيها لحاجة أو شدة ما قيمته ثلاثمائة وسبعون ألف دينار ـ شك الوزير في ذلك ـ وقال: إذا أخذتَ هذا القدر منهم لم تجحف بأموالهم وكان كلٌّ منهم مرتباً في خدمته ومركزه وولايته، وتكون قد تقضَّيْتَ من أموالك التي احتجنوها ما جعلتَهُ لكَ خزانةً وَعُدَّة»[1].

عند هذا الحدّ ذكَّره نصر الدولة بأنه جعله وزيراً ليعمر البلاد، فإذا عمرت درّ دخلها وكفته وكفتْ أصحابه، ولم ينصبه ليقوم بمصادرة أصحابه، وهذا شيءٌ سهل لا يحتاج إلى جهود وزير، ويستطيع أن يقوم به على أكمل وجه أَدْوَنُ خادمٍ عنده. عندئذ شعر الوزير المغربي أنه عثر عثرة ربما لا تستقال، وأن نصر الدولة إذا سرَّبَ الخبرَ إلى أصحابه نقموا على الوزير، ولذلك قال لنصر الدولة: «إذا كان هذا رأيك فاحرسني من أصحابك، ولا تُطْلِعْهُمْ على ما قلتُهُ في معناهم فيفسدَ ما بيني وبينهم»[2] فضمن له نصر الدولة ما أراد. ولكن القلقَ لم يغادر نفس الوزير، وأخذ يتحين الفرصة لمغادرة ديار بكر، وكانت رسالة قرواش هي باب النجاة. ولكنه لم يشأ أن يكشف سرَّه لئلا يحول نصر الدولة بينه وبين الرحيل، بل أخذ يُعْمِلُ الحيلةَ للهرب، فقال لنصر الدولة: «قد جرى في الجزيرة خُلْفٌ بين الضامن لها وبين فلان وتفاقم الأمر فيه إلى أن احتاجَ إلى مشارفتي له وإصلاحه بنفسي. فتأذنُ في الانحدار إلى هناك؟»[3]، وهذا ما عبَّر عنه ابن العديم في موطن آخر بقوله: «على سبيل اعتبارِ الأعمالِ وتصفُّحِ العمّال»[4].

---

(٢) بغية الطلب ٢: ٦٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) بغية الطلب ٢: ٦٤.
(٤) بغية الطلب ٥: ٢٦.

وحدَّد الوزير المغربيّ مدة الغياب بعشرين يوماً، يستطيع أثناءهـا أن يحسمَ خلافاً ربما استشرى حتى يشغلَ قلبَ نصرِ الدولة، وفهم نصر الدولة أنه يريد مفارقته، بل يؤكد أنه أدرك أن الوزير يريد المضيَّ إلى قرواش أمير بني عقيل، ولعلَّ عيونه كانت قد أطلعته على ذلك، فقال له: افعل ما ترى. وانهمك الوزير في إعداد ترتيباته للرحيل.

يكمل نصر الدولة القصة فيقول: «فجاءني موسك خالي وقال لي: عرفت أن أبا القاسم المغربي على الانحدار إلى الجزيرة، وكذبَ، فإنه بنيّةِ المضيِّ إلى الموصل؟ فقلت: قد عرفتُ ذلك وعلمته، ودعه يمضي إلى اللعنة، فما في مقامه ها هنا لكم فائدة. قال: وتدعُهُ يمضي وقد أخذ أموالك وسرقها وحصَّلها واحتجنها، ولم تقبض عليه، وتأخذ ما أخذ ثم تصرفه إلى اللعنة وسوء المنقلب؟ فضحكت منه وقلت: ليس كلُّ من يأخذ مالي أرتجعه منه، ولعمري إنه خدمنا وانتفع منا وكسب معنا. وأَخْذُ ذلك منه لؤم، فأمسك»[1].

وكان موسك خال نصر الدولة أحد الضحايا لخطّة المصادرة التي رسمها المغربي، لو انها نُفّذَتْ، ولذلك كان يترصَّد خطواتِ الوزير ويكيدُ له ويحرض عليه.

وسار ابن المغربي إلى الجزيرة متوجهاً نحو الموصل، وظلّ يسير حتى شارف تلك المدينة، وحطَّ رحاله على مقربة منها حتى إذا جنَّه الليلُ سرى إليها ووصلها مُصْبحاً، واجتمع بقرواش، وتقلَّد له الوزارة، وأخذ يَسْفِرُ في شؤونٍ كلَّفه بها قرواش من وساطة بينه وبين السلطان البويهي، ولم ينسَ الوزير أن يعمل لمقبل الأيام إذا عاد قرواش فتغير عليه، فأخذ يُكْثر من لقاءِ

(١) بغية الطلب ٢ : ٦٤.

رؤساء الأتراك والديلم ويعمل على استمالتهم، ويتصل بمن يستطيع أن يمهد له نيل الوزارة في بغداد[1].

ولا بد أن ذلك كله كان قبل عام ٤١١، ففي هذا العام يخبرنا ابن الأثير أن قرواش بن المقلد قبض على وزيره أبي القاسم المغربي وعلى شخص آخر اسمه سليمان بن فهد[2]، غير أن سبط ابن الجوزي يجعل حادث القبض عليهما في صفر من السنة التالية[3]، ويقصُّ السبط علينا تقلُّبَ الحالِ بسليمان الوزير حتى قيض له أن يلتقي بالمقلد والد قرواش، ثم كيف خدم قرواشاً نفسه بالموصل فصادر الناس ووترهم، حتى استوحش منه ابنُ أبي الوزير وزير قرواش، فهرب من الموصل إلى بغداد، فلما وزر ابن المغربي لقرواش بعد موت ابن أبي الوزير الملقب بالكافي وعد سليمانَ بخلاص أملاكه. وأقام سليمان في دار ابن المغربي بمنزلة الضيف، ولم يفلح ابن المغربي في تخليص الأملاك ولا اليسير منها. وجرت أحداثٌ جعلت ابنَ المغربي يُوجس خيفةً من قرواش، وينتظر الفرصة للخلاص منه، فزيَّن لقرواش مدَّ الأسباب إلى أبي نصر صاحب ديار بكر ومصاهرته، وطلب العون منه، وقال لقرواش: ما يقوم بهذا الأمر غيري، فأذنَ له قرواش بالخروج، فخرج واصطحب معه سليمان بن فهد، ومضيا فنزلا بظاهر الموصل، وفيما هما كذلك مرّ بهما بدران أخو قرواش وكان يمقتهما، فرآهما يعدّان للرحيل، فدخل على أخيه وقال له: بأيِّ رأي تترك هذين الرجلين يخرجان من يدك، وقد أخذا مالك؟ فأرسل قرواش فقبض عليهما واعتقلهما ليطالبهما بالمال، فأما سليمان فمات تحت الضرب، وأما ابن المغربي فإنه أرسل إلى قرواش يقول له: إن كنت تريد نفسي فهي بين يديك، وإن كنت تريد المال فمالي

---

(١) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٩: ٣٢١.
(٣) مرآة الزمان (أحمد الثالث) ١٢: ٣٣.

بمصر والكوفة وبغداد، وتطيبُ نفسي بتسليمه إليك، فإن حفظتَ نفسي أعطيتك المال. ثم بذل له ما حضره من مال، وخدعه بالقول اللطيف وبالوعود، فانخدع له، وأخذ ما وجده معه وأطلقه[1].

٦ ـ هل بقي الوزير المغربي يعمل عند قرواش بعد أن أطلقه من الاعتقال؟ ذلك مستبعد فيما أرى، لأن بقاءَهُ هنالك سيظل يذكر قرواشاً بوعود لم تُحَقّق، ولهذا أُقدّر أنه غادر الموصل إلى بغداد، لعل التغييرات في الحضرة البويهية تجيء في صالحه.

ومن الصعب أن نحدّد مدى تنقله بقية عام ٤١٢ والذي يليه، ولعله في هذه الفترة دخل الأنبار، وكان منذ هاجمه المرض في بدليس قد أصبح عرضةً لهجماته، وللمرض صلة بالمعدة والأمعاء. وفي الأنبار عرض له قولنج صعب، أقام لأجله في الحمام واحتقن عدة حقن، وشرب عدة شربات، ولكن ذلك كله كان غير ذي جدوى. عندئذ أرسل ابنه أبو يحيى إلى الطبيب أبي منصور صاعد بن بشر بن عبدوس (وهو أول من نبَّه إلى تدبير الأمراض التي كانت تعالج بالأدوية الحارة باستعمال التدبيرِ المبرّد) فجاء صاعد فوجد الوزير وجسمه شديد الحرارة من المكث في الحمام ومن استعمال المعاجين الحارّة والحقن الحادة، وعندئذ استدعى الطبيبُ كوزَ ماءٍ مثلوج وأعطاه للوزير، فشربه بعد توقف، وأخذت نفسه تقوى، ثم استدعى فاصداً أخرج له دماً كثيراً، وسقاه أدوية مبردة، ونقله من الحمام إلى غرفة مبردة بالخَيْش، ونبهه إلى أنه سينام ويعرق ويستيقظ ويعاود المرحاضَ مرات. وحدث ما توقعه صاعد إذ نام الوزير حوالي خمس ساعات، ثم صحا من نومه وأخذ يصيح

(١) مرآة الزمان ١٢ : ٣٣ (وهو موجز جداً عند ابن الأثير ٩ : ٣٢١) وجاء في مرآة الزمان ١٢ : ٤٧ أن قرواشاً لم يقتل سليمان بل خرج مع المغربي إلى نصر الدولة وأقام في ضيافته حتى أصلح حاله مع قرواش وعاد إليه.

بالفرَّاش، وكان الطبيب قد أوصى الفرَّاش أن يجعله يستأنفُ النوم كي يستمرَّ نَضْحُ العرق، ولما خرج الفراش من غرفته ذكر أن ثيابه كانت كأنما صُبِغَتْ بماء الزعفران، وتردَّد إلى المرحاض بعد إفاقته ثماني مرات، وأوصى له الطبيب بمزوّرة، وسقاه ماء الشعير مدة ثلاثة أيام حتى اكتمل برؤه، وكان الوزير يقول: طوبى لمن سكن بغداد داراً شاطئة، وكان طبيبه أبو منصور، وكاتبه أبو علي ابن موصلايا، فبلغه الله أمانيه فيما طلب[1].

٧ - بين سنتي ٤٠٩ - ٤١٢ كان وزير مشرف الدولة البويهي ببغداد ذا السعادتين أبا غالب الحسن بن منصور، وبينه وبين الوزير المغربي مراسلات، (الرسالة رقم ٦ وجوابها ورقم: ٧) وهي تورّي حيناً وتصرّح حيناً بما في نفس الوزير المغربي من ميل إلى خدمة ذي السعادتين. ولا يقلُّ عنه ذو السعادتين مهارةً في استعمال التعابير الغائمة التي لا يستطيع المرءُ فيها أن يقبض على حقيقة، وكلاهما يتباريان في سَوْقِ الثناء على ما أحرزه هذا أو ذاك من بلاغة وفصاحة. وفي إحدى الرسائل ذكر ذو السعادتين شيئاً يتصل بـ «التفويض والتعويض» فارتاح الوزير المغربي إلى هذا الوعد، وعلّق على ذلك بقوله: «وجملة ما اقترحه أن يتصوَّر فيَّ ما يتصور في بعض الأقربين من خادم يُصْطَنَعُ فَيُجْرَى من الحنو عليه مُجْرَى خواصِّ الأهل وأداني الأصحاب...»[2]، غير أن مقتل ذي السعادتين حال دون نيل أيّ شيء من جهته. ومع أن الوزارة أصبحت تتطلب كفؤاً يخلف ذا السعادتين فإن مشرّف الدولة لم يتجه بنظره نحو المغربي ولم يفكّر فيه بل استوزر سنة ٤١٣ أبا الحسين الرخجي ولقب مؤيد الملك[3]، وبقي هذا في الوزارة سنتين وبضعة أيام. وفي السنة التالية استوزر مشرف الدولة أبا القاسم المغربي[4]، وكان

(١) ابن أبي أصيبعة ١: ٢٣٢ والوافي بالوفيات ١٦: ٢٣٧.
(٢) انظر الرسالة رقم: ٧.
(٣) ابن الأثير ٩: ٣٢٩.
(٤) ابن الأثير ٩: ٣٣١.

ذلك بعون من الأثير أبي المسك عنتر الذي كان على صلة بالوزير المغربي من خلال المراسلات، ومن خلال سفير بينهما هو أبو الحسين ابن وصيف[1].

ولما تربع على دست الوزارة البغدادية، وكان ذلك حلماً طالما هجست به نفسه، أصبح مقصداً للشعراء، فمدحه عدد منهم من أشهرهم مهيار الديلمي، ومن مدائحه فيه قصيدة له مطلعها:

عسى مُعْرِضٌ وجهُهُ يُقْبِلُ فيوهبَ للآخرِ الأولُ

ومنها في المدح:

فداك وتفعلُ ما لا تقولُ ممن يقولُ ولا يفعل
سللتَ على المال سيفَ العطاء فلاحيك في الجود مستقتل

فلما انتهى من الانشاد أبدى الوزير استحسانه للقصيدة وأشار إلى الناحية التي فيها الدنانير والدراهم، فجلس مهيار إليها وملأ كميه منها تباعاً، حتى لم يبق شيئاً ونهض فقبل الأرض وانصرف، وكان مجموع ما حصل عليه - بإقراره - ألفاً ونيفاً وعشرين ديناراً وسبعة آلاف وثلاثمائة درهم، وذلك مبلغ كبير جداً إذا قيس بما كان يناله الشاعر حينئذ[2].

ويؤرخ ابن بسام هذه القصة بعام ٤١٨ وأن أبا القاسم كان في داره في ذلك العام، وهو إذ ذاك وزير بغداد، وهذا وهمٌ فإن أبا القاسم في ذلك العام كان وزيراً لنصر الدولة بديار بكر وميافارقين. ولدى ابن بسام بعض تفصيلات فإنه يذكر أن ذلك كان في يوم نوروز، ودخل عليه وجوه أمراء الديلم والاسفهسلارية من الأتراك، ووضعت الهدايا بين يديه على رَسْم الفرس، وأن مهيار الديلمي استأذن عليه لما تَعَالَى النهار، فأذن له، فلما مثل

---

(١) بغية الطلب ٥ : ٢٦.
(٢) بغية الطلب ٥ : ١٩ (والنقل عن جزء فيه شيء من أحوال ابن المغربي جمعه القاضي الجليس ابن الحباب).

بين يديه قال: أيدك الله، هذه البضاعة التي معنا كانت كاسدةً وقد وجدنا لها نَفَاقاً عندك، فأنشده القصيدة اللامية، وكان ابن المغربي لدى الإنشاد يستعيد الأبيات النادرة فيها ويكثر إعجابه ويجمع كفيه ويبسطهما ويقول: أحسنت والله، أجدت والله، ثم أباح له جمع ما كان على الأرض من دراهمَ ودنانير[1].

وعلى الرغم من هذا العطاء الجمّ فإن مهيار يحكي أن الوزير المغربي لما تولى وزارة بغداد شمخ بأنفه وأظهر العسف والتجبر والاستعلاء، ورهبه الناس، فأحجم مهيار عن لقائه - هذا يتعين أن يكون قبل الحادثة السابقة - ثم إنه عمل فيه قصيدة بائية يقول فيها:

جاء بكَ اللهُ على فَتْرةٍ بآيةٍ مَنْ يَرَهَا يعجَبِ
لم تألفِ الأبصارُ من قبلها أن تطلعَ الشمسُ من المغرب

فاستحسن الوزير ذلك وأعطاه مائتي دينار[2].

ولكن الوزير الذي أصبح قبلة الشعراء المادحين لم يسلم من السخرية والهجاء، فقد استكثر عليه أحدهم أن يصبح «النحوي» وزيراً، فقال فيه:

ويلي وويحي وويهي على ملوكِ بُوَيْهِ
يا ضيعة الملك جداً ويا بكائي عليه
يا مغربي رويداً كيف اهتديتَ إليه
سلبته كلَّ حَلْيٍ في صدره ويديه
سياسةُ الملكِ ليستْ ما جاء عن سيبويه[3]

---

(١) الذخيرة ٤: ٥١٤ - ٥١٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٧: ٣٩٥.
(٣) بغية الطلب ٥: ١٩ (وباختصار في مرآة الزمان ١٢: ٣٨).

ثم إن هذا الشاعر، ويقال إنه هو أبو عبدالله الخيمي، لقيه من بعد عند قرواش بالموصل، أو عند نصر الدولة بميافارقين، فدخل عليه في جملة الشعراء مادحاً، فقال له الوزير: بأيّ وجه تلقاني؟ فقال: جوابي لك جوابُ أبي الهول الحميري للفضل بن يحيى وقد سأله مثل هذه المسألة فقال: بالوجهِ الذي ألقى به ربي، وذنوبي إليه أكثرُ من ذنوبي إليك. وقال يمدحه:

يا معجزَ الله الذي قد حلَّ في أعلى محلٍّ
لما رأيتَ الملكَ في هُونٍ ومضيعة وقُلٍّ
أكبرتَ نفسك أن تدبِّـ ـرَ أمرَ ملك مضمحلٍّ[1]

ومرة أخرى تفيد المصادر أنه تولى الوزارة ببغداد «بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة للدراعة»[2]. وتاريخ توليه الوزارة عند ابن الأثير هو شهر رمضان سنة ٤١٤[3]، وعند ابن العديم هو الشهر نفسه من السنة التالية[4]، ودامت وزارته هذه المرة عشرة أشهر وخمسة أيام[5]. وحدثت وحشة بين الأثير أبي المسك عنبر الخادم ومعه الوزير المغربي وبين الأتراك، فاستأذن الأثير وصاحبه مشرّفَ الدولة في أن يهاجرا إلى بلد يأمنان فيه على نفسيهما، فقال لهما مشرف الدولة: أنا أسير معكما، وهكذا كان، فتوجه جميعهم إلى السندية وفيها قرواش، فاستقبلهم فيها، ثم ساروا جميعاً إلى أوانا ونزلوا على أبي سنان غريب بن محمد بن مقن[6] هنالك. فلما علم الأتراك بذلك انزعجوا وأرسلوا وفداً يقدم الاعتذار، فكتب إليهم الوزير المغربي: «إنني

(١) المصدر نفسه.
(٢) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٣) تاريخ ابن الأثير ٩: ٣٣١.
(٤) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٥) تاريخ ابن الأثير ٩: ٣٣٥.
(٦) ابن خلكان ٢: ١٧٦ والوافي ١٢: ٤٤٣ وغير المحقق «مقن» إلى «معن» وذلك من تحكمات المحققين.

تأملت ما لكم من الجامكيات، فإذا هي ستمائة ألف دينار، وعملت دخل بغداد، فإذا هو أربعمائة ألف دينار فإن أسقطتم مائة ألف دينار تحملت الباقي» فوافقوا على ذلك[1] وعاد مشرف الدولة والأثير إلى بغداد، ولم يعدْ معهما الوزير المغربي.

ولدى ابن بسام روايةٌ تختلفُ في بعض تفصيلاتها عن هذه الرواية السابقة إذ تذهب هذه الرواية إلى أن مشرّف الدولة أوقعَ ببعض الأتراك على الرغم من نهي الوزير له عن ذلك، فأبى مشرف الدولة إلا أن يركب رأسه، فاضطرب العسكر اضطراباً اضطرهما إلى الهرب، وأفضى بهما إلى استجارة أمير العرب. ولدى استعداد الوزير للهرب لبس ثياباً رثة ووضع على وجهه منديلاً، واستقبل غلامه نحرير في الدهليز وهو يقول[2]:

تمرستْ مني العلا بامرئٍ قد عَلِقَ المجدُ بأمراسِهِ
يستنجدُ النجدةَ من رأيه ويستقلُّ الكثر من باسه
أروعُ لا يرجعُ عن تيهه والسيفُ مسلولٌ على رأسه

وقيل أيضاً إن مشرف الدولة لم يقترح مصاحبة الوزير والأثير بل إن ابن المغربي دبّر إخراجه «لحاجةٍ في نفسه قضاها، وخطة من مكره ألزمه إياها، إبقاءً على جلالة المقدار، وأنفةً من الانفراد بعيب الفرار»[3].

توجّه الوزير المغربي إلى قرواش، إذ يبدو أنه لم يطمئنَّ للجند الأتراك، أو لم يستطع أن يفي لهم بالجامكيات المطلوبة، وحدث ما أبعده عن بغداد جملة، إذ نشبتْ فتنةٌ في الكوفة بين العلويين والعباسيين وكان الذي جرَّ إليها خلافُ بين أبي علي الزكي النهر سابسي صديق الوزير المغربي وعلي

(١) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣٥.
(٢) الذخيرة ٤ : ٤٧٨ والمقطوعة رقم: ٦٠.
(٣) المصدر نفسه.

ابن أبي طالب صهر الوزير المغربي من جهة، وبين المختار أبي علي بن عبيدالله العلوي. واستعان المختار بالعباسيين لنصرته، وسار بهم إلى بغداد وشكوا ما يفعله بهم النهر سابسي، فرأى الخليفة القادر بالله أن يقوم بالاصلاح بينهم مراعاةً للوزير المغربي لأن النهر سابسي كان صديقه وابن أبي طالب كان صهره، ولكنهم حين عادوا استعان كل فريق منهم ببني خفاجة، ونشب بينهم قتال ظهر فيه العلويون وقتل من العباسيين ستة نفر وأحرقت دورهم. عندئذ أمر الخليفة بتنحية ابن أبي طالب عن نقابة الكوفة وولاها المختار، فغضب الوزير المغربي لما حلَّ بصهره واستنكره، وكان عندئذ بسرَّ من رأى عند قرواش، وحاول أن يتعدَّى على أرحاء كانت للخليفة، فأرسل الخليفة رسولاً إلى قرواش يأمره بإبعاد المغربي، ففعل[1].

٨ ـ إلى أين توجه هذا الوزير الذي يثير المشكلات أينما حلّ؟ لعلَّ من أغرب الأمور أن وجد نفسه يعودُ إلى ديار بكر وإلى صحبةِ نصر الدولة. وموضع الغرابة لا أنه احتجن أموالاً كثيرة كما ذكر موسك، فذلك أمر قد تسامح فيه نصر الدولة، وإنما موطن الغرابة أن نصر الدولة كان يؤمن أن الوزير بارعٌ في الشرّ بل إنه لا يحسن غيره[2]، وأنه كذب عليه ليؤمّن لنفسه الهربَ من عنده، فبأيّ وجه يلقاه الوزير وبأي وجه يتلقاه الأمير؟ إن عودته إلى ديار بكر ـ إن كان قد عاد لتسلم الوزارة ـ لتؤكد شيئاً واحداً وهو أنه على الرغم مما كان يُؤْخَذُ عليه من تحيّل وكيدٍ وشر، كان يتمتع بكفايةٍ تؤهله لمنصب الوزارة، وكان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعة فضائله. ولكن يبدو أنه في بادىء الأمر طرح نفسه على نصر الدولة لاجئاً أو ضيفاً وقد تلقاه هذا بالاكرام وأقطعه ضياعاً جليلة تكفيه وتكفي من وصل معه

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٩ : ٣٣٦.

(٢) بغية الطلب ٢ : ٦٤.

من الحاشية والاتباع[1]، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى تأكدت الحاجة إليه. ففي سنة ٤١٦ توفي وزير نصر الدولة أبو القاسم خواجا صاحب أرزن، فاستوزر نصر الدولة أبا القاسم المغربي وردَّ الأمور إليه[2]، وعلى الرغم من أنه أقام في هذه المرة قرابة ثلاث سنوات، فإن أخباره بالنسبة للفترة التي أقامها تُعَدّ ضئيلة. وأوضح هذه الأخبار تردُّدُهُ على نصيبين، والفضل في ذلك الوضوح يعود إلى تلك المحاورات بينه وبين مطران ذلك البلد.

وقد دخل الوزير المغربي إلى نصيبين لأول مرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى (٤١٧/ حزيران ١٠٢٦) فزاره مطران نصيبين إيليا المعروف بابن السني للتهنئة، فاستبقاه حين أراد أن ينصرف وأنسه، وسأله عن أحواله، ثم جرت محاورات بينهما في سبعة مجالس بين السبت ٢٧ جمادى الأولى ٤١٧، وحتى ١٠ جمادى الآخرة من السنة نفسها، سأل فيها الوزير عن عقيدة النصارى في الأقانيم الثلاثة وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد، وكيف يمكن للنصارى أن يدفعوا قول الله فيهم ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وعن علةِ الناس في محبة أديانهم، وهل يتحقق المرءُ صحةَ دينه أو مذهبه من جهة العقل أو من جهة المعجزة. ويدور المجلسان السادس والسابع حول أسئلة عن المقارنة بين نحو السريان ونحو العرب وعلم اللغة عند الفريقين واستعمال المجاز عندهما، والمفاضلة بين الخط السرياني والخط العربي، وبين علم الكلام هنا وهنالك، وعن اعتقاد النصارى في أحكام النجوم، وعن اعتقاد النصارى في المسلمين، وعن اعتقاد النصارى في النفس.

وبما أن مطران نصيبين هو الذي كان يتولى الاجابة فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح مما يجعل الوزير يسلّم له معجباً، وفي بعض

---

(١) بغية الطلب ٥ : ٢٦.
(٢) مرآة الزمان ١٢ : ٤٧.

الأحيان نجده أعلم من الوزير بشؤون الإسلام، ويكاد في معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه. فأما ما يتعلق بالأقانيم الثلاثة وما يتصل بها فمن الواضح أنه يشرح عقيدة النساطرة، وهي قريبة الشبه بما عند المسلمين، وأما في الأسئلة التي قد ينجم عن الاجابة عليها التورط فيما يَمَسّ السيادة الإسلامية فإن أجوبة المطران تنهج نهجاً بارعاً في حسن التأويل والتخلص من المآزق، غير أنه واضح العصبية لكل ما هو سرياني من نحو ولغة وخط وعلم كلام، وهنا يتخذ الوزير الموقف الأضعف، كما يريده الإطار الذي جرى فيه الحوار.

وقد شمل الحوار أموراً لا تتصل بالدين؛ كذلك تحدَّث معه في آخر ثلاثة أيام قضاها في نصيبين في الزيارة الأولى في مسائل تتعلق بأخلاق النفس وآداب الرهبان والزهّاد والعلوم العقلية، وليت المطران دوَّنها إذ كان جُلُّ الفائدة فيها، لا في الأمور الجدلية.

وقد طلب الوزير من المطران أن يكلّف الرهبان في الأعمار والأديرة الواقعة تحت إدارته بالدعاء له، وأن يسألوا الله مساعدته في أموره، فأخبره المطران أن الرهبان لا يدعون للإنسان بطول العمر أو بزيادة المال أو تكثير النسل وإنما يسألون الله «أن يصنع به ما له فيه الخيرة... وأن يصلحَ نيته ويوفّقه إلى طاعته» وحين وافق الوزير على ذلك، ورحل عن نصيبين، اجتمع المطران بالرهبان وسألهم الدعاء للوزير فدعوا «أن يصنع الله إليه ما له وللناس فيه المصلحة الشاملة»[1].

ثم عاد الوزير إلى نصيبين دفعتين أخريين كانت الأولى منهما يوم الخميس الثامن من ذي القعدة، وفي هذه الزيارة أقام خمسة وعشرين يوماً[2]، وكان في

(١) مجالس إيليا: ٤٣١.
(٢) في النسخة الخطية: خمسة وخمسين يوماً.

صحبة أبي نصر صاحب ديار بكر، ولقي صاحبه المطران إيليا وباحثه في مسائل عدة تتناول اعتقاد اليهود وتاريخ آدم وغيره من التواريخ وتغيير اليهود لها والآثار العلوية. وكانت الزيارة الثالثة يوم الأحد ١٧ جمادى الأولى من العام ٤١٨، وحين اجتمع بالمطران إيليا قال له: «اعلم أنني أحس بوجع في أحشائي، والشيخ أبو سعد أخوك كان قديماً يراعي أمري ثم أهملني فأريد أن تعاتبه على فعله»[١].

ولما فاتح المطران أخاه بالأمر كان عذره أنه رأى في منامه أنه دخل لتطبيب الوزير على ما جرت به عادته، ولما خرج من الباب وجد في صحن البيت ستة أشخاص أو سبعة يلبسون زيَّ الأساقفة، وتقدَّم شيخٌ منهم وقال له: «أتعرفني، قال: لا، قال: أنا شمعون، وإن الله لا يريد أن يشفي هذا الرجل أفتريد أن تشفيه أنت؟!» واستسلم الطبيب لإرادة «مار» شمعون، ومنذ أن رأى المنام لم يتجاسر على تطبيبه مستيقناً بحسب إيماءات المنام أن بقيةَ عمره قصيرة[٢].

وقد أقام الوزير في زورته الثالثة لنصيبين عشرة أيام ثم عاد إلى ميافارقين وجاءته دعوة من بغداد للعودة إليها وتولي الوزارة فيها، فاستأذن نصر الدولة في ذلك فأذن له[٣]. وهذه الرواية تبطل الرواية التي أوردها ابن الجوزي وكررها السبط وخلاصتها أن الوزير اعتزل السلطان وانقطع للعبادة فقيل له: لو تركت المناصب في عنفوان شبابك فقال: «كنتُ في سفرة البطالة والغيِّ. . الأبيات»[٤] ولعلَّ هذه الرواية نشأت بعد أن ذهب إلى ميافارقين وقضى مدةً وهو دون عمل.

---

(١) مجالس إيليا: ٤٣١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) بغية الطلب ٥: ٢٦.
(٤) المنتظم ٨: ٣٣ ومرآة الزمان ١٢: ٤٨.

غير أن اشتداد المرض عليه حال دون ذهابه لبغداد، ووافته منيته في اليوم الحادي عشر من رمضان سنة ٤١٨[١] عن عمر بلغ ستة وأربعين عاماً.

ويقال إنه حين أحس بالموت كتب كتباً عن نفسه إلى كلٍّ من يعرفه من الأمراء والرؤساء الذين بينه وبين الكوفة يعرِّفهم أن حظيّةً له توفيت، وأنه قد أرسل تابوتها إلى مشهد الإمام علي، وأنه يسألهم مراعاةَ من مشوا في صحبة التابوت. ولما توفي سار به أصحابه، وسار من بلَّغ الرسائل إلى أصحابها، فلم يعرض أحد لتابوته ودفن بالمشهد كما طَلَب[٢] في تربةٍ مجاورة للإمام علي، وأوصى أن يكتب على قبره[٣]:

كنت في سفرة الغواية والجهـ ـل مقيماً فحان منّي قدومُ
تبتُ من كل مأثمٍ فعسى يُمْحَـ ـى بهذا الحديث ذاك القديم
بعد خمسٍ وأربعين لقد ما طلتُ إلا أن الغريمَ كريم

وذكر صاحب تاريخ ميافارقين أنه كتب إلى النقيب بالكوفة ليدفنه في عتبة باب المشهد وقال للنقيب: قد أوصيتُ أن يجعل في التابوت ألف دينار في كيس، فإذا وصل إليك التابوت فافتحه فهي العلامة. وكان الذي عهد إليه بوضع الكيس، هو ابن نباتة الخطيب فعمل بما أوصاه به بعد أن قام بغسله، فلما وصل التابوت إلى الكوفة قال النقيب: من هذا؟ فقيل له: الوزير المغربي، فقال: أين العلامة؟ إن لي فيه علامة، ففتح التابوت ووجد الكيس، فأخذه ودفنه تحت العتبة وكتب عند رأسه: «يا جامعَ الناسِ لميقاتِ يومٍ معلوم اجعل الحسينَ بن علي من الفائزين»[٤].

وفي رواية أخرى أنه أوصى أن يُحْمَلَ إلى مشهد الحسين ويدفن تحت

(١) المصدر نفسه، وعند ابن خلكان ٢: ١٧٦ في الثالث عشر من رمضان.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٩: ٣٦٢ ومرآة الزمان ١٢: ٤٧ والمنتظم ٨: ٣٣.
(٣) ابن خلكان ٢: ١٧٦ وانظر المقطوعة رقم: ٩٥ والمنتظم ٨: ٣٣.
(٤) مرآة الزمان ١٢: ٤٨.

رجلي الحسين، ويكتب عند رأسه هذان البيتان[1] (والمصـادر تكاد تجمـع على الرواية الأولى):

سقـى الإلـه الأزلي من السحـاب الهطلِ
قبـرَ الحسين بن علي عنـد الحسين بن علي

ولقد شاع أنه سمّ[2]، وأن ذلك تمّ حين فصل من ميافارقين ذاهباً إلى بغداد[3]، والاقتران بين موته وبين رغبته في مفارقة ميافارقين إلـى بغـداد هو الذي يوحي بذلك التقدير والظنّ. وقد وجدنا أن المرض لم يكن يُغِبّ الوزير إلا ليعودَ إليه، وأنه كان يلمّ بـ «أحشائه». فإذا كان للسمّ دور في إثارته فلعله أن يكون سماً بطيئاً. ويصف ابنُ بسام هذا كله بقوله: «واستأذن نصرَ الدولة فخلّى بينه وبين مراده، ولم يجد بدأً من إسعاده ووفاء بإنجاز ميعاده، فلما برزت قبابه، وكادت تستقلُّ ركابه، خُوِّفَ نصرُ الدولة عاقبةَ مكره، وأشير عليه بالرأي في أمره، فسقاه شربةً كانت آخر زاده»[4].

ومهما يكن سبب وفاته، فقد سكن ذلك القلق الطويل، وهمدت تلك الحيوية المتفجـرة: شقشقـةٌ هدرتْ ثم قَرَّتْ. وذهـب الـوزير الكامـل ذو الجلالتين بعد أن شغل الناس، وأصبحوا في النظر إليه شيعاً.

وفيما كان الوزير المغربي يعالج سكرات الموت كان أبو العلاء يملي على كاتبه تأملاته في الحياة والموت والقدر والمذاهب في شكل لزوميات، ولما وصله النبأ توقف عن التأمّل الخـالصِ ليذرفَ دمعـةً علـى صديق. ولا أعرف شخصاً آخر رُثي في اللزوميات، فإن يكن الأمر كذلك، فهذا وحـده

(١) مرآة الزمان ١٢ : ٤٨ والمقطوعة رقم: ٩٠.
(٢) لسان الميزان ٢ : ٣٠٢.
(٣) خطط المقريزي ١ : ١٥٨.
(٤) الذخيرة ٤ : ٤٧٩.

دليلٌ على عظم المنزلة لصديقه الوزير في نفسه. وبما أن الوزير كان إنساناً غريباً، وبما أنه عاش غريباً يتسلَّمه بلد بعد آخر فقد نظم فيه أبو العلاء لزومية غريبةً[1]:

ليس يبقى الضَّرْبُ الطويلُ على الدهر ولا ذو العَبَالةِ الـدِّرْحَايَهْ[2]
يا أبا القاسم الوزير ترحلتَ وخلَّفتني ثفالَ رحايه[3]
وتركتَ الكُتْبَ الثمينةَ للناس وما رُحْتَ عنهمُ بسحايه[4]
ليتني كنتُ قبل أن تشربَ الموت أصيلاً شربته بِضُحَايَهْ
إن نحتك المنون قبلي فإني مُنْتَجَاها وإنها منتحايه
أمُّ دفرٍ تقولُ بعدك للذاتِ لا طَعْمَ لي فأين فَحَايَهْ[5]
إن يخطَّ الذنبَ اليسيرَ حفيظاكَ فكم من فضيلةٍ محَّايَهْ

هي سبعة أبيات لكنها جامعة لسيرة إنسان: فيها تأكيد بإيراد الكنية واللقب على الشهرة، وفيها إشارة إلى الكتب الثمينة التي خلَّفها الوزير وهي إما أن تكون مؤلفاته القيمة، وذلك اعتراف بتميز ما كتبه، وإما أن تكون الكتب التي وقفها بميافارقين وظلت تعرف من بعده بمكتبة المغربي. وفيها اعترافٌ بذنوب اقترفها الوزير إلا أنها ذنوب صغيرة وسوف يمحوها ما يوازيها لديه أو يفوقها من حسناتٍ وفضائل. ولكن القصيدة (أو المقطوعة) تقيم منذ أول بيت الموازاة بين إنسانين، كما أقامت المساواة بين الطويل والقصير أمام الموت. وإذا كان الوزير طويلاً والمعري قصيراً وذهب أحدهما فإن الآخر لاحقٌ به. ولكن لماذا يترحل الوزير ويترك صديقه وراءه، محطماً مبتذلاً كجلدة الرحى؟ ليته وقد شرب صديقه كأس الموت قبل أن يبلغ مساءَ

(١) اللزوميات ٢: ٦٥٢ - ٦٥٣.
(٢) العبالة: السمنة والغلظ، والدرحاية: القصير.
(٣) الثفال: الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد، والرحاية: الرحى.
(٤) السحاية: القطعة التي تؤخذ من القرطاس.
(٥) الفحا: أبزار القدر.

العمر شرب هو تلك الكأس في ضحى العمر، واستراح من أم دفر، التي تعلن للناس أن فَقْدَ الوزير أفقد الدنيا طعمها كأنها القِدْرُ الفقيرةُ إلى الأبزار والتوابل. كان المعري حين نظم هذه الأبيات قد بلغ الخامسة والخمسين أو تجاوزها بقليل، وقد أصبحت الحياة على كتفيه عبئاً ثقيلاً، وزادها ثقلاً فَقْدُ الوزير وغيره من أصدقائه، ولذلك رثاه بأبيات تعلن قافيتها بسكونها انقطاعَ النَّفَسِ أو وَشْكَ انقطاعه. وإذا كانت حقاً تمثل بعض آخر ما نظمه المعري في اللزوميات، فإن كل ما قبلها مباشرة وما بعدها يتنفس في جوٍّ واحد هو استطالة الحياة والدقّ برفق على باب الموت. وفي آخر لزومية يقول المعري[1]:

إن يرحل الناسُ ولم أرتحلْ فعن قضاءٍ لم يُفَوَّضْ إليّْ
خُلِّفْتُ من بعدِ رجالٍ مَضَوْا وذاك شرٌّ لي وشرٌّ عليّْ

وهكذا فإن المعري حين رثى الوزير بصدق كان أيضاً يرثي نفسه.

---

(١) اللزوميات ٢: ٦٥٦.

٢
شخصية الوزير المغربي

كل من شاء أن يدرس شخصية الوزير المغربي لا يستطيع أن يتخلص من أحكام ابن القارح على تلك الشخصية، فقد أثار ابن القارح من حولها غباراً كثيراً، وأطلق دخاناً كثيفاً، لا يمكن طردهما. ولهذا ستظلُّ الرؤية غير دقيقة. وقد كررت بعض المصادر ما قاله ابنُ القارح دون محاكمة فزادت انبهامَ الرؤية إلى حدّ كبير، وهذا كله مهَّدَ لجعل الحسين «محرك النار» في كثير من أحداث عصره، حتى وإن كان بعيداً، حتى لقد أصبح لدى كثير من المؤرخين «الوسواس الخنّاس» الذي يحركُ إلى الشرّ، ومن السهل أن تصف إنساناً بأنه كان مفرط الذكاء والدهاء بل أن تعده من دهاة العالم[١] ثم أن تربط به أعمالاً قائمة على الحيلة والجرأة، وأن تصفه بخبث الباطن وارتكاب العظائم[٢].

---

(١) ابن خلكان ٢: ١٧٤ «من دهاة العارفين»؛ سير أعلام النبلاء ١٧: ٣٩٥ - ٣٩٦ له رأي ودهاء.. وذكاء وقاد، وكان من دهاة العالم؛ لسان الميزان: ٢: ٣٠١ له الذكاء المفرط؛ ذيل تاريخ دمشق: ٦٤ ذا علم وذكاء؛ الداوودي ١: ١٥٣ وإفراط ذكائه وفطنته؛ الوافي ١٢: ٤٤٢ من الدهاة العارفين.

(٢) ابن خلكان ٣: ١٣٤ خبيث الباطن؛ لسان الميزان ٢: ٣٠٢ الجرأة وارتكاب العظائم في حصول غرضه؛ الوافي ١٢: ٤٤٢ خبيث الباطن؛ ابن الأثير ٩: ٣٣٢ كان خبيثاً محتالاً.

لقد رسم له ابن القارح صورة حالكة مقيتة حين حشد فيه الصفات الآتية :

١ ـ الملل : كان أبو القاسم ملولاً ، والملول ربما ملَّ الملالَ ، وكان لا يَمَلُّ أن يَمَلَّ .

٢ ـ الحقد : [كان] يحقد حقد من لا تلين كبده ولا تنحلُّ عقده .

٣ ـ العقوق : له رأي يزين له العقوق ، ويمقّتُ إليه رعايةَ الحقوق .

٤ ـ الكبر : كأنه من كبره قد ركب الفلك ، واستوى على ذات الحُبُك .

٥ ـ الحسد : (حسد ابن القارح لأنه استطاع أن يجمع سبعة أوصاف للشمعة في بيت واحد) .

٦ ـ الجنون : كان جنونه مجنوناً . . وأجنُّ منه لا يكون .

٧ ـ الجرأة على المقدسات : (أخذ محاريب الكعبة الذهب والفضة وضربها نقوداً) .

٨ ـ سفك الدماء وانتهاك الحريم والتقتيل والتخريب في سبيل الحصول على مآربه[١] . ولم يتوقف موقف التشكيك في هذه التهم إلا ابن العديم فإنه قال : وكان بين أبي القاسم ابن المغربي وبين عليّ بن منصور ما يوجبُ ألاّ يُقْبَلَ قوله فيه[٢] . وقد بلغ فقدان الثقة بين الرجلين حداً بعيداً حتى إن الوزير المغربي قال في بعض ما يرويه : أنشدني علي بن منصور (ابن القارح) ـ إن صدق[٣] ـ وهذا الالحاق يدل على أسوأ ضروب الظن .

وقد استنتج كتاب التراجم خبثه وإزراءه بالفضلاء وشدة حسده على الفضائل التي يتمتع بها الآخرون من أنه كان «إذا دخل عليه الفقيه سأله عن

---

(١) رسالة الغفران : ٥٥ ـ ٥٨ .

(٢) بغية الطلب ٥ : ١٩ .

(٣) بغية الطلب ٥ : ١٩ .

النحو، والنحوي سأله عن الفرائض، والشاعر سأله عن القرآن قصداً ليسكتهم»[1]، ولست أرى في ذلك شيئاً مما استنتجوه، إذ هذا التصرف إما أن يكون دعابة فهو يُحْرِجُ الفقيهَ إذا سأله في النحو، ويتلعثم، ويخرج إلى أمور مضحكة. وأشهد أنها دعابة ثقيلة غير مستملحة، وإما أن يكون «تعليماً» للمسؤول ومحاولة لجرّه إلى التواضع كي لا يحسب لإتقانه أحدَ العلوم أنه قد أحاط علماً بكلِّ شيء، فهو يردُّه إلى التواضع. كما يعبر عن تميزه الشخصي لأنه يتقن علوماً جمة، وتلك طريقة أيضاً غير ضرورية فليس لأحدٍ أن ينصبَ من نفسه معلّماً لغيره، وهي قد توحي بالغرور، ولكنها لا تدلُّ على الخبث وشدة الحسد.

غاية ما هنالك أن الرجل كان شديد الذكاء، وأهم من ذلك أن ذكاءه أوصله إلى النضج المبكر، فبدأت تظهر لديه عقدة التفوق، وزادها إعجاب أبيه به ـ وربما أضفت «وتدليله له» ـ ولعلّ المعري ـ دون أن يقصد ـ شارك أيضاً في ترسيخ تلك العقدة، بذلك النوع من الخطاب في رسالتي المنيح والاغريض. وقد كان ذكاؤه في أول الأمر موجهاً إلى هضم كل ما يقرأ والتعمق في العلم والأدب، وفي إتقان النظم والنثر، فلما وضح له أنه يبذّ معظم أقرانه تحولت عقدة التفوق لإرضاء طموحه إلى الشهرة، وكفلت له مجالسة الحاكم ـ بصحبة أبيه وعمه ـ بدايةَ التوقّل في سلّم المجد، وعرض على الحاكم أن يستغلَّ مواهبه فيما يرفعُ من ذكره وينشر صيته، ويعودُ على الدولة بالخير.

غير أن الحادثة التي لم يُعِر أثَرَها المؤرخون اهتماماً وإنما اكتفوا بذكرها على أنها محضُ خبرٍ هي المذبحة التي تعرَّض لها أهله، وقلبت

---

(١) المنتظم ٨: ٣٢ ـ ٣٣ وابن الأثير ٩: ٢٣٢ وابن خلكان ٢: ١٧٤ والوافي ١٢: ٤٤٢ ولسان الميزان ٢: ٣٠١ ومرآة الزمان ١٢: ٤٧.

نفسيته، ووجهت ذكاءه في وجهة جديدة. فإذا كان الانتقام شراً، فقد أصبح الذكاء موجهاً نحو الشرّ، وإذا كان الحقد سيئاً فقد «وظّف» في خدمة الانتقام. وحين استطاع أن يورّط آل الجراح بحيث تتطابق مشكلته ومشكلتهم بالنسبة للدولة الفاطمية لم يكن يستشرف أن يكونَ الرجلَ الأول في الدولة المستحدثة، بل كان كل همه أن يتحقق له الانتقام. وفي سبيل ذلك استباح لنفسه كلَّ ما يمكن أن يتوقّفَ عنه لو لم تكن سحابةُ الانتقام قد غَشَّتْ عينيه، وكان أهونَ ما هنالك نزعُ الذهب والفضة من الكعبة، إذ الكعبة ليست بحاجةٍ إليهما. فأما تيتيم الأطفال وترميل النساء وقتل الرجال فتلك هي شرعة الحرب. وهي أمور تتم به وبدونه، ومن شاء أن يقوّضَ دولة لم يحسب حسابَ الخسائر في الأرواح وفي بنية العائلة وفي ضياع الأموال. لستُ أسوّغ للوزير المغربي أن يفعل ذلك، ولكنه حين فعل ذلك كان واحداً من آلاف - بل ملايين الطامحين - الذين جنوا على الإنسانية، وأقاموا ذلك التمثال الأجوف الذي نسميه تاريخاً، ولهذا فلا يجوز أن ينفرد باللوم، وكل من حوله والغون في دماءِ الأبرياء وغير الأبرياء.

وبعد إخفاق الثورة أصبح يسعى للحصول على مصدر رزق: كان غريباً والغريبُ المنافس للطبقة البيروقراطية يلقى كل أنواع الكيد والدسائس والتكتل ضدّه، وكان ذكياً والذكيُّ مخوفٌ لأنه يفضح الغباء الجماعيَّ الذي يتخذه الآخرون جُنَّةً ضد مغايرٍ لهم غريب، وكان مريراً بسبب ما مُنِيَ به من إخفاقات متوالية، والمرير إذا كان ساخراً يثير الغيظَ والحفيظةَ والخصام، وكان تفرده في العلم والكتابة والشعر يؤهله لنيل ثقةِ من يعمل معه بسرعة، وذلك يثير الحسد، فهو المحسودُ لا الحاسد، لأن لديه من الفضائل ما يقنعه ويرضيه، أما الحاسدُ فهو طامحٌ لما عند غيره ولا يعرف الرضى. وكان صارماً في الوظيفة دقيقاً فيما يجب على الآخرين أن يؤدوه، وهذا النوع من الناس

يُتَّهمون بالتكبر والتجبر، لأن معظم من يعملون معهم يميلون إلى التراخي والإرجاء والتسويف والمماطلة. وليس غريباً إذا جعل من أهم القواعد للسائس في رسالته في السياسة أن يحذر «كلَّ الحذر من تأخُّر عملِ يومٍ إلى غد، فإن لكلِّ وقتٍ شغلاً، وهذا الخُلُقُ من المدافعاتِ بالمهماتِ أدهى الدواهي التي تتابع لها الخَلل، وانهدمت لها الدول»[1]. وكان سخياً بالمال، وما أحرى ذلك أن يقربه إلى القلوب، ولكن السخاءَ أحياناً يأتي بضدّ ذلك، لأن استشعار علوِّ اليد يثير النقمة بدلاً من الشكران، أو يضع المرءَ في شعور مختلط بين النقمة والشكران.

وتصفه المصادر بالجرأة والدهاء معاً، وكلتا الخصلتين تشيران إلى دوره في الحياة السياسية العملية. والجرأة تؤدي إلى التهور، وذلك يعني عدم حسبان النتائج، وإذا حكمنا على المغربي بنتائج أعماله قلنا إنه كان متهوراً لا جريئاً وحسب، إذ مني كل ما خططه بالاخفاق. فأما الدهاء فهو موصول لدى من يستعملون هذه الصفة بالحيلة القائمة على الذكاء، وإخفاق النتائج لدى المتهور ينقصُ حظه من الحيلة البارعة، وذلك في الأعمال الكبيرة، أما في الأمور اليومية الصغيرة فلعل الوزير المغربي كان سيّد من دبّر «المقالب» وضحك على زملائه وضحك منهم. ومن حقٍّ من تصدوا لترجمته أن يقولوا إنه كان داهية لأنه كان دائماً يدبر الخطط حتى لم ينسَ أن يدبّر كيف ينتقل إلى مشهد علي متخذاً في ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف.

ورغم العقل المسيطر في توجيه خططه نجده امرءاً «عاطفياً» بل يمكن أن يقال فيه إنه كان يوقد الشمعةَ من طرفيها: كان كثير الانقياد لشهوته، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثِقْلَ الآثام والذنوب وما يترتب عليها من حساب، ولذلك فإن شعره يتراوحُ بين هاتين المنطقتين على نحو متكافىء. أعطى ريعانَ الصبا

---

(١) الرسالة رقم: ١٦، الفقرة: ١٤.

من المجون ما أحب (المقطوعة: ٤) ولكنه في قرارة نفسه يبغض الإثم (المقطوعة: ٤٩). يذهب فنوناً في هوى إلف له ثم يهجره، ويموتُ الإلف وهما متهاجران، فيحسُّ بالندم ويبكي بحرقة (٢٥، ٤٥) ثم يلوذ بكرم الباريء ـ جلّ وعز ـ (٩١):

هو المحسنُ البرُّ فيما قضاهُ والحاكم العدلُ في ما حَكَمْ
وإني وإن حجبتني الذنوبُ فمني السؤالُ ومنه الكرم

بل تبلغُ به التوبة حدَّ التعلق بأستار الكعبة (٤٧):

أستارُ بيتك أمنُ الخوفِ منكَ وقد عُلّقتها مستجيراً منك يا باري
وما أظنّك لما أن علقتُ بها خوفاً من النار تدنيني من النار
وها أنا جار بيتٍ أنت قلتَ لنا حُجّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

بل يمكن أن يقال إنه في هذا التردد ضيَّعَ نقطة الوسط، وإن كان بتأرجحه المستمرّ يحاولُ التوسط. ولما قال له المطران إيليا إن الرهبان لا يدعون للإنسان بطولِ العمر أو زيادة المال أو كثرة النسل وإنما يسألون الله أن يصنع به ما له فيه الخيرة شرح المغربي كيف بارح البحث عن النقطة الوسط. ذكر أنه يفتش عن غاية العز (ورَّى بالعز هنا عن أشياء كثيرة) أو عن غاية الزهد. أما الزهد فغير ممكن في حال الوزير، لأن الزاهد يخدم نفسه بنفسه والوزير يخدمه الكثيرون. وأما العز فهو يتمناه بلهفة، ولكنه واقع بالنسبةِ له بين طمعٍ فيه وحرمان مؤقتٍ منه «ومع طمعي فإني لست مؤيساً منه»[1]، فكل ما ناله من عزّ لم يكن مرضياً له، ولذلك فهو يحسُّ أنه لم ينل كلَّ ما يريده، أي هو واقع في نقطة وسطٍ لا يريدها. لا يريد أن يتجه نحو الزهد، إنه لا يرضى إلا بالطرف الأقصى من العز، وهذا الموقف الذي يمثل آخر مراحل حياته يدحضُ روايةً تنسب إليه أنه تزهد واعتزل العمل. وتذهب

(١) مجالس إيليا: ٤٣١٠.

هذه الرواية إلى أنه كان يعابي من يدخل عليه بامتحانه وسؤاله في غير ميدانه العلميّ، وأن شيخاً دخل عليه فسأله عن العلم فقال: ما أدري ولكني رجل يودعني الغريبُ الذي لا أعرفه الأموالَ العظيمة ويعودُ بعد سنين وهي مختومة. (ها هنا تعريض بالوزير)، فخجل وآل الأمر أن زار أحد الصالحين (أو هو الشيخ نفسه) فقال له: لو صحبتنا لنستفيدَ منك وتستفيدَ منا، فقال: ردَّني عن هذا بيت شعر:

إذا شئتَ أن تحيا غنيّاً فلا تكنْ بمنزلةٍ إلاّ رضيتَ بدونها

فأنا أكتفي بعيشي هذا. فقال: يا شيخ ما هذا بيت شعر، هذا بيت مال، ثم قال: اللهم أغننا كما أغنيتَ هذا الشيخ واعتزل السلطان[1].

على أنه مهما استبد به استبحاره في الشهوات، فقد كان ذا غَيْرةٍ على الإسلام، وإيمان عميق به، ولذلك تجده شديدَ السرور حينما أسلم رئيسُ اليعاقبة بتكريت، ذلك هو أبو مسلم مشرف بن عبيدالله الذي كان يعرف بالمطران الكبير: «فهنأ الله الإسلامَ ما يزال يتولاه من إيضاح مناره، وتبلج أنواره، وإدامة صبحه ضاحكاً تتصدع عنه دياجير الشبهات، وتنجلي منه ملابس الضلالات» (الرسالة رقم: ٩) ولعلّ مما زاده سروراً أن المطران رأى الإمام علياً بصحبة الرسولﷺ في المنام.

فقد كان الرجل شيعياً، وكان لذلك يؤمن بالتقية، وكان إذا أَمِنَ أفصح عن حقيقة مشاعره، وفي تلك اللحظات كان موقفه من رجالات الإسلام موقفاً شيعياً خالصاً ولذلك كان عليّ بطبيعة الحال هو خير الصحابة في نظره (رقم: ٨١):

عرفنا علياً بطيب النجارِ وفصلِ الخطابِ وَحُسْنِ المخيلَهْ

---

(١) المنتظم ٨: ٣٢ ـ ٣٣ ومرآة الزمان ١٢: ٤٨ وانظر رواية أخرى من القصة رقم: ٢٦ منقولة عن بغية الطلب.

تطلّع كالشمس رأدَ الضحى بفضلٍ عميمٍ وأيدٍ جزيله
فكان المقدَّمَ بعدَ النبيِّ على كلِّ نفس بكلٍّ قبيله

وهو قد أصبح قاب قوسين من مقام النبوة (رقم: ١٠٧).

صلّى عليك الله يا مَنْ دنا من قاب قوسين مقامَ النبيهْ
أخوك قد خُولفتَ فيه كما خولف في هارون موسى أخيه
هل برسول الله من أسوةٍ لم يقتدِ القومُ بما سنَّ فيه

ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لقيل: محبةٌ لإمام من السابقين. ولكن الأمر يتجاوز ذلك إلى التعريض بصحابة أجلاء (رقم: ٥٠):

وتداولتها أربعٌ لولا أبو حسن لقلتُ لَؤُمْنَ من أستارِ
من عاجزٍ ضَرعٍ ومن ذي غلظةٍ جافٍ ومن ذي لوثةٍ خَوّار

فأما موقفُهُ من بني أمية فهو صريحٌ لا يحتاج إلى تعريض:

ثم امتطاها عبدُ شمسٍ فاغتدت هزؤاً وَبُدِّلَ رِبْحُهَا بخسارِ
وتنقلت في عُصْبَةٍ أمويةٍ ليسوا بأطهارٍ ولا أبرار
ما بين مأفونٍ إلى متزندقٍ ومداهنٍ ومضاعفٍ وحمار

وأنكى من ذلك تطاوله على مقام الرسول الكريم، ففي تعصبه للأنصار ونسبته نصر النبي لهم، دون غيرهم، خرج إلى الإدلال السمج حين زعم أنه لولا الأنصار لكان محمد عليه السلام صنواً لخالد بن سنان، وهو نبي في الفترة قيل فيه إنه ضيعه قومه (رقم ١٠٤):

فليشكرنّ محمدُ أسيافَ مَنْ لولاه كان كخالدِ بن سنانِ

وفضل الأنصار لا ينكر، ولكن التمدّح بفضلهم لا يستلزم إنكار الفضل على غيرهم. كذلك كان موقفه حين ينزع عن معتقده سُجُفَ التقيّة، فإذا

أسدل ذلك السجف، لم تكد تعرفُ منتماه المذهبيّ، فهو في رسالة السياسة يستشهد بوصية أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان، وهو في الميدان الأدبي تغلبه النزعةُ الأدبية، وهو في الميدان التاريخي راوية دقيق، لا مجال لديه ـ في الغالب ـ للعصبية المذهبية.

وحين فارق ابن المغربي مصر كان قد تجاوز الثلاثين، وهي سن متأخرة للزواج في ذلك العهد، ولذلك فإن زواجه وهو بمصر هو المرجح، وحين رزق بابنه الأول سماه عبدالحميد ـ لإعجابه بإمام الكتابة ـ وكنّاه أبا يحيى. وكان الذي هنأه بمولده صاحب ديوان الجيش بمصر أبو عبد الله محمد بن أحمد فقال: [1]

قد أطلع الفألُ منه معنىً يدركهُ العالمُ الذكيُّ
رأيت جَدَّ الفتى عليّاً فقلت جَدُّ الفتى عليّ

وقد كبر ابنه وروى عن أبيه، وحدث ببعض أخباره [2]. ويبدو أنه أصهر إلى عائلة علوية عراقية إذ يذكر أن أبا الحسن علي بن أبي طالب بن عمر كان صهره [3]، وإذا كانت المقطوعة رقم: ١١١ في رثائه فذلك يعني أنه توفي قبل ٤١٨. وقد كانت زوجته هي بنت العرمرم، ولا ندري أكانت هي أم عبد الحميد، أم لا، ولعلها كانت على جانب غير قليل من الثراء، وكانت لها شخصيتها المستقلة أو حاول زوجها أن يمنحها ذلك المظهر، إذ تذكر الروايات أنها أهدت أبا كاليجار البويهي لما طلع قلعة إصطخر «مذافَ أحمر بهرمان رماني ما يعرف قيمته» [4]. ولا ندري هل كان عبد الحميد الابن الوحيد للوزير المغربي أو أنه رزق بأبناء آخرين.

---

(١) ابن خلكان ٢: ١٧٤.
(٢) ابن أبي أصيبعة ١: ٢٣٢.
(٣) ابن الأثير ٩: ٣٣٦.
(٤) الذخائر والتحف: ٧٩، و «المذاف» ـ هكذا ورد ـ ولم أتبين ما هو.

وقد ظلت الأجيال من بعد تشير إلى الحسين بن علي باسم «الـوزير المغربي» حتى أصبح اللقب غير منفصل عن نسبته عند ذكره، ولكنه لم يكن «وزيراً» فقط، بل كان «الوزير الكامل ذا الجلالتين»، ولا ندري متى أحرز كل هذه الألقاب، ومن لقبه بها، والأرجح أن ذلك تمَّ في الفترة العراقية.

زعم الفراق دعا به فأجابه ونعم دعاه فلم أراد يجيبهُ

ومن الجدة في المعنى قوله:

محا حسنُ يأسي شخصَهُ من تذكري فلو أنني لاقيتُهُ ما عرفته

فهذا عكس للمعنى المألوف، وهو آسر لأنه يفاجئك بغير المتوقع.

وفي شعره على الجملة نغمة من لوعة دفينة أسيانة. وإذا صحّ أن الأبيات التالية له، فإنها تمثل قمة الوجد في نضارة تعبير (رقم: ٤٣):

أقول لها والعيسُ تُحْدَجُ للسُّرى أعدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبر
سأنفقُ ريعانَ الشبيبة آنفاً على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخُسْران أن لياليأ تمرُّ بلا شيءٍ وَتُحْسَبُ من عمري

ومن شدة تطلبه للمعنى الأخاذ يحمل كثيراً على التعمل الذهني، ويبعد في طلب المعنى فلا يأتي بشيء جديد كقوله (رقم: ٥٥):

كان لي في انتظار شيبي حسابٌ غالطتني فيه صروفُ الدهور

وكذلك لا تعدم اللفتات المستملحة في مثل قوله (رقم: ٧٤):

فقال ليَ الحبيب وقد رآني سبوقاً للمضمَّرة العتاقِ
ركبتَ على البراق؟ فقلتُ كلا ولكنّي ركبتُ على اشتياقي

وهذا الاستملاح لائق بالمواقف الغزلية والعاطفية، وهو يتحول إلى عمق عاطفي في شعر الرثاء. ولكنه لا يصلح للشعر التعليمي والحكمي، ولهذا كان هذان اللونان من الشعر يتحملان لديه قسطاً من الفجاجة إذا قورنا بشعره العاطفي. وكذلك يمكن أن نقيم المقارنة بين مدائحه ومراثيه، إذ كانت الأولى قائمة على الدعوى والثانية على المشاعر الصادقة. ومما يحسم الأمر بين هذين اللونين أنه لم يكن يرى لممدوحيه فضلاً عميق الجذور في

نفسه، بل لعله كان يرى نفسه فوق المدح، بينما كان الذين رثاهم يتمتعون بمكانة عالية لأنهم علويون مثل الشريف الرضي والشريف أبي الحسن صهر الوزير. ولو قارنت مراثيه في أمثال هذين بمراثيه في إِلْفٍ له فقده لوجدتَ درجةَ العاطفة واحدة، وإنما يقع التمايز في اختلاف العلاقة.

ولعل أحفل نماذج شعره في التصوير القصيدة الأخيرة في هذا المجموع (رقم: ١١٥) وفيها يصور سابحاً:

فكأنــه في المــوج قلـ ـبـي بين أشواقـي إليه

فتصوير الأشواق بالموج وفي وسطها القلب وهـي تتلاطـم من حولـه صورة غير مألوفة،

والمــاء مثــل السيف وهـ ـو فرنـدهُ في صفحتيه

تركيبٌ جديد لموادّ مألوفة في التصوير. أما الصورة البعيدة حقاً فهـي نهيه الناس عن شرب ماء النهر الذي كان يخوضه ذلك السابح لأن الحسـن ذاب فيه: أتراه يعني أن من شرب منه سحر؟ وعلى هذا تقوى رواية من روى «قد ذاب فيه السحر» ولكن هذا اللون من الشعر غير كثير لديه.

وجملة القول في شعره أنه نموذج لشعـر الكتـاب في الرقـة والطلـب للمعاني.

أما رسائله فيبدو فيها التفاوت بحسب العمر والموضوع: فرسالته التي كتبها إلى أبي العلاء المعري وأخيه تُرَاوِحُ بين النثر والشعر بشكلٍ يكاد يكون متساوياً، وهي طريقة تخلّى عنها عندما توفر له النضـج. والموضـوع في الرسالة الأولى مثلاً هو التحـدي بالمعرفـة، ولـذلك لم يهتـمَّ فيهـا بالنَّسـق الأسلوبي قدر استعراضه لمعارفه المختلفة، أما المطارحات الاخوانية فقـد أصبحت قائمة على أسلوبٍ مسجوع من حيث الشكل وعلى تفنن في التعبير

عن المشاعر. وخير ما يظهر براعته في الناحيتين رسالته إلى الشريف أبي طاهر في بازٍ كان يتصيد به وفرَّ منه (رقم: ٨). هنا يمثل فرار البازي الغدرَ من يدِ مَنْ رضع الوفاءَ، وبعد إقامة هذا التناقض يلتفت الكاتب إلى الدرّاج التي ارتاحت نفوسها لذلك الفرار، ممن؟ من الكوكب المنقض على مسارحها، والسهم القاصد إلى مذابحها. وهكذا يفتح الكاتب المجال لتصوير ذلك «الغادر» الذي كان في الوقت نفسه وفياً لضحاياه من الطيور، ثم يلتفت إلى المغدور الوفي الذي سيعدّ للطيور الفرحة شماتةَ ذواتِ ظفر جدد أشدَّ فتكاً. ثم يجد الأعذار لفرار ذلك الذي سماه غادراً، وكلٌّ أعذاره ترجع إلى علو همة صاحبه، وهكذا يتنقل الكاتب في رسم المفارقة بين البازي وصاحبه وموقف الطيور الأخرى منهما.

والحق أن المغربي كان إماماً في الكتابة بين كتاب عصره، ولكن ما وصلنا من رسائله قليل، إذ ضاع منها رسائل كثيرة. ومن رسائله التي ضاعت رسالة كلفه الخليفة القادر بالله كتابتها رداً على فئة من اليهود[1]، وهي رسالة تعرض ثقافة وجدلاً بأكثر مما تعرض أسلوباً فيما أعتقد.

ولا يقل أسلوبه الذاتي في كتبه عن رسائله جزالةَ سبكٍ وروعةَ عبارة، والفرق بين أسلوبه في الحالتين هو اعتماد السجع في الرسائل وعدم اعتماده في كتبه. وهذه قطعة من مقدمة أدب الخواص تصوّر مبلغ الإحكام في ذلك الأسلوب: «وقد عجب المتأملون من عاقل لا يمضي سلطانه على نفسه، وهو يريغ نفاذَ أمره في غيره، والإنسان يُسَفِّه القاصبَ له، ويثرِّبُ على المولع بسبه، ويزنّهُ بالكذب، ويعزوه إلى قول ما لم يعلم، وإلى المؤاخذة على الظنن، وإلى إرسال اليد واللسان قبل اليقين والثلج، ولا يحس أن الداء الذي أضرع خصمه للملامة، وألحجَ عدوّه في التغليظ والمذمّة هو وَهْيُ

(١) اعتاب الكتاب: ٢٠٦.

سلطانِ العقل، وانتقاصُ الجَلَد عن صَرْفِ اللسان وقد اشرأبَّ للقول، وعن حبسه وقد تهيأ للبثّ»[1].

٢ ـ النقد الأدبي:

يعد الوزير المغربي ناقداً للشعر والنثر، منذ الجاهلية حتى عصره. فقد حدثنا كيف كان يختار الشعر: «كنت أختار البارع من أبيات القصيدة، ثم ألقيها جانباً مدة أيام، وأعاود النظر فيها برأي سالم، وباختيار شابّ واع، فأختار من ذلك المختار ما أرى إيراده فيكون إبريزَ نارين»[2]. وهذا التمحيص الشديد في الاختيار كان مقياسه الذوق الذاتي، وقد استعمل الوزير المغربي هذا المقياس كثيراً لا في أدب الخواص وحسب، بل في ذلك النسق من اختياره شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي واختيار نماذج من نثر علي بن عبيدة الريحاني، وهو لا يحكّم رأيه دائماً بل يعتمد أيضاً آراء أهل النقد، فهو يأخذ ما يستحسنونه مثل قول ابن كناسة:

على حينَ أنْ شابت لداتي ولم أَشِبْ ... فمنها لحىً مبيضّةٌ وقرونُ
وناصيتُ رأسَ الأربعين وأقبلتْ ... قساوةُ جنيٍّ الشبابِ تلين

أما هو نفسه فيعد ابن كناسة شاعراً محسناً، وأن له شعراً سائراً مثل قوله:

فيَّ انقباضٌ وحشمةٌ فإذا ... رأيتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسي على سجيّتها ... وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشم[3]

على أنه أحياناً يترك المقاييس النقدية جانباً ويحبُّ الشعر لأنه يوافق

---

(١) أدب الخواص: ٦١.
(٢) أدب الخواص: ٨٤.
(٣) أدب الخواص: ٧٣.

شَجَناً في نفسه، لا لأنه كذلك في حقيقة النقد، ولعل صراحته في ذلك هي التي تؤكد الايمانَ بسلامة ذوقه، فمما أحبَّه وليس في حقيقة النقد مستحقاً للاعجاب قول ابن كناسة في نكبة أبي أيوب المورياني:

لا ترى زاجراً لهمٍّ القلوبِ كالرضى بالموكّلِ المكتوبِ
فاتّقِ الله وارضَ بالقصدِ حظّاً لا تسيلنَّ في سبيل الذنوب
لا يَغُرَّنَّك الذي غرَّ قوماً شربوا من حتوفهم بِذَنوب
طلعت شمسهم عليهم نهاراً وأتتهم نُحُوسُهُمْ بغروب
قد رأيتَ الذي أدالتْ ونالت وقعةُ الدهرِ من أبي أيوب[1]

ومن الكلام «الذي يستحق قضية الحسن عنده» قول الشاعر:

يا سلمَ لا أقري التعذّرَ نازلي والذمُّ ينزلُ ساحةَ المتعذّرِ
ولقد علمتُ إذا الرياح تناوحت أطنابَ بيتك في الزمانِ الأغبر
أني لأبْسُطُ للضيوف تحيّتي وأشبُّ ضوءَ النار للمتنور
وتنالُ بالمال القليل براعتي قُحَماً تضيقُ بها ذراعُ المكثر[2]

ولو شئنا أن نبحث عن الأسباب التي استحق بها هذا الشعر «قضية الحسن» لوجدناها تبدأ بهذا السبك البدوي الذي يرنو إلى نماذج مألوفة في الشعر الجاهلي، ثم يتجلّى الحسن في القيم التي يعبّر عنها الشعر، لا في الشعر نفسه، وهذه قيمة أخلاقية جعلت الناقد لا يستطيع الفصل بين ما هو جميل في ذاته وما هو جميل لأنه يوافق «هوىً أو شجناً أو «قيمة» ترتاحُ إليها نفسه. وإنما أحكم هذا الحكم لأن أبيات هذا الشاعر لا تخرج في مضمونها عن قول الوزير المغربي نفسه (رقم: ٧٧):

فلهامتي بالأريحيةِ سَكْرَةٌ تهتزُّ بي في ثروةٍ وتصعلكِ

(١) أدب الخواص: ٧٤.
(٢) أدب الخواص: ٧٩.

ولعل الوزير كان يرتاح إلى ما يشابه فلسفته في الحياة، وكانت خلاصة فلسفته قوله (رقم: (٩٨):

ولقد بلوتُ الدهر أعجمَ صَرْفَهُ ... فأطاع لي عصيانُهُ وليانُهُ
ووجدتُ عقلَ المرءِ قيمةَ نفسه ... وَبِجِدِّه جدواهُ أو حرمانه
فإذا جفاه المجدُ عيبتْ نفسُهُ ... وإذا جفاه الجَدُّ عيبَ زمانه

إننا لا نملك شواهد كثيرةً على الممارسات النقدية لدى الوزير المغربي، ولكني أعتقد أنها لو وجدت للاحَ ناقدٌ يتردد بين ثلاثة مقاييس متفاوتة: الجمال في العبارة، والقيمة الأخلاقية، والغرابة (أو عدم الذيوع). وحين روى لامرىء القيس قوله: «اسقيا حُجْراً على علاّته» علّق على ذلك بقوله «وإني لأستقبح أن يقول قائلٌ لأبيه «على علاّته» وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً، فلما سمعه أمر الساقي بلطم وجهه وإخراجه...»[1]. إن البحث عن عيون الشعر والنثر قد عوّد الوزير المغربي أن يكون ناقد البيت الجميل، أو ناقد العبارة الجميلة، ولكنه لم يحاول أبداً أن يبصر مدى الجمالِ في القصيدة أو في الرسالة.

٣ ـ إعجاز القرآن:

قد تقدم القول إن من أهداف تأليفه كتاب أدب الخواص الدلالةَ على معجز القرآن لأن التبحر في ألفاظ العرب ومعرفة معادنها وأغراضهم فيها يوصلُ المرءَ إلى أن يعرفَ معجز القرآن معرفةً حسية ذاتية. وهذا في رأي الوزير المغربي هو المنهج الصحيحُ للتوصل إلى إدراك الاعجاز لأنه يتم عن طريق القياس والاستدلال لا عن طريق التقليد لمن يقول ذلك من الفصحاء السابقين. أما الاقتصار على القول بالصرفة ـ كما يعتقد قليل من الناس

(١) بغية الطلب ٣: ٢٩٣.

يذهبون مذهب المعتزلة ـ فإنه لا يفسر حقيقة الاعجاز، وإن كان مقبولاً. وينضمّ الوزير المغربي إلى الفريق الذي يرى أن الإعجاز في نوعية النظم، وأن ذلك مؤيد بالصرفة. وقد كان يدور في ذهن الوزير أن يجرّد كتاباً مفرداً لقضية الاعجاز ولكن يبدو أنه لم يحقق ذلك[1]. وكانت قضية الاعجاز لديه تمثل مدخلاً لامتحان مدى الاطلاع والمعرفة، ولذلك نراه يقول لبعضهم على سبيل المعاياة، «صفْ لنا كيف وقع التحدي بهذا المعجز ليتمّ بوقوعه الاعجاز، وأخبرنا عن صفة التحدي، هل كانت العرب تعرفه أم لا، أم كان شيئاً لم تَجْرِ عادتها به فكان إقصارها عنه، بل لأنه التماسُ ما لم تجرِ المعاملةُ بينهم بمثله. ثم يسأل عن التحدي: هل لُقِيَ بمعارضة بانَ تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضة، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلمون مع تسليمهم ولم يعارضوه»[2] ولا يمكن أن يلقي مثل هذه الأسئلة إلاّ وهو يعرف أجوبة دقيقةً مقنعة لها، ولعلّ في ما كتبه في تفسير القرآن ما يجلّي هذه النواحي.

٤ ـ تفسير القرآن:

كان للوزير المغربي إملاءات عدة في تفسير القرآن العظيم وتأويله[3] وربما جُمِعَتْ في كتاب مفرد، لقول ابن العديم: «وله كتاب في تفسير القرآن أحسنَ فيه على اختصاره»[4]، وقيل إن اسمه «المصابيح في تفسير القرآن»[5] وقيل «خصائص علم القرآن»[6]، ولعلهما أن يكونا كتابين لا كتاباً واحداً. ولم يصلنا شيء في تفسير القرآن للوزير، ولكنا نستطيع أن نتصور مذهبه فيه

(١) أدب الخواص: ٨٣.
(٢) الرسالة الأولى من رسائله في هذا المجموع.
(٣) طبقات الداوودي ١: ١٥٣ ولسان الميزان ٢: ٣٠١ «في تفسير القرآن والاحتجاج في التنزيل».
(٤) بغية الطلب ٥: ١٦.
(٥) أعيان الشيعة ٢٧: ١٨.
(٦) هداية العارفين ١: ٣٠٧.

من حواره مع مطران نصيبين. فعندما ذكر المطران له أن المسلمين يقولون إن لله يدين خَلَقَ بهما آدم، قال الوزير إن يدي الله تعالى هما نعمته وقدرته، وهذا التأويل شبيهٌ بتأويل أهل الاعتزال. وفي موقف آخر قال الوزير: «العلة في قول المسلمين إن لله عينين ويدين ووجهاً وساقين يكشفهما وأنه يأتي في ظُلَلٍ من الغمام هي أن القرآن نَطَقَ بذلك، والمراد فيه غيرُ ظاهر اللفظ، فكلُّ من يحمل ذلك على ظاهره ويعتقد أن لله عينين ويدين ووجهاً. . . الخ، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان وغير ذلك مما يقتضي التجسيمَ والتشبيهَ فهم يلعنونه ويكفرونه. . .»[1]، فمذهبه واضح في رفض كل ما يوحي بالتجسيم والتشبيه. وحين استشهد المطران بقوله تعالى (البقرة: ٥٩) ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون﴾ أجابه الوزير بأن المفسرين اختلفوا في هذه الآية فقال بعضهم: نُسِخَتْ بقوله: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه﴾ (آل عمران: ٧٩) وقال آخرون إن المراد بها هو أنه إنما يستحق اليهود والنصارى والصابئون الأجرَ في الآخرة إذا أسلموا لا إذا كانوا على أديانهم[2]. فكان من ردِّ المطران إن النسخ لا يجوز أن يقع إلا في الأوامر دون غيرها من أقسام الكلام، والأمر على ضربين: فرائض وغير فرائض، والنسخ لا يقع إلا في الفرائض، والفرائض على ضربين: عقلية مثل فرض التوحيد وطاعة الوالدين وصلة الرحم، وسمعية مثل إحلال موضع دون موضع، وتحريم طعام دون طعام. ولا يقع النسخ إلا في الفرائض السمعية. وهذه الآية التي استشهد بها الوزير خبر، والخبرُ لا يقع فيه النسخ، فأما قول من قال إنهم ينالون أجرهم إذا أسلموا فهو خطأ، إذ لو

---

(١) مجالس إيليا: ٤٢.
(٢) مجالس إيليا: ١١٨.

كان المراد كذلك لما كان لذكر اليهود والنصارى والصابئين أي معنى ـ على التخصيص ـ لأن ذلك ينطبق على المجوس والهنود وغيرهم إذا أسلموا. وقد أمعن المطران في الرد مستشهداً بآيات أخرى من القرآن الكريم فلم يجد الوزير ردّاً سوى أن يقول: «إن النصارى المذكورين في القرآن غير نصارى هذا الزمان»، فجاء المطران بردِّه مما جرى عليه واقعُ المسلمين في معاملة النصارى مطبّقين عليهم ما جاء به القرآن من أحكام، وهذا يدل على أن النصارى في عهد الوزير هم النصارى الذين تحدَّث عنهم القرآن. وحين استشهد المطران بقول ابن الباقلاني «اعلم أنَّ النصارى إذا حققنا معهم الكلام في قولهم إن الله جوهر ذو ثلاثة أقانيم لم يحصل بيننا وبينهم خلاف إلا في الاسم...» قال الوزير: «أما قولُ ابن الباقلاني فتقليدٌ لم نقبله»[1].

ونقل عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ إن المعنى: إذا عزمتم على الصلاة وهممتم، واستشهد على ذلك ببيتي شعر، فالقيام هنا قيامُ عزمٍ لا قيام جسم[2].

وأكبر الظن أنه توقف في تفسيره في مواضع مختلفة لتوجيه بعض الآيات مثل «وغرابيب سود» والسود هي الغرابيب، فما الغاية من ذكرها؟ ولو قال القائل إن ذلك تأكيد خرج عن المألوف من مذهب العرب، لأن العرب تقول: أسود غربيب، فتقدم ذكر السواد. كذلك ما الحكمة في قولهم: «من فوقهم» في وصف السقف والسقف لا يكون إلا فوق في قوله تعالى ﴿فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾ ومثل قوله تعالى ﴿إلهين اثنين﴾ والعدد في إلهين واضح. وما التناسب بين الأخذ الشديد والرحمة في مثل قوله تعالى ﴿أو يأخذهم على تخوّف فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾[3]. ونحن لا نعرف ما موقف

(١) مجالس إيليا ١١٨ ـ ١٢٢.
(٢) أعيان الشيعة ٢٧: ١٨ (نقلاً عن القطب الراوندي في فقه القرآن).
(٣) الرسالة الأولى في هذا المجموع.

المغربي من هذه القضايا وأشباهها ولا ما هي تفسيراته، ولكنا نعتقد أنه أولى هذا الجانب عنايةً خاصةً في تفسيره.

ومجمل رأيه في بلاغة القرآن وضعه على النحو التالي: «رجحان بلاغة القرآن إنما هو بلوغ المعنى الجليّ المستوعب إلى النفس باللفظ الوجيز، وإنما يكون الاسهاب البليغ في كلام البشر الذين لا يتناولون تلك الرتبة العالية من البلاغة»[1] ولو مضينا مع هذا الرأي إلى نهايته لاستنتجنا أن الوزير المغربي ينكر وجودَ الاسهاب في القرآن.

٥ ـ المنطق:

للوزير موقف من المنطق ضعيف يُفضي إلى الاضطراب، فهو يزعم أن المسلمين يرون أن درس علم المنطق وغيره من العلوم الفلسفية كفر وإلحاد، حتى إنهم يعتقدون فيمن يطلع عليه أنه زنديق، وهذا يعني التحريم دون تردد. ثم يقول إن المسلمين لم يمنعوا من درس المنطق والعلوم العقلية، ولا يعتقدون أنها تضادّ العقل وإنما منعوا منها لأن الاشتغال بها يقطع عن النظر في العلوم العقلية. وهذا الرأي الثاني يجعل طلب المنطق في حيز المكروه، وبين المحرم والمكروه فرق، أي لو أن قائلاً قال إنني أدرس المنطق ولا يمنعني ذلك من النظر في العلوم الشرعية، لكان ذلك مقبولاً، ولم يعد طالب المنطق كافراً أو زنديقاً.

والقول بأن الاشتغال بالمنطق والعلوم العقلية يقطع عن النظر في العلوم الشرعية قولٌ واضحُ العيب، ولذلك كان من السهل على مطران نصيبين أن يردَّ عليه بقوله: وكذلك الاشتغال بجمع المال وطلبِ الرياسة والمنازلِ العالية والحرصُ بالأكل والشرب والجماع يقطعُ عن النظر في العلوم الشرعية

(١) المصدر نفسه.

أكثر مما يقطعه الاشتغال بالعلوم العقلية[1].

٦ ـ الطب :

في سياسة المرء (السائس) لبدنه آراء كثيرة حصَّلها المغربي من ثقافته الطبية ومن تجربته الذاتية ومن نصائح طبيبه «صاعد بن بشر البغدادي» له. وتتركز هذه الثقافة والتجربة حول الطعام والشراب، فالاستمراء أساسٌ في الفائدة المرجوة من الطعام. وعلى هذا لا بدّ أن يكون الغذاء لوناً أو لونين متجانسين، لأنّ عدم التجانس يؤدي إلى ضعف الاستمراء، ومع ذلك كله يجب عليه أن يحذر الكظة. وهذا هو رأي صاعد الذي يقول «استعمل الرياضةَ اللائقةَ بك ولا تكظ المعدة، وقد أمنتَ الأمراضَ كلها».

أما الشراب فيجب على السلطان أن لا يبلغ فيه حدَّ السكر، بل يشرب في أول المجلس الكميةَ التي يتحملها، ثم يتعلل بما يملأُ وقتَ المنادمة والمؤانسة. ويجب ألا يشرب باستمرار، بل يخصص لشربه يوماً معيناً. ومن الغريب أن المغربي يوصي الملك أو السائس بالسهر، والتعويض عن ذلك بنوم النهار. ويرى أن الحمام ألزم للملك منه للرعية، لأن الرعية تنفي الفضولَ عنها بالحركة، والملك قليل الحركة فكأنَّ في الحمام تعويضاً عن ذلك. وعليه أن يدخل البيت الثالث من الحمام بقدر احتماله، ثم يصبّ على نفسه ماءً فاتراً، ليجففَ المسام، ولا يجوز تناول الأكل والشرب مباشرةً بعد الحمام، وإنما يستحسن النوم بعده.

فإذا راعى الوصايا المتعلقة بالطعام والشراب والاستحمام كان تتويج ذلك اهتمامه بالرياضة، وأصلحُ أنواعها للملوك اللعبُ بالصولجان[2].

وهو يعرف من ثقافته الطبية رأيَ جالينوس في أنَّ قوى النفس تابعةٌ

(١) مجالس إيليا: ٣٧٦.
(٢) أنظر الرسالة رقم: ١٦.

لمزاج البدن، إلا أنه وجد أن مزاج البدن تابعٌ لقوى النفس أحياناً[1].

٧ ـ السياسة :

أراد الوزير المغربي في رسمه حدودَ السياسة أن يستمدَّ قواعدها من الحياة الواقعية، فهو لا يفرض حكماً أخلاقياً إلا إذا كان ذلك ممكناً. وأوضحُ مثلٍ على ذلك تقديره الشُّرْبَ للملك، فلو أنه نظر إلى الأمر من زاويته المثالية، لنصح الملكَ بأن لا يشربَ، ولكنه كان يعاشر ملوكاً يشربون، فهو يضع لهم القواعد التي تضبط سيطرة الشراب عليهم. وكذلك هو موقفه من اللذات فهي في رأيه يمكن أن تُسْرَقَ من زمان الشغل، ولكن اللذة الحقيقية للسائس هي: رتبةُ العز ونفاذُ الأمور أو رضى سلطان إن كان فوقه سلطان، فاللذات التي يتصورها في السياسة، ربما عُدَّتْ معنوية ولكنها في الوقت نفسه حصيلةُ التصرّف العمليِّ الحصيف.

وفيما عدا ذلك لا يخرج المغربي في آرائه السياسية عن مستوى غيره ممن كتبوا في هذا الموضوع، فهو يوصي بأن تكون الطاعة للملك قائمةً على المحبة لا على الرهبة، ثم يقول إن رأسَ السياسة إنجازُ الوعد والوعيد، ولو طبقنا القاعدة الثانية إلى نهايتها لتعارضَتْ مع السابقة، فإن تطبيق الوعيد ـ حتى في حدود العدل ـ لا يَخْلُقُ طاعةَ محبةٍ، وإنما يبعث الرهبة. فأما الفضائل من علم وعفة وحلم وسخاء وشجاعة فهي القواعد الخلقية المألوفة، ولكن اتصال كلٍّ منها بالسائس قد يُحَدِّد معناها تحديداً ذا خصوصية متميزة. فكلنا يعرف أن السخاء هو بذلُ المال والجاه، ولكن السخاء لدى السائس في نظر الوزير المغربي هو «أن لا يَمْطُلَ حقاً ولا يخيِّب آملاً، ولا يؤيس قاصداً». ومن اللافت للنظر أن يفرد ابن المغربي السخاء لابن السبيل خاصة، فهذه

---

(١) أدب الخواص: ٦٩.

لفتة مستوحاة من التنقل والضرب في الأرض. كذلك هو مفهوم الشجاعة لديه فإنه يحملُ معنىً خاصاً غيرَ المعنى الذي يعرفه الناس من الشجاعة، وذلك أن الشجاعة في السائس هي «أن يُشْعِرَ قلبه أن لا يجوز أن يكون الجبانُ ضابطاً لأمره ولا حارساً لرعيته . . . وأن يجعل وكده كله جمع الرجال والأسلحة والخيل والعدد» ـ وهذه كلها آلة الشجاعة وليست الشجاعةَ نفسها.

إن قسمة السياسة إلى ثلاثة فروع: سياسة السلطان لنفسه، وسياسة الخاصة، وسياسة العامة، لهي قسمةٌ من باب التسهيل والايجاز معاً، وإلا فإن الحديث في السياسة متسع، والفروع تزيد كثيراً على ثلاثة، فمن ذلك مثلاً سياسة الخاصة للعامة، وسياسة السلطان للاثنتين، من غير فصل بينهما حين تشترك المصالح وتتحد. كما أن توصّل السلطان إلى تألف الخاصة بالإحسان إليهم وبسط آمالهم بالعفو، وعدم الاستقصاء عليهم، وتأمينهم إسراعه إلى قبول كثير من ثقل الأصحاب، أمورٌ تصلح لهم ولغيرهم.

وقد وضح أن الخاصة في مفهوم الوزير المغربي هم أصحاب الوظائف في الدولة كالكاتب والحاجب والجابي وقائد الجيش وصاحب الشرطة والحاكم والمحتسب والسفير، وهذه مؤسسات الدولة، ولا بد أن يبحث في كل مؤسسة، فأما الاكتفاء بالقول إن الحاجب يجب أن يكون طَلْقَ الوجه، وصاحب الشرطة يجب أن يكون مهيبَ المنظر عبوساً لهو تبسيطٌ شديد لما من حقه أن يُبْحَثَ بالتفصيل. ولا يزال المغربيّ يرى أننا إذا جعلنا السلطان جانباً فالناس فئتان، موظفون وغير موظفين (أو خاصة وعامة) ولكن ماذا يحدث حين يتبادل هؤلاء أدوارهم فينتقل الخاصيّ ليعود من العامة، وينتقل العامي ليصبح من فئة الخاصة؟

والعامة أقسام أيضاً بحسب مهنهم وأهميتها في العمران، كما أنهم قسمان كبيران بالنسبة للسلطان، فمنهم من يُسْمَحُ لهم بالسعي إلى بابه،

ومنهم من لا يُسْتَحَبُّ لهم ذلك لأن فيه فساداً قد شرحه أردشير في عهده. ومن هنا يتبين تأثر الوزير المغربي ببعض آراء السياسة الفارسية، وهو بشيء من الالتفاف حول الموضوع يلمحُ إلى التثبيت الطبقي وعدم تمكين الفرد من الانتقال من طبقة إلى أخرى، وذلك هو الأمر الذي جعله أبو الحسن العامري السمةَ الفارقة للمفهوم الفارسي بالمقارنة بالنظام الإسلامي الذي ينكر هذه الحتمية الجائرة ولا يعترف بها.

وعلى مقتضى تفكير المغربي يستطيع السلطان أن يصنع خاصة جديدة بعد خاصة الموظفين، من ذوي الأخطار والعلماء، أما كيف تكون العلاقات بين الخاصة الجديدة والأخرى التقليدية فلم يُعِرْهُ الوزير اهتماماً.

وقد خلط الوزير المغربي عند الحديث عن سياسة العامة بين أمور لا تدخل في هذا الموضوع، فبدلاً من أن يتحدث عن الرّشا في باب فساد الخاصة، تحدَّث عنها وهو يعالج سياسة العامة. وبدلاً من أن يفرد للسياسة الخارجية وللعلاقات بالدول والممالك الأخرى باباً مستقلاً تحدَّث عن هذه الناحية تحت عنوان سياسة العامة. وكذلك فعل في حديثه عن ضبط المدن والطرق والمياه والسيطرة على الأجانب الداخلين إلى مملكته، وضبط الأخبار عما يجري في الداخل وما يجري في الخارج. وبذلك يبين مدى الضيق في القسمة الثلاثية التي اعتمدها المغربي.

أما خاتمة الرسالة وهي وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان فإن إيرادها هنا يثير العجب، فهي جزئية خاصة تتعلق بمسير الجيش إلى الحرب، وهي تدخل ضمن السياسة العسكرية التي مرَّ بها الوزير عاجلاً دون أن يلتفت إلى أبعادها المختلفة. واختيار أبي بكر بالذات قد يؤكد أن الوزير المغربي كان يخدم بهذه الرسالة أحدَ الأمراء السنيين، ولعله كتبها بعيد ما أثاره القادر بالله حوله من شبهات.

٤

مـا تبقى من شعره
مرتباً على حروف المعجم

- ١ -

١ - قال الطبيبُ وقد تأمّل عِلّتي ... هذا الفتى أَوْدَتْ به الصفراءُ
٢ - فعجبتُ منه وقد أصاب وما دَرَى ... لفظاً ومعنىً والمرادُ خطاء[١]

البيتان ١، ٢ في بغية الطلب ٩: ٢٥٣ والأفضليات ١: ١٧٨ وهما في معجم الأدباء ١٥: ١١٩ لعلي بن هارون المنجم وهما له في نشوار المحاضرة ٢: ٧١، ٨: ٢٦٤.

- ٢ -

١ - إذا ما الأمورُ اضطربنَ اعتلى ... سفيهٌ تُضَامُ العلا باعتلائِهْ
٢ - كذا الماءُ إن حَرَّكَتْهُ يدٌ[٢] ... طفا عَكَرٌ راسبٌ في إنائه

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠: ٨٦ - ٨٧ وتتمة اليتيمة ١: ٢٥ وغرر الخصائص: ٨٠ ونكت الوزراء: ٥٧ ب وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٤.

---

(١) معجم: قولاً وظاهر ما أراد خطاء؛ الأفضليات: لفظاً ومعنى ما أراد.
(٢) التتمة: كذاك إذا الماء حركته.

- ٣ -

وقال في الحاكم

١ - [أنت] أعطيتني كتاباً إلى رضوا   ن حتـى أُجـزتُ خيرَ الجزاءِ
٢ - وسقتني يداك من عَلَلِ الكو   ثرِ كأساً شَفَتْ غليلَ ظمائي
٣ - أتمنَّـى لو راسلَتْـكَ الأعادي   ببليغٍ يُوفـي علـى البلغاء
٤ - لتـرى موقفـي هنـاك، وسهلُ   دون شأوي وواصـلُ بنُ عطاءِ

الأبيات ١ - ٤ في الدرة المضية ٦ : ٣١٢.

- ٤ -

١ - الليلُ ميدانُ الهوى   والـكأسُ مجمـوعُ الأرَبْ
٢ - يا رُبَّ ليلٍ قد قَصَرْ   نا طولَـهُ فيمـا نُحِبّ
٣ - لمـا هزرنـاه تلا   قَى طرفـاه بالطرب
٤ - يلعبُ في الخسران والط   ـاعـةِ ساعـاتِ اللعب
٥ - تحـكي ثريَّاهُ لِمَنْ   يرنـو إليهـا من كَثَبْ
٦ - خريطـةٌ من أبيض الد   يبـاجِ ما فيهـا عذب
٧ - والدَّبـرانِ خلْفَها   كفتـحِ بركارِ ذَهَبْ
٨ - وهقعـةُ الجـوِّ كفسـ   ـطـاطِ عمـودٍ منتصب
٩ - ومنـكبٌ كوجـهِ مبـ   ـشـورٍ للحـظِ المرتقب
١٠ - وهَنْعَـةٌ كأنَّها   قوسٌ لنـدّافٍ عَطَبْ[1]
١١ - ثـم الـذراعُ شمعةٌ   تشعـل رأسـاً وذنب
١٢ - وَزُبْـرَةٌ كأنها   رُخّـانِ في خَشْـتٍ ذَرِبْ

---

(١) العطب : القطن.

١٣ ـ ونشرةٌ كَوَسْطِ مقـــــلاعٍ كـبيرٍ منتخب
١٤ ـ والطـرفُ طَرْفُ أسدٍ في عينـه. كُحْـلُ الغضب
١٥ ـ وجبهـةٌ باديةٌ كمنبـرٍ لمختطب
١٦ ـ وَصرفَـةٌ تخالها في الجـوِّ مسمـاراً ضُرب
١٧ ـ وتحســبُ العـوَّاءَ في آفاقهـا لامـاً كُتب
١٨ ـ ثـم السمـاكُ مفرداً كَغُـرَّةِ الطِّـرف الأَقَبّ(١)
١٩ ـ كـأنه والغفـرُ ميـــــزان إمـامٍ يَحْتَسِبْ
٢٠ ـ يدنـو إليه عرشُهُ يريكَ تابوتـاً نُصب
٢١ ـ ثـم الزُّبانَـى عاشقا ن ذا إلـى هذاك صب
٢٢ ـ تكالمـا من بُعُدٍ وحـاذرا من مرتقب
٢٣ ـ ونـظـم الإكليل والقلـــــب جـوارٍ تـقتـرب
٢٤ ـ كمشـعلين رُفِعَا مختلفين في النصب
٢٥ ـ وشولـةٌ تخبـر عن قُرْبِ الصبـاحِ بالعجب
٢٦ ـ كجانـب من عَقْـدِ أُر جوحـةِ حَبْـلٍ مضطرب
٢٧ ـ وبعدهـا نعائمٌ مختلفـاتٌ في الطلب
٢٨ ـ فهـذه صادرةٌ . وهـذه تبغـي القَرَب
٢٩ ـ كـمضـجعـي غـانيتيـــــن يلعبـان في الترب
٣٠ ـ فغـادرا من بَلَدِ الــــحَلْيِ كـجمرٍ مـلتهب
٣١ ـ وبلـدةٌ مثـل شِنًا نٍ فارغٍ لمـا يجب
٣٢ ـ كأنهـا صدرٌ سلا من بعـد ما كان أحب
٣٣ ـ وجـاء سعـدٌ ذابحٌ وَبُلَـعٌ علـى العَقِبْ
٣٤ ـ كأنْ ذا قوسٌ وذا سهـمٌ عن القـوسِ ذهب

---

(١) الطرف: الفرس؛ الأقب: الضامر.

٣٥ ـ وذو السعـودِ ثابتٌ عن ذابـحٍ إذا غرب
٣٦ ـ وبعـد ذو أخبيةٍ خُنْسٍ قصيراتِ الطنب
٣٧ ـ كجؤجـؤ البطـةِ مع منقارِهَـا إذا انتصب
٣٨ ـ وأسفَـرَ الفرغـان عن أربعـةٍ من الشهب
٣٩ ـ كأنهـا أركانُ قصـــــرٍ عِـزُّهُـنَّ قد خرب
٤٠ ـ والحـوتُ يطفـو فإذا ما طفـح الفجـرُ رَسَبْ
٤١ ـ والشَّرَطَـانِ الصولجا نُ عنـد لعَّـابٍ دَرِبْ
٤٢ ـ ثم البُـطَيْنُ بعده مثـلُ أثافـيٍّ اللهب
٤٣ ـ كأنمـا الحـادي له في صحـةِ التقـديرِ أب
٤٤ ـ تجزعهـا مَجَرَّةٌ من قُطُـبٍ إلـى قُطُب
٤٥ ـ كأنهـا جسـرٌ على دجلـةَ مبيَضٌ الخشب
٤٦ ـ أعـطيتُ ريعـانَ الصبا من المجـونِ ما أحب
٤٧ ـ ثم رجعـتُ سائلاً لذي المعالـي والحجب
٤٨ ـ لمـن يجيب من دَعَا فضـلاً ويعطـي من طلب
٤٩ ـ إذا اسـتنيلَ لم يَهَبْ من الـكثيرِ ما يهب
٥٠ ـ سألتـه مغفرةً لمـا اجتنيتُ في الحقب
٥١ ـ وكنـتُ جهـدي شرَّ عبدٍ فليكنْ لي خيرَ ربّ

الأبيات ١ ـ ٥١ في سرور النفس: ١٦٢.

ـ ٥ ـ

وقال

١ ـ رأت الغزالةُ في السماء غزالةً في الأرض يبهرُ حُسْنُها الألبابا
٢ ـ فاستحسنتها في النقابِ وقد بَدَتْ وقتاً فصيرتِ الكسوفَ نقابا

البيتان ١، ٢ في سرور النفس: ١٣٥.

- ٦ -

١ - وطنبورٍ مليحِ الشكلِ يحكي بنغمتِه الفصيحةِ عندليبا
٢ - روى لما ذَوَى نغماً فِصَاحاً حواها في تقلُّبه قضيبا
٣ - كذا من عاشر العلماءَ طفلاً يكون إذا نشا شيخاً أديبا

الأبيات ١ - ٣ في طراز المجالس: ٦٦.

- ٧ -

١ - تمنَّع أن رأى زَغَبا بعارضِهِ قد التهبا
٢ - وتاه عليَّ أن أَبْدَتْ عقاربُ صُدْغِهِ ذنبا
٣ - وقدَّر أنه سَبَبٌ يقطِّعُ بيننا النسبا
٤ - ولا والله لا آلو لحقٍّ عنده طلبا
٥ - ولا خلَّيتُ في كفّيه قلباً طال ما انتهبا
٦ - أما عيناهُ عيناهُ اللتان أباحتا الرِّيبا

الأبيات ١ - ٦ في الذخيرة ٤ :٥٠٨.

- ٨ -

وقال في قويق، قال ابن العديم: قرأتها في ديوان شعره

١ - أما قويقٌ فلا عَدَتْهُ مُزْنَةٌ من خِدْرِهَا بَرَزَ الغمامُ الصيِّبُ
٢ - نهرٌ لأبناءِ الصبابةِ مَعْشَقٌ فيه وللصادي الملوَّح مَشْرَبُ
٣ - لا زال يدرمُ تحت وَسْقِ مكلّلٍ عَمَمٍ يُقَدِّحُ منكبيه وينكب
٤ - مما تمناهُ الربيعُ لريّه أيامَ ظِمءٍ رياضِهِ لا تقرب
٥ - فردُ الربابِ يقولُ شائمُ برقهِ من أين رُفِّعَ ذا الغريقُ المهدب
٦ - والغيثُ في كِلَلِ السحابِ كأنه ملكٌ بقاصيةِ الرواقِ مُحَجَّب
٧ - صَخِبُ الرعودِ وإنما هي ألسنٌ فأمرُهُنَّ اللوذعيُّ المسهب

٨ ـ راعي الضحى في حين غِرَّةِ أَمْنِهِ فسناه مخطوفُ الإضاءةِ أكهب
٩ ـ جذلان إن هتكَ اللثامَ بدا له خدٌّ بجاديٌّ البوارقِ مُذْهَب
١٠ ـ والأرضُ حاسرةٌ تودُّ لو أنها مما يحبّرهُ الربيعُ تَجَلْبَبُ

الأبيات ١ ـ ١٠ في بغية الطلب (آيا صوفيا: ٣٠٣٦): ٣٥٤.

ـ ٩ ـ

وقال

١ ـ ولما احتوى بدرَ الدجى صحنُ خدِّهِ تحيَّر حتى ما دَرَى أين يذهبُ
٢ ـ تبلبلَ لما أن توسَّطَ خدَّهُ وما زال من بدرِ الدجى يتعجَّبُ
٣ ـ كأنّ انعطافَ الصُّدْغِ لامٌ أمالها أديبٌ يجيدُ الخطَّ أيّانَ يكتب

الأبيات ١ ـ ٣ في الذخيرة ٤: ٥١٠، والبيتان ١، ٣ في الشريشي ٥: ٢٢٣.

ـ ١٠ ـ

وقال

١ ـ دَنِفٌ بحمصَ وبالعراقِ طبيبُهُ يُضْنِيهِ عنه بعادُهُ ويذيبُهُ[١]
٢ ـ ما ناله إلاّ الذي هو أهلُهُ إذ غاب عن بلدٍ وفيه حبيبه
٣ ـ لزم السهادَ تحيُّراً وتلدُّداً وتأسّفاً إذ أوبقته ذنوبه
٤ ـ زعم الفراقَ دعا به فأجابه ونعمْ دعاه فَلِمْ أرادَ يُجيبه[٢]

الأبيات ١ ـ ٤ في الذخيرة ٤: ٥٠٩ والشريشي ٣: ١٢٠ ونكت الوزراء: ٥٧/ أ.

---

(١) الشريشي: دنف بمصر. . . طول بعاده.
(٢) الشريشي: فلا أراه.

- ١١ -

وقال

١ - الدهــرُ سَهْــلٌ وصعبُ   والعيشُ مُرٌّ وعذبُ
٢ - فاكســبْ بمــالك حمداً   فليس كالحمــد كسب
٣ - ومــا يدومُ سرورٌ   فاختــم وطينُــكَ رَطْبُ[1]

الأبيات ١ - ٣ في ياقــوت ١٠ : ٨٨ والمــرآة ١٢ : ٤٨/ أ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٦٦ وتهـذيب ابن عساكر ٤ : ٣١٠ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٢.

- ١٢ -

وقال

١ - سأعرضُ كلَّ منزلةٍ   تعـرَّض دونهـا العطـبُ
٢ - فإن أسلمْ رجعتُ وقد   ظفـرتُ وأُنْجِـحَ الطلب
٣ - وإن أعطبْ فلا عجبٌ   لكلٍّ منيةٍ سبب

الأبيات ١ - ٣ في ياقــوت ١٠ : ٨٧ وغــرر الخصائص : ٩ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٤.

- ١٣ -

وقال

١ - ولما دعـوتُ الـكأس تؤنسُ وحشتي
لبعــدك زادتنــي اشتياقــاً إلــى القربِ
٢ - ومالــت بأعطافــي لهــا أريحيّةٌ
فقربُــكَ أحَلــى من جَناهــا إلــى القلب

---

(١) ابن عساكر: وطيبك؛ ياقوت وابن عســاكر: فاغنـم وقلبـك (ابـن عساكر: وطيبك).

٣ - فأنــت مزاجُ العيش إن كان صافياً
وأنــت المعير الصّفــوَ في كَدَرِ الشرب

الأبيات ١ - ٣ في الذخيرة ٤ : ٥١٢.

- ١٤ -

وقال

١ - يا من غدا جبلُ الجوديِّ يحجبُهُ   ليس التذكُر عن قلبي بمحجوبِ
٢ - علَّمتني الحزمَ لكن بعد موجعةٍ   إن المصائبَ أثمانُ التجاريب

البيتان ١، ٢ في لباب الآداب : ٣٢٧.

- ١٥ -

وقال يتشوق إلى حلب

١ - يا صاحبــيَّ إذا أعياكمــا سَقَمي
فلقّيانــي نسيمَ الــريحِ من حَلَبِ
٢ - من الـديارِ التــي كان الصِّبــا وَطَري
فيهــا وكان الهــوى العــذريُّ من أربي

البيتان ١، ٢ في الدمية ١ : ٩٦.

- ١٦ -

وقال في حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح

١ - أمّا وقد خيمتُ وَسْطَ الغابِ   فليقسُــوَنَّ علــى الزمــانِ عتابي
٢ - يترنَّم الفولاذُ دون مُخَيّمي   وتَزَعْــزَعُ الخرصــانُ دون قبابي
٣ - وإذا بنيتُ على الثنيَّةِ خيمةً   شُدَّتْ إلــى كِســرِ القنــا أطنابي
٤ - وتقوم دوني فتيةٌ من طيِّءٍ   لم تلتبس أثوابُهــمْ بالعاب
٥ - يتناثـرون علـى الصـريخِ كأنهم   يُدْعَــوْنَ نحــو غنائــمٍ ونهاب

٦ ـ من كلِّ أهرتَ يرتمي حملاقُهُ | بالجمـرِ يومَ تسـايُفٍ وضراب
٧ ـ يهديهم حسَّانُ يحملُ بزَّهُ | جرداءُ تُعْلِيهِ جنـاحَ عقاب
٨ ـ يجري الحياءُ على أَسِرَّةِ وجهه | جَرْيَ الفرنـدِ بصـارمٍ قَضَّاب
٩ ـ كَرَمٌ يشقُّ على التلادِ وعزمَةٌ | يغتـالُ بادِرُهَـا الهزبـرَ الضابي
١٠ ـ ولقد نظرتُ إليك يا ابنَ مفرِّجٍ | في منظـرٍ ملءِ الزمـانِ عجاب
١١ ـ والموتُ ملتفُّ الذوائبِ بالقنا | والحـربُ سافـرةٌ بغيرِ نقاب
١٢ ـ فرأيتُ وجهكَ مثل سيفك ضاحكاً | والذعـرُ يُلْبِسُ أوجهـاً بتراب
١٣ ـ ورأيت بيتَكَ للضيوفِ ممهَّداً | فسِيحَ الظـلالِ مرفَّـع الأبوابِ
١٤ ـ يا طيءَ الخيراتِ بين خلالكم | أمـنُ الشـريدِ وهمَّـةُ الطلاب
١٥ ـ سُمِكَتْ خيامُكُم بأسنمةِ الربى | مرفوعـةً للطـارقِ المنتاب
١٦ ـ وتدلُّ ضيفَكم عليكم أنؤُرٌ | شُبَّـتْ بأجـذالٍ قُهِـرْنَ صعاب
١٧ ـ متبرجاتٌ باليَفَاعِ وبعضهم | بالجـزع يَكْفـرُ ضَوْءَهُ بحجاب
١٨ ـ كلأتكمُ ممن يعادي هيبةٌ | أغنتـكمُ عن رِقْبـةٍ وجناب
١٩ ـ فيسير جيشكمُ بغيرِ طليعةٍ | ويبيتُ حيكمُ بغيرِ كلاب
٢٠ ـ تتهيبون وليس فيكم هائبٌ | وَتَوثُّبُـونَ علـى الـردى الوثاب
٢١ ـ ولكم إذا اختصم الوشيجُ لباقةٌ | بالطعـن فوق لباقـةِ الكتاب
٢٢ ـ فالرمحُ ما لم ترسلوه أخطلٌ | والسيفُ ما لم تُعْملـوه ناب
٢٣ ـ يا معنُ قد أقررتمُ عينَ العلا | بي مذ وصلـتُ بحبلـكم أسبابي
٢٤ ـ جاورتكم فملأتمُ عيني الكرى | وجوانحـي بغرائـبِ الاطراب
٢٥ ـ من بعدِ ذعرٍ كان أحفزَ أضلعي | حتـى لضـاقَ به علـيَّ إهابي
٢٦ ـ ووجدتُ جارَ أبي النَّدى متحكماً | حُكْمَ العـزيزِ علـى الـذليلِ الكابي
٢٧ ـ فليهنه مِنَنٌ على متنزِّهٍ | لسـوى مواهـبِ ذي المعـارجِ آبي
٢٨ ـ قد كان من حُكْمِ الصنائعِ شامساً | فاقتـاده بصنيعـةٍ من عاب
٢٩ ـ فلأنظمنَّ له عقودَ محامدٍ | تبقـى جواهرهـا علـى الأحقاب

٣٠ ـ لا جاد غَيْرَكُمُ الربيعُ ولا مَرَتْ غُزْرُ اللقاحِ لغيركم بِجِلابِ
٣١ ـ أنا ذاكرُ الرجل المندد ذكره كالطَّوْدِ حُلِّيَ جيده بشهاب
٣٢ ـ ولقد رجوتُ ولليالي دولةٌ أني أجازيكم بخيرِ ثواب

الأبيات ١ ـ ٣٢ في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي: ٦٢ ـ ٦٣.

ـ ١٧ ـ

وقال وقد لسبت العقرب جارية كان يهواها

١ ـ كم تستحمُّ العينُ فيكِ بمائِهَا حتى كأنَّ بها جنونَ المذهبِ
٢ ـ إن كان نالكِ مؤلمٌ من عقربٍ فالبدرُ ممتحَنٌ ببرجِ العقرب

البيتان ١، ٢ في الأفضليات: ٢٨٠.

ـ ١٨ ـ

وقال

١ ـ كتب المشيبُ سجلاًّ أمـ ـنٍ للعيون وللرقيبِ
٢ ـ فليعرفنَّ به الأحبَّـ ـةُ حُسْنَ عهدكَ بالمغيب
٣ ـ أفليس أولُ وَصْلِه من يومِ هجرانِ الحبيب
٤ ـ يا ويحَ مسكةِ عارضٍ خُضِبَتْ بكافورِ المشيب
٥ ـ وأَحَالَ بردُ مزاجِهِ نارَ الصبا بعدَ اللهيب

الأبيات ١ ـ ٥ في تاريخ المسبحي: ٢٣٣/ أ ـ ٢٣٣ ب.

ـ ١٩ ـ

وقال في المروحة

١ ـ ما فيك من دَفْعِ كَرْبِ عن هائم القلب صبٍّ
٢ ـ فمنك رَوْحَةُ روحي فمن يُرَوِّح قلبي

البيتان ١، ٢ في نكت الوزراء: ٥٧/ أ.

- ٢٠ -

وقال في كسوف الشمس

١ ـ قالوا كسوفُ الشمسِ مقتربٌ قلتُ ادخرتُ لدفعِ نائبها
٢ ـ ثِقَتي بكاسِفِها وكاشفها وبفضلِ ماحيها وكاسبها
٣ ـ من لو يشاءُ أعادَ مشرقَها متبسّماً لكَ من مغاربها
٤ ـ هي شعلةٌ من نوره فإذا ما شاءَ أظلم أو أضاءَ بها

الأبيات ١ ـ ٤ في الذخيرة ٤ : ٥٠٩.

- ٢١ -

وقال

١ ـ حبيبٌ ملكتُ الصبرَ بعد فراقِهِ
على أنني عُلِّقْتُهُ وأَلِفْتُهُ
٢ ـ محا حُسْنُ يأسي شَخْصَهُ من تذكّري[1]
فلو أنني لاقيتُهُ ما عرفته

البيتان ١، ٢ في الذخيرة ٤ : ٥١٢ وتاريخ المسبحي : ٢٣٤/أ وأدب الخواص : ٧٥ وتتمة اليتيمة ١ : ٢٤ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٠.

- ٢٢ -

وله في غلام نصراني

١ ـ رغبتُ في مِلَّةِ عيسى وما يخيبُ من يرغبُ في مِلَّتِهْ
٢ ـ رغّبني في دينه شادنٌ رأيته يخطرُ من بِيعَتِه

(١) الذخيرة والتتمة : من تفكري.

٣ ـ صُنْـعُ حكيمٍ ما أرى أنه　　يسلِّـطُ النـار علـى حكمته
٤ ـ إن كان ذا من ساكني نارِهِ　　فنـارهُ أطيبُ مـن جنتـه

الأبيات ١ ـ ٤ في الذخيرة ٤ : ٥١٣.

ـ ٢٣ ـ

وقال في غلام حلق شعره

١ ـ حلقـوا شعـره ليكسـوه قُبْحَا　　غيرةً منهـم عليه وَشُحَّا
٢ ـ كان صبحـاً عليه ليلٌ بهيمٌ[1]　　فمحـوا ليلَـهُ وأبقـوه صبحا

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠ : ٨٦ والذخيرة ١ : ٨٩٩، ٢ : ٢٣٠ وابـن خلـكان ٢ : ١٧٤ والشريشـي ١ : ٤٣١ ـ ٤٣٢ (دون نسبـة) والمسلك السهـل : ٤٦٤ والوافي ١٢ : ٤٤٥ وروضات الجنات : ٢٤٠ والوافي في نظم القوافـي : ١٤٨ (للمـرادي) وكنـاش الامبروزيانـا (١١٩) الورقـة : ٩/أ وأعيان الشيعة ٢٧ : ١٩.

ـ ٢٤ ـ

وقال

١ ـ لو لم أَسُمْكَ الوصلَ إلاّ لأنَّهُ　　أمينٌ علـى سرِّ المحـبِّ شحيحُ
٢ ـ يسرُّ قلوبَ العاشقين فلا ترى　　عليهـم أمـاراتِ الفـراقِ تلوح
٣ ـ ولم أرَ مثلَ الهجر للسرِّ هاتكاً　　يعلّـم جفـنَ العينِ كيف ينوح

الأبيات ١ ـ ٣ في تاريخ المسبحي : ٢٣٤/ أ.

---

(١) الروضات والكناش : كان قبل الحلاق (الجلاء) ليلاً وصبحا.

- ٢٥ -

وقال في إلفه أيضاً يرثيه، وقد كتب إليه قبل وفاته رقعة يستودعه فيها العهد وأنفذ معها إزاراً كان كثير الالتحاف به

١ - تـركتُ بشـطِّ النيلِ لي سَكَنـاً فردا
حبسـتُ عليه الدمـعَ أن يطـأَ الخدا

٢ - غـزالٌ طواه المـوتُ من بعـد هجرةٍ
أطعنـا فلا كنّـا بهـا الأسـدَ الوردا

٣ - فسـقياً لمهجـورِ الفِنـاءِ كأنني
أعـدّ له ذنبـاً وأطـوي له حقدا

٤ - أسـميه من فرطِ الصبابـةِ مضجعاً
ولـو طاوعـت نفسـي لسميتـه لحدا

٥ - وآخـر عهـدي من حبيبـيَ أنه
مضى يحسبُ الإعراضَ عن هجـره قصدا

٦ - وزوّدنـي يومَ الحمـامِ صحيفةً
وثنـي شعـارٍ لا جديداً ولا جردا

٧ - أداوي به تخفـاقَ قلبـي كأنني
أضـمُّ إليه صاحـبَ البـردِ لا البردا

٨ - وقـد كنـتُ بالتقبيل أمحـو رقاعَهُ
فصـرتُ بمـاءِ الدمـع أغسلهـا وجدا

٩ - عدمـتُ فؤادي كم أرجّـي انصداعَهُ
ويبقـى علـى غَدْرِ الزمـان صَفـاً جَلْدا

١٠ - بـكيتُ دفينـاً ليتـه كان باكياً
علـيَّ فقاسـى دونـيَ الثـكلَ والفقدا

١١ ـ مضى والتقى والنسكُ حشوُ ثيابِهِ
ورحَّلَ عنها الحسنَ والظرفَ والحمدا
١٢ ـ حرامٌ على أيدي الحرامِ ممنَّعٌ
وإن كان أندى الحبِّ يشعله وقدا
١٣ ـ فيا ليتَ شعري عنك والتربُ بيننا
وذاك وإن قربته نازحٌ جدا
١٤ ـ منحتَ الثرى تلك المحاسنَ أم ترى
غُصِبْتَ عليها أم سَمَحْتَ بها عمدا
١٥ ـ أبَحْتَ الرضابَ العذبَ بعد تمنعٍ
وأبرزتَ ذاك الجيدَ والفاحمَ الجعدا
١٦ ـ طوت بعدك الدنيا رداءَ جمالها
فلا روضها يُجْلَى ولا تُرْبَها يَنْدى

الأبيات ١ ـ ١٦ في بغية الطلب ٥ : ٢٣ ـ ٢٤ .

ـ ٢٦ ـ

وقال

١ ـ حبيبٌ سرى يستقبلُ الليلَ وحدَهُ
ويسبقُ آرامَ الصريمِ وأُسْدَهُ
٢ ـ فلا الأُنْسُ من أمثالِهِ الأُدْمِ عاقَهُ
ولا الذعرُ من أعدائِهِ الغُلْبِ صدَّهُ
٣ ـ يخوضُ إليَّ الليلَ ما بُلَّ عِطْفُهُ
ويفرجُ غيلَ الدَّوْحِ ما حُلَّ عقده
٤ ـ وقد طلعتْ في الرأس منِّيَ رايةٌ
ثكلتُ بها هَزْلَ النعيم وجدّه

٥ ـ كُلــوحُ مشيبٍ لو يكون تبسماً
كمــا زعمــوا ما إنْ بكى القلــب عنده

٦ ـ ومــا زَهَــرات الشيبِ فيه ظوالمٌ
كذا العشــبُ يأتــي يانــعُ الزهــرِ بعده

٧ ـ أخـذتُ من الدهـر التجـاريبَ جملةً
وقبــل أشــدِّي ما بلغــتُ أشدّه

الأبيات ١ ـ ٧ في الذخيرة ٤: ٥١٠ ـ ٥١١.

ـ ٢٧ ـ

وقال يرثي الشريف الرضي من قصيدة أولها
«رزء أغار به النعيّ وأنجدا»

١ ـ أذكرتنا يا ابن النبيِّ محمدٍ — يومــاً طوى عنّــا أبــاك محمدا

٢ ـ ولقد عرفتُ الدهرَ قبلك سالياً — إلا عليك فمــا أطــاق تجلُّدا

٣ ـ ما زلتَ نصلَ الدهرِ تأكلُ غِمْدَهُ — حتــى رأيتُــكَ في حشــاهُ مُغْمَدا

الأبيات ١ ـ ٣ في الدمية ١: ٩٧.

ـ ٢٨ ـ

وقال في المشورة

١ ـ لا تشاورْ من ليس يُصْفيك ودّا — إنــه غيرُ سالكٍ بكَ قصدا

٢ ـ واستشر في الأمورِ كلَّ لبيبٍ — ليس يألــوك في النصيحــةِ جهدا

البيتــان ١، ٢ في ياقــوت ١٠: ٨٩ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٤.

- ٢٩ -

وقال في غلام تركي وسيم

١ - غـزالٌ لم ألابس قَبْـ ـلَـهُ التبـريحَ والكمدا
٢ - أظـن عراه جانية لعشقـي مولـداً رصدا

البيتان ١، ٢ في الذخيرة ٤: ٥١٢.

- ٣٠ -

وقال

١ - أطعتُ العُلَى في هجرِ ليلى وإنني لأضمرُ فيها مثلَ ما يضمرُ الزَّنْدُ
٢ - صريمــةُ عزمٍ لم يكنْ من رجالها سواي من العشاقِ قبلُ ولا بعد
٣ - رأيتُ فراقَ النفس أهونَ ضَيْرَةً عليَّ من الفعلِ الذي يكرهُ المجد

الأبيات ١ - ٣ في أدب الخواص: ٧٤.

- ٣١ -

وقال(١)

١ - مـرضٌ بقلبـك لا يُعادُ وقتيل حبٍّ ما يقادُ
٢ - يا آخـرَ العشّـاقِ ما أبصـرتَ أولهـا يقاد
٣ - يقضـي المتيم منهمُ نحبـاً ولـو رُدّوا لعادوا
٤ - ملكوا النفـوس فهـل لها من بعدهـا ما يستعاد
٥ - مـا خلـت غزلان اللوى كظبـاء مكة لا تصاد
٦ - بالعـذل يوقـد لوعتي وبقدحـه يوري الزناد
٧ - لـم يستطـع إطفاءها دمـع كمـا انخـرق المزاد
٨ - لا أشـكونْ جرحـي فللعذ ال ألسنـة حداد

---

(١) هي في سبعة وثلاثين بيتاً، ولكني لم أستطع قراءة أبيات كثيرة منها.

٩ ـ طمِعٌ وأنت برامة في من تضمنه النجاد
١٠ ـ والحيُّ قد هبطت خيا مهم وقعقعت العماد
١١ ـ والورد من زهر الخدو د كمامه الكِلَلُ الوراد
١٢ ـ لو يسمعون بوقعه أتت المطايا والجياد
١٣ ـ ولأجلها غبط الغبيـ ـط حجاب قلبي والسواد
١٤ ـ تعفو المنازل إن نأوا عنها وتغبرُّ البلاد
١٥ ـ والحيّ أولى بالبلى شوقاً إذا يَبلَى الجماد
١٦ ـ أو ما رأت قلبي قريـ ش وهو للجلّى عماد
١٧ ـ وله المعاني [والمبا ني] والكلام المستفاد
١٨ ـ فكأنه قس وها شم حول منطقه إياد
١٩ ـ يا مصعباً جرّته في أرسانها اللمم الجواد
٢٠ ـ ولمن رضاب النحل يشـ ـهد أن ريقته شهاد
٢١ ـ قد كان قبلك في سبيـ ـل الحب لي أبداً جهاد
٢٢ ـ حتى عفا ذاك الغرا م وغاية النار الرماد
٢٣ ـ فإذا رأيت الكون فاعـ ـلم أن سيتبعه فساد
٢٤ ـ واعجب لقوم في الزما ن على السفاهة كيف سادوا
٢٥ ـ لا عندهم كلهم يعـ ـزّ ولا نضار يستفاد
٢٦ ـ أستغفر الله العلي لقد تذأبتِ النقاد

الأبيات ١ ـ ٢٦ في نكت الوزراء ٥٧ ب ـ ٥٨/أ.

ـ ٣٢ ـ

وقال وقد لجأ إلى مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما

١ ـ تَحَصَّنْتُ من كيدِ العدوّ وآلهِ بِمُجْنَبَةٍ من حبِّ آلِ محمدِ
٢ ـ ودون يدِ الجبارِ من أن تنالني جواشنُ أمنٍ صُنْتُها بالتهجد

٣ ـ أُلِحُّ على مولىً كريمٍ كأنما يبــاكَرُ مني بالغــريمِ اليلندد[1]

٤ ـ أَيسلمني من بعد من أنا جارُهُ وقـد علقــتْ إحــدى حبائِلِــهِ يدي

الأبيات ١ ـ ٤ في طبقات الداودي ١ : ١٥٤ والمقفى (ميكروفيلم رقم ٥١٠ تاريخ بالجامعة العربية) الورقة : ٣٩٠.

ـ ٣٣ ـ

وقال

١ ـ لو خَطْرَفَ الشيبُ عقـداً كنت أعذِرُهُ

لكنمـا سهـوه بالضّـعفِ في العددِ

٢ ـ أعطـى الثـلاثين في ريعـانِ شِرَّتها

مـا لابـن ستينَ من شَيْبٍ ومـن كمد

البيتان ٢،١ في تاريخ المسبحي ٢٣٣/أ.

ـ ٣٤ ـ

وقال

١ ـ مـا للمـطيعِ هواهُ من المـلامِ مَلاذُ

٢ ـ فاختـر لنفسـك إمّا عرضُ وإمّـا التذاذ

البيتان ٢،١ في تاريخ المسبحي : ٢٣٢ ب ـ ٢٣٣/ أ وغرر الخصائص : ٩١.

ـ ٣٥ ـ

وقال مفتخراً

١ ـ فيا أُمّتـا[2] إن غالنــي غائـلُ الردى

فـلا تجزعي بل أحسنــي بعــديَ الصبرا

---

(١) اليلندد: الشديد الخصومة.

(٢) الوافي: أيا أمتا.

٢ ـ فما متُّ حتـى شيَّدَ المـجـدَ والعلا
فَعالـيَ واستوفـت مناقبـيَ الفخرا
٣ ـ وحتـى شفيتُ النفسَ من كلِّ حاسدٍ
وأبقيتُ في أعقـابِ أولادك الذكرا

الأبيات ١ ـ ٣ في الـدمية ١: ٩٧ والوافـي ١٢: ٤٤٦.

ـ ٣٦ ـ

وقال

١ ـ تأمّـلَ من أهواه صُفْرَةَ خاتمي فقـال بلـطفٍ: لم تجنبـتَ أحمرَهْ[١]
٢ ـ فقلتُ لعمري كان أحمرَ لونُهُ ولـكنْ سقامـي حلَّ فيه فغيَّرَهْ[٢]

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠: ٨٩ وبغية الطلب ٥: ٢١ وتهذيب ابن عساكر ٤: ٣١٠ ونكت الوزراء: ٥٧/ أ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٢.

ـ ٣٧ ـ

وقال

١ ـ خـاف المشيبُ تعتّبـي فأجاره طَلُّ الهمـوم وعـزَّ ذاك مجيرا
٢ ـ فمضى الشبـابُ مظلّمـاً متعسفاً وأتـى المشيبُ مجامـلاً معذورا

البيتان ١، ٢ في تاريخ المسبحي: ٢٣٣ ب.

---

(١) البغية وابن عساكر: فقال حبيبي.
(٢) البغية وابن عساكر: فقلت له من أحمر كان لونه. البغية: ولكن غرامي.

- ٣٨ -

وقال

١ - يا ربَّ ظبـيٍ قد طرقـ ـتُ وسـاده في الليلِ سرّا
٢ - ففششـتُ قفـلاً من عقيـ ـقٍ أحمـرٍ وسرقـتُ درّا

البيتان ١، ٢ في بغية الطلب ٥ : ٢٣.

- ٣٩ -

وقال لما تغيرت عليه الوزارة وتغرب، وكان معه غلام اسمه داهر

١ - كفى حَزَناً أنّي مقيمٌ ببلدةٍ يعلّلنـي بعـدَ الأحبـةِ داهرُ
٢ - يحدّثني ممـا يجمّـعُ عقلُهُ أحـاديثَ منهـا مسـتقيمٌ وجائر

البيتان ١، ٢ في الخريدة (قسم الشام) ٢ : ١١ ومعجم الأدباء ٣ : ١١٤ - ١١٥.

- ٤٠ -

وقال

١ - من بعد ملكي رمتمُ أن تغدروا ما بعـد فرقـةِ بائعين تخيّر(١)
٢ - ردُّوا الفؤادَ كما عهدتمْ للحشا ولطرفيَ الساهي الكرى ثم اهجروا(٢)
٣ - وزعمتمُ أن الليالي غيّرت عهـدَ الهـوى لا كان من يتغير

الأبيات ١ - ٣ في مرآة الزمـان ١٢ : ٤٩/ أ والبيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠ : ٨٨ - ٨٩ وبغية الطلب ٥ : ٢١ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣١٠ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٢.

---

(١) ياقوت وابن عساكر: فرقة ما ملكت. والاشارة إلى الحديث: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا.
(٢) البغية والمرآة: ردّوا الهدو (الفؤاد) كما عهدت إلى الحشا، والمقلتين إلى الكرى؛ ابن عساكر: والمقلتين إلى الكرى.

- ٤١ -

وقال

١ - قَمَرٌ ببغدادٍ وقفتُ له فرجعتُ عنه ومذهبي الجَبْرُ
٢ - قالوا ضللتَ فقلتُ ويحكمُ أيضلُّ سارٍ قادَهُ البدر

البيتان ١، ٢ في تاريخ المسبحي ٢٣٤/ أ.

- ٤٢ -

وقال

١ - وغرَّدَتْ في الأيكِ قمريَّةٌ نوّاحةٌ أقلقها الفجرُ
٢ - تقول ستّي أنتِ قومي ارقدي مَنْ لي بأن يُمْتَثَلَ الأمر
٣ - كأنها قد حَذِرَتْ فهي لا تأمن [من] أن يَرْجِعَ الحِذْرُ

الأبيات ١ - ٣ في تاريخ المسبحي: ٢٣٢ب.

- ٤٣ -

وقال(١)

١ - أقولُ لها والعيسُ تُحْدَجُ للسُّرَى
أعدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبر
٢ - سأنفقُ ريعانَ الشبيبةِ آنفاً
على طلبِ العلياءِ أو طلبِ الأجر

---

(١) رواية الذخيرة:
ومحجوبة في الخدر عن كلّ ناظر ولو برزت بالليل ما ضلّ من يسري
أقول لها .....
سأنفق ريعان.....
أليس من الخسران.....
وانا لفي الدنيا كواكبَ لجةٍ نظَنُّ قعوداً والزمان بنا يجري

٣ ـ أليس من الخُسْرانِ(١) أنّ ليالياً
تمرُّ بلا نفعٍ وتحسب من عمري

الأبيات ١ ـ ٣ في ياقوت ١ : ٨٨ وابن خلكان ٢ : ١٧٣ والشريشي ١ : ٢٩٩ وكناش الأمبروزيانا رقم ١٩ الورقة ٩ / أ وطبقات الداودي ١ : ١٥٤ والوافي ١٢ : ٤٤٤، ووردت خمسة أبيات في الذخيرة ٤ : ٥١٨ منسوبة لعبدالوهاب المالكي ١ : ٢٩٩ وأوردها صاحب أعيان الشيعة ٢٧ : ١٩.

ـ ٤٤ ـ

وقال يصف الشمعة

١ ـ وصفرٍ كأطرافِ العوالي قُدودُهَا
قيامٍ على أعلى كراسٍ من التبر

٢ ـ تلبَّسْنَ من شمسِ الأصيلِ غلائلاً
وأشرقن في الظلماءِ في الخِلَعِ الصفر

٣ ـ عرائسُ يجلوها الدجى لمماتها
وتحيا إذا أذرتْ دموعاً من الجمر

٤ ـ إذا ضُرِبَتْ أعناقُها في رضى الدجى
أعارتْهُ من أنوارها خِلَعَ الفجر

٥ ـ وتبكي على أجسامها بجسومها
فأدمعها أجسامها أبداً تجري

(١) الشريشي : الحرمان.

٦ ـ عليهـا ضياءٌ عامـلٌ في حياتها
كمـا تعمـلُ الأيامُ في قِصَـرِ العمر

الأبيات ١ ـ ٦ في سرور النفس: ٤٢٧ (ف: ١١٢٧) (ونسبت في نشوار المحاضرة ٢: ٣٠٦ لأبي الفرج الببغاء).

ـ ٤٥ ـ

واعتل إلفه بعد هجرةٍ بينهما ومات فقال يرثيه

١ ـ لقـد بؤتُ من دين المـروءةِ بالكفرِ
وأصبحـتُ أغشـى صفحـةَ الغـدرِ بالغدرِ

٢ ـ عصيتُ الهوى العذريَّ في هجرِ شادنٍ
أضعـتُ بهجرانـي له فرصـةَ الدهر

٣ ـ نَمَـى في حُجُـور الملكِ ثم ملكتُهُ
بظـلٍّ شبـابٍ حازه لي ومـا أدري

٤ ـ فقيِّد فتـكي في هواه إنابةً
إلـى الله خلَّـتْ دمعَـهُ واكفـاً يجري

٥ ـ يهـونُ عليه أن تُساعِفَـهُ المنى
وأُرْجَـمَ يومَ البعـث في لَهَـبِ الجمر

٦ ـ ومـا زال هجـرانيهِ حتـى تركتُهُ
جديثـاً برغمـي مودَعـاً أضلـعَ القبر

٧ ـ لقـد كاد ذاك القبـرُ يومَ أزورُهُ
يعلّـقُ ثوبـي شاكياً ألـمَ الهجر

٨ ـ بنفسـيَ مَنْ خوفـي من الإثـم قادني
إلـى الإثم فاستـوفيتُ من قتلـه وزري

٩ ـ مضى والتقى والحسنُ حشوُ ثيابِهِ
وأورثني منه الأسى آخرَ العمر

الأبيات ١ ـ ٩ في بغية الطلب ٥: ٢٣.

ـ ٤٦ ـ

وقال في طول الليل

١ ـ عهدي به ورداءُ الوصلِ يجمعنا ... والليلُ أطولُهُ كاللمحِ بالبصرِ[١]
٢ ـ فالآن ليليَ مذ غابوا فديتهمُ ... ليلُ الضريرِ وصبحي غيرُ منتظر

البيتان ١، ٢ في بغية الطلب ٥: ٢٢.

ـ ٤٧ ـ

وقال

١ ـ أستارُ بيتِكَ أمنُ الخوفِ منكَ وقد ... عُلِّقتها مستجيراً منكَ يا باري
٢ ـ وما أظنّك لمّا أنْ علقتُ بها ... خوفاً من النارِ تدنيني من النار
٣ ـ وها أنا جارُ بيتٍ أنت قلتَ لنا ... حُجُّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

الأبيات ١ ـ ٣ في المنازل والديار: ٢٠٥ ب (٤١٢).

(١) قال ابن العديم: قرأت في بعض الفوائد أن الوزير أبا القاسم الحسين بن علي بن المغربي أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فكان لا يزداد إلا قلقاً، ولا يزداد الليل إلا طولاً، فقال لبعض ندمائه: أي شيء تعرف من الشعر في طول الليل والسهر والقلق؟ فقال: قول بشار بن برد:

جفت عيني عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار
أقول وليلتي تزداد طولاً ... أما لليلِ عندكمُ نهار

فقال صدقت وأحسنت ثم قال على البديه: «عهدي به .. الخ» وورد البيتان في ديوان المعاني ١: ٣٤٨ والذخيرة ٣: ٦٩٦ وسرور النفس: ٢٣ (دون نسبة) وفي حلبة الكميت: ٣٠٤ لسيدوك الواسطي وفي لطائف اللطف: ١٢٨ لكشاجم، وانظر من غاب عنه المطرب: ٥٤ ـ ٥٥ ورسالة الطيف: ١١٢، ١٥٨.

- ٤٨ -

وقال

١ - إذا ما الفتى ضاقتْ عليه بلادُهُ وأيقــن أن الأرضَ واسعــةُ القُطْرِ
٢ - ودام على ضيقِ المعيشةِ صابراً على الذلّ والحالِ الدنيَّةِ والفقر
٣ - ولم يجترمْ للنفس عزّاً يصونها فلا فَرْقَ بين العبدِ والرجلِ الحرّ

الأبيات ١ - ٣ في تاريخ المسبحي :٢٣٥/ أ.

- ٤٩ -

وقال

١ - اللهُ يعلمُ ما إثمٌ هممتُ به إلاّ وبغْضُــه[1] خوفــي من النارِ
٢ - وأنّ نفسيَ ما هامتْ بمعصيةٍ إلاّ وقلبــي عليها عاتــبٌ زار[2]

البيتان ١، ٢ في الذخيرة ٤ : ٥١٣ والشريشي ٥ : ٣٥٨ (لابن المعتز).

- ٥٠ -

وقال يتعصب للأنصار على المهاجرين، وخرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة لافراط غلوه، قال ابن أبي الحديد:

«وقد أوردت ها هنا بعضها، لأني لم أستجز ولم أستحل إيرادها على وجهها، فمن جملتها - وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقول: إنه لولا الأنصار لم تستقم لدعوته دعامة، ولا أرست له قاعدة في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها»:

---

(١) الشريشي: إلا ونقْصه.
(٢) الشريشي: همت. . . غائب.

١ - نحن الّذين بنا استجار فلم يَضِعْ فينـا، وأصبـح في أعـزِّ جوارِ
٢ - بسيوفنا أمستْ سَخينةُ بُرَّكاً في بَدْرِهـا كنحائـرِ الجزّار
٣ - ولنحن في أُحُدٍ سمحنا دونه بنفوسنـا للمـوتِ خوفَ العار
٤ - فنجا بمهجته، فلولا ذَبُّنا عنـه تنشَّـبَ في مخالـبِ ضار
٥ - وحمية السّعدين بل بحماية السـ ـدين يوم الجحفـلِ الجرّار
٦ - في الخندقِ المشهور إذ ألقى بها بيدٍ، ورام دفاعهـا بثمار
٧ - قالا: معاذَ الله إن هضيمةً لم نُعْطِهـا في سالفِ الأعصار
٨ - ما عندنا إلا السيوفُ، وأقبلا نحـو الحتـوف بهـا بَدارِ بَدارِ
٩ - ولنا بيوم حنينَ آثارٌ متى تُذْكَرْ فَهُـنّ كرائـمُ الآثار
١٠ - لما تصدَّعَ جمعُهُ فغدا بنا مستصرخـاً بعقيرةٍ وَجُؤار
١١ - عطفتْ عليه كماتُنـا، فتحصَّنَت منـا جمـوعُ هوازنٍ بفرار
١٢ - وَفَدَتْهُ من أبناءِ قَيْلَةَ عُصْبَةٌ شَرْوَى النقيرِ وَجنَّـةِ البقار
١٣ - أفنحن أولى بالخلافة بعده أم عبـدُ تَيْمٍ حاملـو الأوزار
١٤ - ما الأمر إلا أمْرُنَا وَبِسَعْدِنا زُفَّـتْ عروسُ الملكِ غيرَ نَوار
١٥ - لكنما حسدُ النفوسِ وشُحُّها وتـذكّر الأذحـال والأوتار
١٦ - أفضى إلى هَرْجٍ وَمَـرْجٍ فانبرتْ عشـواءَ خابطـةً بغيرِ نهار
١٧ - وتداولتها أربعٌ لولا أبو حَسَـنٍ لقلـتُ لؤمـتِ من أستار
١٨ - من عاجزٍ ضَرَعٍ، ومن ذي غلظةٍ جافٍ، ومـن ذي لوثـةٍ خَوَّار
١٩ - ثم ارتدى المحرومُ فضلَ ردائها فَغَلَتْ مراجلُ إحنةٍ ونفار
٢٠ - فتأكّلَتْ تلك الجُذَى، وتلمَّظَتْ تلك الظُّبـا، ورقـى أجيجُ النار
٢١ - تالله لو ألْقَوْا إليه زمامَها لمشـى بهـم سُجُحـاً بغيرِ عثار
٢٢ - ولو آنها حلّت بساحةِ مجده بادي بدا سكنـتْ بدارِ قرار
٢٣ - هو كالنبيِّ فضيلةً، لكنّ ذا من حظّـه كاسٍ، وهـذا عار
٢٤ - والفضلُ ليس بنافعٍ أربابَهُ إلا بِمُسْعِـدَةٍ من الأقدار

٢٥ ـ ثم امتطاها عبدُ شمس فاغتدتْ هزؤاً، وَبُـدِّلَ ربحهـا بخسار
٢٦ ـ وتنقّلت في عصبة أمويةٍ ليسـوا بأطهـارٍ ولا أبرار
٢٧ ـ ما بين مأفون إلى مترندق ومداهـن ومضـاعَفٍ وحمار

الأبيات ١ ـ ٢٧ في شرح النهج ٦: ١٥ ـ ١٧.

ـ ٥١ ـ

وقال

١ ـ كن حاقداً ما دمتَ لستَ بقادرٍ فإذا قدرتَ فخلِّ حقدَكَ واغفرِ
٢ ـ واعذر أخاك إذا أساءَ فربما لجَّـتْ إساءَتُـهُ إذا لم تَعْذِرِ

البيتان ١، ٢ في أدب الخواص: ٧٦ وتتمة اليتيمة ١: ٢٥ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٠.

ـ ٥٢ ـ

وقال

١ ـ سيان عنديَ ميّتٌ في قبرِهِ يُجْنَـى عليه ونائـمٌ في سُكْرِهِ

البيت في الغيث ٢: ١٩٠.

ـ ٥٣ ـ

وقال

١ ـ قلبي أسيرٌ في يَدَيْ مقلةٍ ضيّقـةٍ ضاق لهـا صبري
٢ ـ كأنهـا في ضيقهـا عُرْوَةٌ ليس لهـا زرٌّ سوى السحرِ

البيتان ١، ٢ في ربيع الأبرار ١: ٨٦٢.

- ٥٤ -

وقال

١ - ما لي أَرى قلبي تنازَعَهُ وطنـايَ من حلـبٍ ومـن مصرِ
٢ - لا عيشَ إلا كورُ ناجيةٍ لا ظلَّ غيرُ ذوائـبِ السُّمْر

البيتان ١، ٢ في تاريخ المسبحي ٢٣٥/ أ.

- ٥٥ -

وقال في الشيب

١ - عجبتْ هندُ من تسرُّعِ شيبي قلـتُ هذا عُقْبَـى فطـامِ السّرورِ
٢ - عوّضتني يدُ الثلاثينَ من مسـ ـكِ عذاري رشّـاً من الكافور
٣ - كان لي في انتظارِ شيبي حسابٌ غالطتني فيه صروفُ الدهور

الأبيات ١ - ٣ في الـذخيرة ٤ : ٥٠٧ وتتمـة اليتيمة ١ : ٢٥ ونكت الوزراء: ٥٧ب وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٠.

- ٥٦ -

وقال في غلام مجوسي

١ - صادني ظبـي مجوسـ ـيٌّ بطرفٍ واحورارهْ
٢ - وجهـهُ قِبلـةُ بيتي وفـؤادي بيت ناره

البيتان ١، ٢ في نكث الوزراء: ٥٧ ب.

- ٥٧ -

وقال

١ - يا رُبَّ خَصْمٍ قد تركتُ ذَماءَهُ وكأنمـا شُقَّـتْ له أرماسُهُ
٢ - من بعدِ ما قد كان يطفحُ قوله بدداً وَيُنْغَضُ في المقـادمِ راسه

٣ ـ بجدالِ ذي غَرْبٍ ألدَّ كأنما يُذْكى بشعلةٍ قوله نبراسه
٤ ـ في موقفٍ كالحربِ تهتضمُ الفتى فيه جبانَتُهُ وينفعُ باسُهُ

الأبيات ١ ـ ٤ في أدب الخواص: ٨١.

ـ ٥٨ ـ

وقال

١ ـ يومُ الكسوفِ جلا على بصري قمراً أحار الجنَّ والانسا
٢ ـ قامتْ فأرختْ من ذوائبها وتجللتْ من شعرها لبسا
٣ ـ فسألتها لمَ قد لبستِ دجىً قالت أساعدُ أختيَ الشمسا

الأبيات ١ ـ ٣ في الذخيرة ٤: ٥٠٩.

ـ ٥٩ ـ

وقال

١ ـ لمثلِ ذا اليومِ يا معذّبتي كانت تُرَجِّيكِ أختُكِ الشمسُ
٢ ـ قومي اخلفيها في ذا الكسوف ففي وجهك إن أوحشتْ [لها أنس]
٣ ـ وغالطي حاسبَ النجومِ فإن لحتِ وغابتْ أصابه لَبْسُ

الأبيات ١ ـ ٣ في الذخيرة ٤: ٤٧٥ وسرور النفس: ١٣٥.

ـ ٦٠ ـ

وقال مفتخراً

١ ـ قارعت الأيامُ مني امرءاً قد أعلق المجدَ بأمراسِهِ[1]

---

(١) الذخيرة: تمرست مني العلا بامرىء؛ الذخيرة والمعاهد: قد علق المجد.

٢ ـ تُسْتَنْزَلُ النجدةُ من رأيه وَيُسْتَدَرُّ العزُّ من باسه[١]
٣ ـ أَرْوَعَ لا ينحطُّ عن تيهِهِ والسيفُ مسلولٌ على راسه[٢]

الأبيات ١ ـ ٣ في أدب الخواص: ١٠٢ والذخيرة ٤: ٤٧٨ ودمية القصر ١: ٩٦ ومعاهد التنصيص ٣: ٣٣ وإعتاب الكتاب: ٢٠٧ والوافي ١٢: ٤٤٦.

ـ ٦١ ـ

وقال في غلامٍ مَلّاح

١ ـ وَمُصْعِدٍ سُفْنُهُ قلبي ومنحدرٍ بالماءِ والريح من دمعي وأنفاسي
٢ ـ إذا انحنى حثَّ قلبي نحوه طرباً أو مدَّ مدَّ إليه أعينَ الناس
٣ ـ وافتْ مَلاحتُهُ فيها مِلاحَتَهُ فأفتنَ الناسَ في قَلْسٍ ومقلاس
٤ ـ لأشكونَّ إلى سُكّانه وإلى خنّيه إن خان عهدي قلبُهُ القاسي

الأبيات ١ ـ ٤ في لمح الملح للحظيري ٧٩/أ.

ـ ٦٢ ـ

وقال

١ ـ وما ظبيةٌ أدماءُ تحنو على طلا
ترى الإنسَ وحشاً وهي تأنسُ بالوحشِ
٢ ـ غَدَتْ فارتعتْ ثم انثنت لِرَضَاعِهِ
فلم تلقَ[٣] شيئاً من قوائمه الحُمْشِ
٣ ـ فطافت بذاك القاعِ وَلْهَى فصادفتْ
سباعَ الفلا يَنْهَشْنَهُ أيَّما نهش

(١) الدمية والمعاهد والوافي: يستنزل الرزق باقدامه؛ الذخيرة: يستنجد النجدة من رأيه، ويستقل الكثر.
(٢) الذخيرة: لا يرجع؛ هامش أدب الخواص: عن كبره.
(٣) ابن الأثير وبغية الطلب: تلف.

٤ ـ بأوجعَ مني يوم ظلَّتْ أناملٌ
تُوَدِّعني بالدرِّ من شبك النقش

٥ ـ وأَجمالُهُمْ تُحْدَى وقد خيَّل الهوى
كأنَّ مطاياهم على ناظري تمشي

٦ ـ وأعجبُ ما في الأمرِ أنْ عشتُ بعدهم
على أنهم ما خلَّفوا فيَّ من بطش[1]

الأبيات ١ ـ ٦ في المنتظم ٨: ٣٢ والمرآة ١٢: ٤٨/ أ وابن الأثير ٩: ٣٦٢ ـ ٣٦٣ وبغية الطلب ٣: ٦٢، ٥: ٢٢ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٠ ـ ٢١ والبيت ٦ في بغية الطلب ٣: ٦١، ٥: ٢٢.

ـ ٦٣ ـ

وقال

١ ـ خفِ اللهَ واستدفع سُطَاهُ وَسُخْطَهُ
وسائله فيما تسألُ الله تُعْطَهُ

٢ ـ فما تقبضُ الأيامُ في نيلِ حاجةٍ
بنانَ فتىً أبدى إلى الله بسطه

٣ ـ وكنْ بالذي قد خطَّ باللوحِ راضياً
فلا مَهْرَبٌ مما قضاهُ وخطّه

٤ ـ وإنَّ مع الرزقِ اشتراطَ التماسِهِ
وقد يتعدَّى إن تعديتَ شَرْطَه

---

(١) جاء في مرآة الزمان بعد هذه الأبيات:

أيا وطني إن فاتني بك فائت ... من الدهر فلينعم لساكنك البال
فإن أستطع في الحشر آتك زائراً ... وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وقد نسبا له سهواً، وهما لأبي العلاء المعري.

٥ ـ ولو شاء ألقى في فمِ الطير قوتَهُ
ولكنَّه أَوْحَى إلى الطير لقطه

٦ ـ إذا ما احتملت العبءَ فانظر قبيل أن
تنوءَ به ألا ترومَ مَحَطَّه

٧ ـ وأفضلُ أخلاق الفتى العلمُ والحجى
إذا ما صروفُ الدهرِ أخلقن مِرْطَه[1]

٨ ـ فما رفع الدهرُ امرءاً عن محلّه
بغير التقى والعلم إلا وَحَطَّه

الأبيات ١ ـ ٨ في ياقوت ١٠: ٨٥ ـ ٨٦ وتهذيب ابن عساكر ٤: ٣١٠ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٢.

ـ ٦٤ ـ

وقال

١ ـ نَمْ عن معاداةِ الرجا ... لِ فإنها حَسَكُ المضاجعْ

٢ ـ وإذا أُذِيتَ فحامِ عند الضَّيْمِ مجتهداً ومانعْ

البيتان ١، ٢ في أدب الخواص: ٦٤ (ولم يصرح أنهما له وإنما جاء ذلك في الحاشية).

ـ ٦٥ ـ

وقال

١ ـ ولقد يميلُ بناظري عن مسجدٍ ... غُصُنٌ من الرّمانِ أَكْمَلَ يُنْعَهُ

٢ ـ مُتَبَرّجٌ نهداه يكتُمُ حسنه ... خفراً فطبعهما يخالفُ طَبْعَهُ

٣ ـ أبداً يشقُّ صدارَهُ بنهودِهِ ... ولو آنني صيَّرتُ درعي دِرْعَهُ

الأبيات ١ ـ ٣ في تاريخ المسبحي ٢٣٥/ أ.

---

(١) ابن عساكر: أنهجن.

- ٦٦ -

وقال

١ - أرى الناسَ في الـدنيا كراعٍ تنكَّرَتْ
مـراعيه حتـى ليس فيهـنَّ مرتعُ

٢ - فمـاءٌ بلا مرعـىً ومرعـىً بغيرِ ما
وحيثُ ترى ماءً ومرعـىً فَمَسْبَعُ

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠ : ٨٧ وابن خلكان ٢ : ١٧٣ وسير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٩٦ والوافي ١٢ : ٤٤٤ وكنـاش الأمبروزيانـا (١٩) الورقة : ٩/ أ وأعيان الشيعة ٢٧ : ١٩.

- ٦٧ -

وقال

١ - ولو سلوت لنفسي عن طِلابِ غنىً — لمـا سلـوتُ لأتباعـي وأشياعي

٢ - من كل سام بعينيه يؤمّلني — تأميلَ ضرَّارِ أعـداء ونفّاع

٣ - ولو جنيتُ لأعواني سلامتهم — حتى يرانيَ رحباً بالندى باعي

الأبيات ١ - ٣ في نكت الوزراء : ٥٧ب.

- ٦٨ -

وقال في بابلاّ

١ - حـنَّ قلبـي إلـى معالـم بابـ — ـلاّ حنينَ المولّـهِ المشغوفِ

٢ - مطلبُ اللهوِ والهـوى وكنـاسُ الـ — ـخـرّدِ العينِ والظبـاءِ الهيفِ

٣ - حيث شطّـا قويقَ مَسْـرَحُ طرفي — والأسامـي مؤانسـي وأليفي

٤ - ليس مَنْ لم يَسلْ حنيناً إلـى الأو — طان إن شتَّـتِ النـوى بظريف

٥ - ذاك من شيمـةِ الـكرام ومـن عهـ — ـد الوفـاءِ المحبَّـبِ الموصوف

الأبيات ١ - ٥ في معجم البلدان (بابلا).

- ٦٩ -

وقال*

١ - تبدَّلَ من مرقَّعةٍ ونسكٍ بأنواعِ الممسَّكِ والشّفوفِ
٢ - وعنَّ له غزالٌ ليس يحوي هواه ولا رضاه بلبسِ صوف[1]
٣ - فعاد أشدَّ ما كان انهتاكاً كذاك الدهرُ مختلفُ الصروف

الأبيات ١ - ٣ في الذخيرة ٤: ٤٧٧ وبغية الطلب ٥: ٢٦ والشريشي ٥: ٣٠٥ وتاريخ المسبحي: ٢٣٤ ب وإعتاب الكتاب: ٢٠٦ وخطط المقريزي ٢: ١٥٨.

- ٧٠ -

وقال

١ - كأنَّ قلبي إذا عنَّ ادّكاركمُ ظلُّ اللواءِ عليه الريحُ تخترقُ

البيت في الخريدة (قسم الشام) ١: ٥١١ ومعجم الأدباء ٥: ٢٠٠.

- ٧١ -

وقال

١ - غزالٌ حبُّهُ للصبرِ غربٌ ولكنْ وجهه للحسنِ شَرْقُ
٢ - رددتُ وقد تبسَّم عنه طرفي وقلتُ له تَرَى لي فيكَ رزق
٣ - سأرجو الوصلَ لا أني جديرٌ ولا قَدْري لقدرك فيه وَفْقُ
٤ - ولكنْ لستُ أوّلَ من تمنَّى من الدنيا الذي لا يستحقّ

الأبيات ١ - ٤ في بغية الطلب ٥: ٢١ والوافي ٤: ٤٤٥.

---

* قال الشريشي: وكان أبو القاسم قد نسك زماناً ولبس الصوف وترهب وحج، فعشق غلاماً تركياً وهام به، وتقلد الوزارة ببغداد وغيرها، وانتهى في الجاه إلى الغاية، وتملك الأحرار، واشترى الغلام التركي فقال: تبدَّل. . . الأبيات.

(١) المسبحي: رضاه ولا هواه.

- ٧٢ -

وقال وقد اجتاز بهيت وزار قبر عبدالله بن المبارك

١ - مررتُ بقبرِ ابنِ المبارك زائراً   فأوسعنـي وعظـاً وليس بناطقِ
٢ - وقد كنتُ بالعلم الذي في جوانحي   غنياً وبـالشيبِ الـذي في مفارقي
٣ - ولكنْ أرى الذكرى تُنَبِّهُ عِبْرةً   إذا هي جاءتْ من رجـالِ الحقائق

الأبيات ١ - ٣ في بغية الطلب ٥ : ٢١ .

- ٧٣ -

وكتب إلى إلف له كانت بينه وبينه محالفة على مذهب التصوّف

١ - يا مَنْ لقلبٍ هائمٍ لم يستطعْ   ذِكْرَ اسـم مَنْ يهـواهُ من إشفاقِه
٢ - ولعاشقٍ غلبتْ عليه خَجْلَةٌ   فكأنـه المعشـوقُ في إطراقه
٣ - يَنْهَى عن البثِّ المريحِ لسانَهُ   فيمـوتُ مطـوياً علـى أشواقه
٤ - سمع الغناءَ فردَّ سَيْلَ دموعِهِ   من بعـد ما ذابـتْ علـى آماقه
٥ - عبثٌ من الأشواقِ لو هُزَّتْ به   أعطـافُ غُصْـنٍ سُلَّ من أوراقه
٦ - كَتَمَ الهوى من بعد ما نَمَّتْ به   ريّا كنشرِ الروضِ من أخلاقه
٧ - ولدى الهوى العذريِّ طيبُ شمائلٍ   ما مثلهـا يَخْفَـى علـى ذواقه
٨ - وأرى اللقاءَ مع الحياءِ مقابلاً   منـي ومنـه مثـل بعـد فراقه
٩ - أو يجمع الشوقُ المبرِّحُ طالباً   ما بين مركزِ دُمْلُجَيْهِ وساقه

الأبيات ١ - ٩ في بغية الطلب ٥ : ٢٣ .

- ٧٤ -

وقال(١)

١ - قطعتُ الأرضَ في شَهْرَيْ ربيعٍ ... إلى مصرٍ وعدتُ إلى العراقِ

٢ - فقال ليَ الحبيبُ وقد رآني ... سَبُوقاً للمضمرةِ العتاق

٣ - ركبتَ على البراقِ فقلتُ كلاّ ... ولكني ركبتُ على اشتياقي

الأبيات ١ - ٣ في الدمية ١ : ٩٦ وهي في الذخيرة ٤ : ٥٢٨ - ٥٢٩ وابن خلكان ٣ : ٢٢١ منسوبة لعبدالوهاب المالكي.

- ٧٥ -

وقال

١ - ويح روحي من ذا يدلّ عليها ... مهجتي يوم روّعت بالفراق

٢ - فاطلبوها بحيث كنا افترقنا ... فلعلي نسيتها في العناق

البيتان ١، ٢ في نكت الوزراء: ٥٧/ أ.

- ٧٦ -

وقال(٢)

١ - الله يعلمُ أنني ... ألتــذُّ فيكمْ باشتياقي

٢ - وأكادُ من أنسِ التذكـر ... لا أَذُمُّ يدَ الفراق

٣ - وأغضُّ طرفي بعدما ... مَلأتْهُ غزلانُ العراق

٤ - وأفرُّ من خَجَلِ العتا ... بِ إلى مخالطةِ العناق

الأبيات ١ - ٤ في أعيان الشيعة ٢٧ : ٢٥ نقلاً عن البدائع للفرج بن إبراهيم الكاتب.

---

(١) ورد قبل الأبيات الثلاثة في طبعة التونجي من الدمية (١ : ١١٨) بيت هو:

ألا حييت يا يوم التلاقي ... ولا حييت يا يوم الفراق

(٢) ارتجلها عندما أنشده صاحب البدائع قول شداد بن إبراهيم المعروف بالظاهر:

يا منكراً شَغَفي به ... ومكذِّباً طولَ اشتياقي

- ٧٧ -

وقال

١ - طيفٌ ألمَّ ثنى عزيمَ النسَّكِ ... وجلا صوابَ الحبِّ بعد تَشكُّكِ
٢ - أكْرِمْ به يجفو وحشوُ وسائدي ... وردٌ ويعطفُ إذ وسادي مَوْركي
٣ - عجبتْ أنيسةُ بَيْتِنا إذ أبصرتْ ... طغيانَ جودٍ للثناء مُمَلِّك
٤ - قالتْ فهبك بمصرَ كنتَ مغازلاً ... وجهاً من الدنيا أنيقَ المضحك
٥ - فالآن قد أصبحتَ جارَ أباعرٍ ... حُدْباً شوائلها خفافَ المبرك
٦ - قلتُ اربِعِي فضمينُ رزقي واحدٌ ... في يومِ إقتارٍ ويومِ تملُّك
٧ - فلهامتي بالأريحيةِ سَكْرَةٌ ... تهتزُّ بي في ثروةٍ وتَصَعْلُكِ

الأبيات ١ - ٧ في تاريخ المسبحي: ٢٣٢ ب.

- ٧٨ -

وقال

١ - أوحى لوجنته العذارُ فما ... أبْقَى على ورعي ولا نُسْكي
٢ - وكأن نملاً قد دَبَبْنَ بها ... غُمِسَتْ أكارِعُهُنَّ في مسك

البيتان ١، ٢ في سلك الدرر ٢ : ٢٦٢ .

- ٧٩ -

وقال

١ - يا أهل مصرٍ قد عاد ناسككُمْ ... بالكرخِ بعد التقى إلى الفتكِ
٢ - جَمَّشَ قلبي مُقَرْطَقٌ غَنِجٌ ... بدا لقلبي فيه من النسك
٣ - رمى فؤادي بسهمِ مُقْلَتِهِ ... وكيف يُخْطي مولَّدُ الترك

الأبيات ١ - ٣ في الذخيرة ٤ : ٥١٢ والشريشي ٥ : ٣٠٥.

- ٨٠ -

ومن أحسن ما وقع إليّ في وصفها (أي المعرة) أبيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن المغربي:

١ ـ ما على ساكني المعرةِ لو أنَّ دياراً نبتْ بهمْ أو طلولا
٢ ـ يسكنون العُلا معاقلَ شُمّاً ويرون الآدابَ ظلاً ظليلا
٣ ـ منزلُ شاقني أنيسٌ وما كا ن رسوماً نواحلاً وطلولا
٤ ـ حيثُ يُدْعَى النسيمُ فظّاً وَيُلْفَى سَبَلُ الغادياتِ شكساً بخيلا
٥ ـ أينما تلتفتْ تجدْ ظلَّ طوبى وتجدْ كوثراً أغرَّ صقيلا
٦ ـ تربها طيِّبَ الشبابَ فما يَصْـ ـحَبُ إلا السرورَ فيها خليلا
٧ ـ فترى اللهوَ إن أردتَ طليقاً والتقى إن أردته مغلولا
٨ ـ وإذا ما اعتزى بها الأدبُ العذ ريُّ جاءوا عمارةً وقبيلا
٩ ـ ليتَ لا يعنفُ السحابُ عليها ليته جادها عليلاً كليلا
١٠ ـ وسلامٌ على بنيها ولا زا ل نعيمُ الحياةِ فيهم نزيلا

الأبيات ١ ـ ١٠ في بغية الطلب (آيا صوفيا: ٣٠٣٦): ١٧٨ (سيزكين: ١٧٣) وتعريف القدماء: ٥٩١ ـ ٥٩٢.

- ٨١ -

وقال في الإمام عليّ

١ ـ أيا غامصين المزايا الجليلَهْ من المرتضَى والسجايا الجميلَهْ
٢ ـ ويا غامضين عن الواضحاتِ كأنَّ العيونَ لديها كليله
٣ ـ إذا كان لا يعرفُ الفاضلين إلا شبيههمُ في الفضيله
٤ ـ فمن أين للأمةِ الإختيارُ عفاً لعقولكمُ المستحيله
٥ ـ عرفنا عليّاً بطيبِ النجارِ وَفصلِ الخطابِ وَحُسْنِ المَخِيلَهْ

٦ ـ تطلَّـع كالشـمس رأْدَ الضحى   بفضــلٍ عميم وأيدٍ جزيله
٧ ـ فـكان المقـدَّمَ بعــد النبيِّ   علـى كل نفسٍ بكلِّ قبيله

الأبيات ١ ـ ٧ في أعيان الشيعة ٢٧ : ٢٥ نقلاً عن البدائع.

ـ ٨٢ ـ

وقال

١ ـ يا ابنَ الذي بلسانِهِ وبيانِهِ   هُدِيَ الأنـام وَنُــزِّلَ التنزيلُ
٢ ـ عن فضله نطق الكتابُ وَبَشَّرَتْ   بقدومِهِ التوراةُ والإنجيل
٣ ـ لولا انقطاعُ الوحي بعدَ محمدٍ   قلنـا محمــدُ من أبيه بديل
٤ ـ هو مثلُهُ في الفضلِ إلا أنه   لم يأتِـهِ برسالـةٍ جبريل

الأبيات ١ ـ ٤ في مناقب ابن شهراشوب وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٧.

ـ ٨٣ ـ

وقال

١ ـ بعدوا فلا مستخْبِرٌ عن حالهم   غيري ولا مستخْبَـرٌ مسؤولُ
٢ ـ لم يبقَ غير العذلِ من أسبابهم   فأحـبُّ من يدنـو إلـيَّ عذول
٣ ـ الليلُ عندي والنهارُ كأَدْهَمٍ   لا غُرَّةٌ فيه ولا تحجيل

الأبيات ١ ـ ٣ في التكملة : ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

ـ ٨٤ ـ

وقال

١ ـ ترنَّـمَ جاري والمـدامُ تهزُّه
ترنُّـمَ قمـريٍّ بفرعـةِ ضالِ

٢ ـ فجاوبتُهُ من زفرتي بمغرِّدٍ
وناوبته من أدمعي بسجال

٣ ـ وقلتُ له يا جارُ هل أنتَ آمنٌ
تفرُّقَ أحبابٍ وحربَ ليال

٤ ـ يَهِيجُ ليَ الذكرى هزاجُكَ كلَّما
هزجتَ فَيَشْقَى في نعيمك بالي

٥ ـ لئن جمعتْ بيني وبينكَ حليتي
لقد فرَّقتْ بيني وبينك حالي

٦ ـ تذكرتُ دارَ الحيِّ إذ أنا باسطٌ
ظلالي ومجموعٌ لديَّ رجالي

٧ ـ وإذ أنا بين الناسِ منزعُ آملٍ
لبثٍّ نوالٍ أو بناءِ معالي

٨ ـ لعمري لقد أسهلتُ في الأرضِ بعدما
تزحزحَ عن ريبِ الزمانِ جبالي

الأبيات ١ ـ ٨ في بغية الطلب ٥: ٢٢.

ـ ٨٥ ـ

وقال

١ ـ أدرْ كاسَ المدامِ فإنَّ قلبي أُتيحَ له عن التقوى ارتحالُ
٢ ـ حللتُ ببابلٍ وأردت ألاّ أهيمَ بسحرهمْ، هذا محال(١)

البيتان ١، ٢ في الذخيرة ٤: ٥٠٩ وتاريخ المسبحي ٢٣٣/ أ.

---

(١) المسبحي: وطمعت ألا.

- ٨٦ -

وله من قصيدة في حسان بن مفرج الطائي

١ - فإني أتيتُ ابنَ الكريمِ مُفَرّجٍ   فأطلق من أسرِ الهمومِ عقالي

البيت في العقد الثمين ٤ : ٧٠.

- ٨٧ -

وقال

١ - وأعتسفُ الخصمَ الألدَّ بمنطقي   فيبلغُ ما لا يبلغُ الحقُّ باطلي
٢ - بحيث جفاني الأقربون وكلُّهُمْ   شهيدٌ وأضحى ناصري مثلَ خاذلي
٣ - لدى مَلِكٍ يكمي لخصميَ نُصْرَةً   وأعيا عليه خَتْلُ ثبتٍ مُمَاحِلِ
٤ - إذا أنصلتْ آراؤه سَهْمَ حجةٍ   تمهَّلَ أو يرمي به في المقاتل
٥ - فلا عند إكثاب الرميّةِ صامتٌ   ولا في ضجاجِ اللغوِ أولُ قائل

الأبيات ١ - ٥ في أدب الخواص: ٨١.

- ٨٨ -

وقال مادحاً

١ - حتى إذا ما أراد الله يُسعدني   رأيتُهُ فرأيتُ الناسَ في رجلِ

البيت في معاهد التنصيص ٤ : ٨٢، وتحرير التحبير: ٤٧٨، وجوهر الكنز: ١٦٠.

- ٨٩ -

وقال

١ - كساني الهجرُ ثوباً منْ   نحولٍ مُسْبَلِ الذَّيْلِ[1]

---

(١) الوافي: كساني الحب.

٢ ـ وما يعلمُ ما أُخفي من الدمعِ سوى ليلي[1]
٣ ـ وقـد أرجفَ بالبينِ فإنْ صحَّ فوا ويلي

الأبيات ١ ـ ٣ في الدمية ١: ٩٥ وتاريخ المسبحي ٤: ٢٣٤ ب والوافي ١٢: ٤٤٦.

ـ ٩٠ ـ

وأوصى أن يحمل إلى مشهد الحسين بن علي ويدفن تحت رجلي الحسين وأن يكتب عند رأسه هذان البيتان، وهما له:

١ ـ سقـى الإلـه الأزلي من السحـاب الهطل
٢ ـ قبـر الحسين بن علي عنـد الحسين بن علي

مرآة الزمان ١٢: ٤٨ ب.

ـ ٩١ ـ

وقال

١ ـ ولـي جارةٌ لا يُلِـمُّ الكَرَى بأجفانهـا الدُّعْـجِ فيمـا يُلِمْ
٢ ـ تـردُّ فضـولَ أحادِيثِهَا إلـى ضَحِـكٍ لم يُعَوِّقْـهُ هم
٣ ـ وآوي بوجـدي إلـى زفرةٍ تكادُ تبـلُّ لهاتـي بدم
٤ ـ فيا جارتـي بُعْدَما بيننا ومـا كان بيتُـكِ منّـي أَمَمْ
٥ ـ فأُقسـم لو في يدَي مهجتي لأعفيتُهـا من مِطـالِ الألم
٦ ـ ولكنَّهـا في يديْ مالكٍ إليه الشفـاءُ ومنـه السقم
٧ ـ هـو المحسـنُ البَـرُّ في ما قضاهُ والحـاكمُ العـدلُ في ما حكم
٨ ـ وإنـي وإن حجبتنـي الذنوبُ فمنـي السـؤالُ ومنـه الكرم

الأبيات ١ ـ ٨ في تاريخ المسبحي: ٢٣٣ ب ـ ٢٣٤/ أ.

---

(١) المسبحي: وما يعلم إلا الدمع ما أحببت من ليلي (اقرأ: ما أخفيت في ليلي).

ـ ٩٢ ـ

وقال مادحاً

١ ـ ويعدلُ في شرقِ البلادِ وغربها　　على أنـه للسيفِ والمـالِ ظالمُ

البيت في تحرير التحبير: ١٣٣.

ـ ٩٣ ـ

وكتب إلى الحاكم يقول ـ بعد أن قتل الحاكم أباه علياً وعمه محمداً:

١ ـ وأنت، وحسبي أنت، تعلم أنَّ لي　　لساناً وراءَ المجدِ يبني ويهدمُ[١]

٢ ـ وليس حليماً من تُقبِّلُ كفَّه　　فيرضَى ولكنْ من تَعَضُّ فيحلم[٢]

البيتان ١، ٢ في بغية الطلب ٥: ٢٤، ٢٥ وسير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٩٦ وخطط المقريزي ٢ : ١٥٨.

ـ ٩٤ ـ

وقال في سوداء

١ ـ يا ربَّ سوداءَ تَيَّمَتْني　　يَحْسُـنُ في مثلهـا الغرامُ

٢ ـ كالليل تُستَسْهَـلُ المعاصـي　　فيه ويُسْتَعْـذَبُ الحرام

البيتـان ١، ٢ في الغيث ٢ : ١٦١ (٢ : ٢٧٣) ومعاهد التنصيص ٢ : ٧٠.

ـ ٩٥ ـ

وقال في التوبة

١ ـ كنتُ في سَفْـرَةِ البطالةِ والغيي　　زمانـاً فحـان منـي قدومُ[٣]

---

(١) البغية (٢٥) : أمام المجد.

(٢) البغية (٢٥) : من تباس يمينه.

(٣) ياقوت وابن خلكان والوافي والداودي: كنت في سفرة الغواية والجهل مقيماً؛ المنتظم: البطالة والجهل.

٢ ـ تبتُ عن كلِّ مأثم فعسى يُمْـ ـحَى بهذا الحديثِ ذاك القديم
٣ ـ بعد خمسٍ وأربعين لقد ما طلتُ إلا أنَّ الغريمَ كريم[1]

الأبيات ١ ـ ٣ في الذخيرة ٤ : ٥١٤ وياقوت ١٠ : ٨٢ والمنتظم ٨ : ٣٣ ومرآة الزمان ١٢ : ٤٨/ أ وابن خلكان ٢ : ١٧٦ ومجموعة ورام ١ : ٣٠٠ (١، ٣، ٢) والوافي ١٢ : ٤٤٣ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٣ وطبقات الداودي ١ : ١٥٤ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٧ والبيتان الأول والثاني في الشريشي ٥ : ٣٥٧ (لابن المعتز).

ـ ٩٦ ـ

وقال يرثي أباه وعمه وأخاه

١ ـ تركتُ على رغمي كراماً أعزَّةً بقلبي وإن كانوا بسفحِ المقطَّمِ
٢ ـ أراقوا دماهم ظالمين وقد دَرَوْا وما قتلوا غَيْرَ العلا والتكرم
٣ ـ فكم تركوا محرابَ آيٍ معطَّلاً وكم تركوا من ختمةٍ لم تُتَمَّمِ

الأبيات ١ ـ ٣ في معجم البلدان ٤ : ٦٠٩ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢١.

ـ ٩٧ ـ

وقال في مقتل أبيه وإخوته

١ ـ إذا كنتَ مشتاقاً إلى الطفِّ تائقاً إلى كربلا فانظرْ عراصَ المقطَّمِ
٢ ـ تجدْ من رجال المغربيِّ عصابةً مضرَّجةَ الأوداجِ تقطرُ بالدم[2]
٣ ـ فكم خلَّفوا محرابَ آيٍ معطَّلاً وكم تركوا من ختمةٍ لم تتمَّم

الأبيات : ١ ـ ٣ في الاشارة : ٤٧ والبيتان ١، ٢ في معجم البلدان ٤ : ٦٠٩ والبيت ٣ ورد في قطعة أخرى، انظر ما تقدم رقم : ٩٦ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢١.

---

(١) الذخيرة والبداية : بعد سبع ؛ ورام : لولا أن.
(٢) ياقوت : مضرجة الأوساط والصدر.

- ٩٨ -

وقال

١ - ولقد بلوتُ الدهرَ أعجمُ صَرْفَهُ   فأطاع لي عصيانُـهُ وَلِيَانُهُ
٢ - ووجدتُ عقلَ المرءِ قيمةَ نفسِهِ   وبجدِّهِ جدواهُ أو حرمانه
٣ - فإذا جفاه المجدُ عِيبتْ نفسُهُ   وإذا جفاه الجَدُّ عِيبَ زمانه

الأبيات ١ - ٣ في المنتظم ٨: ٣٢.

- ٩٩ -

وقال

١ - لي كلّما ابتسم النهارُ تعلَّةٌ   بمحدِّثٍ ما شانُ قلبي شانُهُ
٢ - فإذا الدجى وافَى وأقبلَ جُنْحُهُ   فهناك يدري الهمُّ أينَ مكانُهُ

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠: ٨٦ والوافي ١٢: ٤٤٤ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٣.

- ١٠٠ -

كان بين سليمان بن فهد وبين أبي القاسم المغربي عداوة، وقتل سليمان نفسه في نكبة ومصادرة طلب بها فقال المغربي يرثيه[1]:

١ - يا ابنَ الكرامِ أرى الغما   مَ تمرُّ بي ولها حنينُ
٢ - ولْهَى فتلتدمُ الرعو   دُ لها وتسودُّ الدجون
٣ - أترى لها بالمَوْصِيل الـ   ـغراءِ مفقودٌ دفين
٤ - قَبْرٌ جفاهُ الأقربو   نَ وباع خُلَّتَهُ القرين
٥ - عجباً له ضمَّ البلا   غةَ وهو أخرسُ ما يُبين

(١) قد تقدم الحديث عن سليمان بن فهد وكيف طالبه قرواش بالمال، وفي إحدى الروايات أنه مات تحت الضرب، وفي أخرى أنه هرب إلى نصر الدولة ثم أصلح حاله مع قرواش. ولم يكن فيما أخبرت به الروايات عدواً للوزير أبي القاسم.

٦ ـ نَصَرَ المنونَ ولو يشا ءُ لما تجاسرتِ المنون
٧ ـ وتحكَّمتْ فيه يميـنٌ لا يجاريها يمين
٨ ـ لو غيرُ كَفِّكَ ساورَتْـ ـكَ لردَّها كيدٌ زَبُون
٩ ـ وعزائمٌ يعيا اللبيـ ـبُ بها أعقلٌ أم جنون
١٠ ـ وهواجسٌ كانت طلا ئِعَها على الغيبِ الظنون
١١ ـ تبكي عليكَ ولو تعيـ ـشُ إذن بكت منك العيون

ثم أثارته العداوة فقال:

١٢ ـ إيهاً سليمانُ بنَ فهـ ـدٍ والحديثُ له شجونُ
١٣ ـ أفمالِكٌ لكَ مالكٌ أم أنت موقوفٌ رهين
١٤ ـ أم أنت منتظرٌ فأنـ ـت لنارِهِ نعمَ الزبون

الأبيات ١ ـ ١٤ في التذكرة الحمدونية: ١٢٣ (الورقة: ٢٢).

ـ ١٠١ ـ

وقال في أول ليلة في القبر

١ ـ إنـي أبثُّك من حديـثي والحـديثُ له شجونُ
٢ ـ فارقتُ موضع مرقدي ليلاً ففارقني السكونُ[1]
٣ ـ قـل لي فأوَّلَ ليلةٍ في القبر كيف تُرَى أكونُ[2]

الأبيات ١ ـ ٣ في ياقوت ١٠: ٨٩ ـ ٩٠ والمرآة ١٢: ٤٨/ أ ـ ب وابن خلكان ٢: ١٧٤ وطراز المجالس: ٢٢٨ وبغية الطلب ٥: ٢١ وتهذيب ابن عساكر ٤: ٣١١ والوافي ١٢: ٤٤٤ ـ ٤٤٥ ونفح الطيب ١: ١٢٠ وتتمة اليتيمة ١: ٢٤ ـ ٢٥ وأعيان الشيعة ٢٧: ١٩ ـ ٢٠، والبيتان ٢، ٣ في المستطرف ٢: ٩٨ (دون نسبة).

(١) ابن عساكر والمرآة والمستطرف: غيرت؛ طراز وابن عساكر والمرآة والتتمة: فنافرني السكون؛ المستطرف: يوماً؛ البغية: موضع موطني.
(٢) المستطرف: في حفرتي أنى أكون.

- ١٠٢ -

وقال في قلة الأصدقاء

١ - أَنِسْتُ بوحدتي حتى لو آنّي ... رأيتُ الإنسَ لاستوحشتُ منه
٢ - ولم تدعِ التجاربُ لي صديقاً ... أميلُ إليه إلا مِلْتُ عنه
٣ - وما ظفرتْ يدي بصديقِ صدقٍ ... أخافُ عليه إلاّ خفتُ منه

البيتان ١، ٢ في الشهاب الثاقب: ٣١ والثالث في غرر الخصائص: ٤٦٣.

- ١٠٣ -

وقال

١ - لو كنتُ أعرفُ فوق الشكرِ منزلةً ... أعلى من الشكرِ عند الله في الثمنِ
٢ - إذاً منحتكما منّي مُهَذَّبَةً ... حذواً على حَذْوِ ما واليتُ من حَسَنِ

البيتان ١، ٢ في ياقوت ١٠: ٨٧ وأعيان الشيعة ٢٧: ٢٤.

- ١٠٤ -

ومما وجد بخطّه وكان شديدَ العصبية للأنصار ولقحطان قاطبة على عدنان، وكان ينتمي إلى الأزد - أزد شنوءة:

١ - إنَّ الذي أرسى دعائمَ أحمدٍ ... وعلا بدعوته على كيوانِ
٢ - أبناءُ قيلةَ وارثو شَرَفِ العلا ... وعراعرُ الأقيالِ من قحطان
٣ - بسيوفهم يومَ الوغى وأكفّهم ... ضَرَبَتْ مصاعبُ مُلْكِهِ بجران[1]
٤ - لولا مصارعهم وصدقُ قِراعِهِمْ ... خرَّتْ عروشُ الدينِ للأذقان

---

(١) المصعب: الفحل من الجمال يعفى من الركوب؛ وضرب البعير بجرانه: برك.

٥ ـ فليشكرنَّ محمدٌ أسيافَ مَنْ   لولاه كان كخالـدِ بن سنان[1]

الأبيات ١ ـ ٥ في شرح النهج ٢٠ : ١٨٥ .

ـ ١٠٥ ـ

وقال في الصديق ذي الوجهين

١ ـ أيَّ شيءٍ يكونُ أقبحَ مرأىً   من صديقٍ يكونُ ذا وجهينِ

٢ ـ من ورائي يكونُ مثلَ عدوّي   وإذا يلقنـي يقبِّـلُ عيني

البيتان ١، ٢ في غرر الخصائص: ٤٧٥.

ـ ١٠٦ ـ

وقال

١ ـ ديونُ المـكارمِ لا تُقْتَضَى   كمـا تقتضـى واجبـاتُ الديونِ

٢ ـ ولكنهـا في صدورِ الكرامِ   تجـولُ مجـالَ القـذى في العيونِ

البيتان ١، ٢ في نكت الوزراء: ٥٧ب.

ـ ١٠٧ ـ

وقال

١ ـ صلّى عليكَ اللهُ يا مَنْ دنا   من قاب قوسين مقـامَ النبيهْ

٢ ـ أخوك قد خولفتَ فيه كما   خولفَ في هارونَ موسـى أخيه

٣ ـ هل برسولِ اللهِ من أسوةٍ   لم يقتـدِ القـومُ بمـا سنَّ فيه

الأبيات ١ ـ ٣ في أعيان الشيعة ٢٧ : ٢٥ نقلاً عن البدائع قال: وهي أطول من هذا.

---

(١) خالد بن سنان فيما قيل نبي من العرب بعث في الفترة (بين عيسى ومحمد)، وعلّق ابن أبي الحديد بقوله: «هذا إفراط قبيح ولفظ شنيع، والواجب أن يصان قدر النبوة عنه فإنه قد أساء فيه الأدب، وقال ما لا يجوز قوله».

- ١٠٨ -

وقال في الخمر

١ - كأسُ مُدامٍ صددتُ عنها   لله، والنفسُ تشتهيها
٢ - قال عليٌّ وكان عدلاً   قد طُبِخَتْ قلتُ فاسقنيها
٣ - فالآن إذ عُذِّبَتْ قليلاً   فَدَتْ من النارِ شاربيها

الأبيات ١ - ٣ في تاريخ المسبحي: ٢٣٤ب.

- ١٠٩ -

وقال

١ - وكل امرىءٍ يدري مواقعَ رُشْدِهِ
ولكنه أعمى أسيرُ هواهُ
٢ - هوى نفسهِ يعميهِ عن قُبْحِ عيبه
وينظرُ عن حِذْقٍ عيوبَ سواه

البيتان ١، ٢ في سير أعلام النبلاء ١٧: ٣٩٥ - ٣٩٦.

- ١١٠ -

وقال

١ - ولاعبٍ بالهوى يؤمِّلُ أن   يُظْهِرَ لي جفوةً وأهواه
٢ - قلتُ لقلبي وقد تتبَّعَهُ   يا قلبُ إما أنا وإما هُوْ

البيتان ١، ٢ في تاريخ المسبحي ٢٣٣/ أ وأدب الخواص: ٧٥.

- ١١١ -

وله من مرثية في صهره الشريف أبي الحسن

١ - يا ناعيَ الدينِ والدنيا أشِدْ بهما
مِن حيثُ سالَ بآلِ الله واديهِ

٢ - هذي معالي قريشٍ غاض آخرها
ومجدُ هاشمَ زار التربَ باقيه

٣ - قل يا أبا حسنٍ والقولُ ذو سعةٍ
لولا حجابٌ من الثرياءِ يثنيه

٤ - أآخرُ الدهرِ أم تحيى عواطفه
وفيصلُ البينِ أم يُرْجَى تلافيه

٥ - كلا لقد فات منك الوصلُ آمِلَهُ
مذ شيَّد الجدثَ المأمولَ بانيه

٦ - هنّيت ربعاً برغم المجدِ تسكنُهُ
تلقى أباك علياً في مغانيه

٧ - إنْ أَخْلُ بعدك بالدنيا أروّضها
فقد خلا بضميرِ النبعِ باريه

٨ - هل كنتَ تعلمُ إذ عوّدتني أبداً
حُسْنَ التصبّر أني فيكَ أفنيه

الأبيات ١ - ٨ في الذخيرة ٤ : ٥١٣.

- ١١٢ -

وقال

١ - عجباً لقلبي وهو نارٌ كيف لا يؤذيكَ معْ طولِ الاقامةِ فيهِ

البيت في تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣١١ وأعيان الشيعة ٢٧ : ٢٣.

- ١١٣ -

وله في دولاب

١ - عَبْدُكَ يا عبدونُ في نعمةٍ صافيةٍ أذيالُهَا ضَافِيَهْ

٢ - نديمتي جاريةٌ ساقيهْ ونزهتي ساقيةٌ جاريهْ

البيتان ١، ٢ في الأفضليات: ٨٠ والبديع في نقد الشعر: ٥٠ ونكت الوزراء: ٥٧/ أ.

- ١١٤ -

وقال

١ - صيَّرني حُبُّكَ يا غزالَ أهلِ الجابيهْ

٢ - أبا نواسٍ بعد ما كنتُ أبا العتاهيهْ

البيتان ١، ٢ في تاريخ المسبحي ٢٣٤ ب - ٢٣٥/ أ.

- ١١٥ -

وقال متغزلاً

١ - عُلِّمت منطقَ حاجبيهِ والبينُ ينشرُ رايتَيْهِ

٢ - وعرفتُ آلاتِ النعيمِ بقبلةٍ في عارضيه[١]

٣ - فكأنّه في الموجِ قلبي بين أشواقٍ إليه[٢]

٤ - ولقد أراهُ في الخليجِ يشقُّهُ من جانبيه[٣]

٥ - والماءُ مثلُ السيفِ وهو فِرِنْدُهُ في صفحتيه[٤]

---

(١) الريحانة: أسباب النعيم.

(٢) الريحانة: في الماء.

(٣) الشريشي: في الغدير.

(٤) الدمية والوافي: والنهر مثل السيف.

٦ ـ لا تشربـوا من مائِهِ　　أبـداً ولا تَرِدُوا عليه
٧ ـ قد ذاب فيه الحسنُ من　　حَرَكَاتِـهِ أو مقلتيه[1]
٨ ـ والسلمُ أسلمُ فاحذروا　　من فَتْـرَةٍ في ناظريه
٩ ـ صبغتْ بياضَ النيل حمـ　　ـرة وردةٍ في وجنتيه[2]
١٠ ـ ها قد رضيتُ من الحيـ　　ـاةِ بنظرةٍ منّي إليه[3]

الأبيات ١، ٢، ٣ ـ ٩ في الذخيرة ٤ : ٥٠٨ والأبيات ١، ٤ ـ ٨، ١٠ في الدمية ١ : ٩٤ والوافي ١٢ : ٤٤٥ والأبيات ٤، ٥، ٩ في الشريشي ٣ : ١٢٠، والأبيات ١٠، ٢، ٤، ٥، ٣، ٦، ٧، ٩ في ريحانة الألباء ٢ : ٤٧٦، والأبيات ١، ٤ ـ ٧، ١٠ في أعيان الشيعة ٢٧ : ٢١.

(١) الدمية والوافي: قد دب فيه السحر من أجفانه؛ الريحانة: ذاب فيه السحر.
(٢) الريحانة: بياض الماء صبغة حمرة.
(٣) الريحانة: إني رضيت. . . بأسرها نظري إليه.

٥

ما تبقى من رسائله وبعض آثاره الاخرى

- ١ -

رسالة له في الردّ على من تحداه
في معاني بعض الألفاظ الغريبة(١)

قال ابن بسام: لما دخل البطيحةَ وبها أبو القاسم هبةُ اللهِ بن عيسى(٢) [وزير] مهذّبِ الدولة، وكان من أفاضل أهلِ وقتِهِ، فدخل إلى ابنِ المغربيّ رجلٌ يُعْرَفُ بسليمانَ بن الربيع، وسلَّم إليه قصيدةً قد بُنِيَتْ على السؤالِ عن ألفاظٍ من اللغة على جهةِ الامتحانِ لمعرفته، فلما وقف عليها امتعضَ في الحال، وأحفظه ما لقيَ من التعدّي والسؤال، ونَسَبَ ذلك إلى فعل أبي القاسم وزير مهذّب الدولة البطيحيّ، فكتب عَقِبَ الوقوف(٣) على ذلك لوقته جواباً أثبتُّ بعضَ فصوله، لطوله، بعدَ هذه الأبياتِ المذكورة:

يا أفضلَ الأدباء قو لاً لا تعارضُهُ الشكوكْ

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٤: ٤٧٩ - ٤٩٦.

(٢) ذكر ابن الأثير (٩: ٢٥٢) أنه توفي سنة ٤٠٦ وقال فيه «كان من الكتاب المفلقين، ومكاتباته مشهورة. وكان ممدحاً، وممن مدحه ابن الحجاج».

(٣) ص: عقب الدولة.

لا العلمُ ناءٍ من حجا ك إذا نطقتَ ولا فَرُوكْ
عرضتْ مسائلُ أنت للـ ـفتوى بمشكلها دَرُوكْ
ما الحيُّ والحيّوتُ أم ما جِلْبِحٌ نِضْوٌ بَرُوكْ
أمْ ما ترى في برْقِعٍ رقشاءَ مجهدها حبيك
أم ما الصَّرَنْقَحُ والزَّريـ ـرُ وما الملمّعةُ النَّهوك
ولك الدرايةُ والبصيـ ـيرةُ في مداحيها السّهوك
وأبنْ لنا ما خمططٌ أبداً بأمْرِغةٍ معيك
أو ما اعتنانةُ فَرْهَدٍ فيه الملامةُ لا تحيك
أم ما ترفُّلُ [هَبْرَجٍ] ترتبٌ مِرْسَنَةُ هلوك
ولربَّ ألفاظٍ أتتـ ـك وفي مطاويها حلوك
فارفقْ بنشرك طيَّها وانظر بذوقك ما تلوك
هذا وقد لَذِمَتْ فُؤا دي خرْمِلٌ هِرْطٌ ضحوك
دعكنَّة نظرنَّةٌ في خيْسِ غانظها شكوك
تغدو وخرفعها المذيَّـ ـلُ في طوائفِهِ : سُدُوك
وأراكَ ما لك مشبهٌ في ما علمتَ ولا شريك
حقاً لقد حُزْتَ العلو مَ حيازةَ العلم الضريك

فأجابه ابنُ المغربيّ برقْعةٍ قال فيها: وقفتُ على ما ذكرتَ أنَّ بعضَ أهلِ الأدب كلّفكَ المسألةَ عن شعرٍ وجدتَهُ، لا أحبُّ أن أقولَ في صناعته شيئاً، مشتملاً على ألفاظٍ من حوشيّ اللغةِ لا يَتَشاغلُ بمثلها أهلُ التحصيل، ولا يتوفَّرُ على تأمّلها إلاّ كلُّ ذي تأمُّلٍ عليل، لخروجها عما ينفعُ في الأديان، ويعترضُ في القرآن، ولمباينتها ما يجري في المذاكرة، وتُستخدم فيه المحاورة. وزاد في عجبي منها صَدَرُها عن البطيحةِ وفيها الأستاذ[1] الفاضلُ

(١) ص: من الأستاذ، ولعلها «مثل الأستاذ».

هبةُ الله بحرُ الأدبِ الذي عَذُبَتْ مواردُهُ ومصادرُهُ، وريُّ العقول الظماء، وطبُّ الجهلِ المستغمر الداء[1]، والبابُ الذي يفتحُ عن الدهر تجربةً وعلماً، والمرآةُ التي تُتَصَفَّحُ بها أوجُهُ الأيام إحاطةً وفهماً.

وفي فصل: فإن كانَ الغرضُ في هذه الأبياتِ الخرابِ، المقفرةِ من الصواب، طلبَ الفائدةِ، فقد كان يجبُ أن يُنَاخَ عليه بِمُقْفَلها، وَيُقْصَدَ إليه بِمُعْضلها، فعندَهُ مفتاحُ كلِّ مسألةٍ مُقْفَلة، ومصباحُ كلِّ داجيةٍ مُشْكِلَة؛ بل لستُ أَشُكّ أنَّ هذا السائلَ لو جاوره صامتاً عن استخباره، وعكفَ على ذلك الجَنَابِ كأنَّما لجأ في طيٍّ إضماره، لأعداهُ رقةُ نسيمِ أرضه، وهذَّب[2] خاطِرَهُ التقاطُ لفظه، حتى يغنيَهُ الجوارُ عن الحِوار، والاقترابُ عن رَجْعِ الجواب؛ وإن كان قصدَ الامتحانَ للمسؤول، وتعرَّض لهذا الموقفِ الزَّحُول، فذلك أعجبُ: كيف لم يتأدَّبْ بآدابه الصالحة، ويَعْتشي إلى هدايتِهِ الواضحة.

وفي فصل: وكيف لم يعلمْ هذا العِرِّيضُ المكلَّف ـ بما أُعْطِيَ من سعادة مكاثَرَتِهِ، وسيق[3] إليه من بَرَكة صحبته ـ أن هذا التعريض كما قال المخزوميّ لعبد الملك بن مروان وقد[4] لقيه في طريق الحجاز: بئستْ تحيةُ الغريبِ من القاطنين، ولؤُمَتْ هديَّةُ الوافدِ من المقيمين، وقد كان حقُّ الغريب بينكم أن يكثرَ قليلُهُ، وَيُسَدَّ ذريعه، وَيُعارَ من معالي الصفاتِ ما يُؤْنِس غُرْبَتَه، ويصدِّقُ مخيلَتَهُ. وعلى أنّه لو كان قد احتبى للجدال، وركبَ للنزال، لما كان في عزوبِ[5] كلماتٍ من حوشيّ اللغةِ عن ذكره، ما يدلُّ على

---

(١) ص: المستعمل اللاآء.
(٢) ص: وهذبت.
(٣) ص: وساق.
(٤) ص: ولقد.
(٥) ص: غروب.

قِصَر باعه، وقلّةِ اطلاعه، ويا عجبا للفراغ كيف يسوّغ لهذا المغترّ أن يجاريَ بخلوّ ذَرْعِهِ تَقَسُّمَ أفكاري، وكيف أنساهُ اجتماعُ شمله بُعْدَ دياري، وكيف أذهلَهُ حضورُ أحبّته عن مغيبِ أفلاذِ كبدي، وكيف طرفت نواظرَهُ سكرةُ الحظِّ عن تصوّر ما يُجِنُّ خلدي، وكيف لم يدر ما لي من ألحاظٍ مُقَسَّمة، وظنونٍ مُرَجَّمة، وقد تكلّفْتُ الإجابةَ لما تَضَمَّنَتْهُ الأبياتُ انقياداً لمرادك، ومقتصرَ الرأي على إسعادك، أجرُّ أقلامي جرّاً وهنَّ نواكل، وأنبّهُ قرائحي وهنَّ في غَمَرات الهموم ذواهل:

قال السائل: «إن المسؤولَ دَرُوكٌ لتلك الفتوى، ومستحقّ بها للرتبة العليا» وَدَرُوكٌ لا يجوز هنا لأنَّ فَعولاً يكونُ من أفعل، ولو جاز ذلك لجاز «حَسُون» من «أحسن» و «جَمُول» من «أجمل». وما نحبُّ استيفاءَ القولِ في هذا الزلل، ولا نستفتحُ كلامنا بالمناقشة في السَّهْوِ والخَطَل، ولعلَّ القائلَ أُوهم حَمْلاً على قراءةِ حَفْص ﴿في الدَّرْكِ الأسْفَلِ منَ النّارِ﴾ (النساء: ١٤٥) فظن أن الدَّرْك بوزنِ فَعْل، وأنّ فَعْلاً مصدرُ فَعَلَ يفعل، ولم يجعله من الدَّرَك، لأن الفتح عندهم لا يخفف، لا يقولون في جَمَل «جَمْل»، وذهب عنه أن يكون اسماً مبنياً مثله وإن لم يكن مخففاً منه كما قالوا: «دِرَكَةٌ وَدِرْكَةٌ» في حَلْقَةِ الوتر التي تقع في فُرْضَةَ[1] القوسِ، فخففوا وحرّكوا، وعلى أنهما لو كانا مصدرين لجاز أنْ يبنيا على الشذوذ ولا يحمل عليهما ما يُبْنَى من الفعل، لأن الشذوذَ ليس بأَصْلٍ يقاس عليه. ولعله اغترَّ بقولهم: «درَّاك» ـ بالشدِّ ـ وهو شاذٌ لأنهم قد [بنوا] أَفعل من فعَّل، وهو قليل، قالوا فطَّرته فأفطر، وبشَّرْته فأبْشَرَ، فجاز على هذا درّكته فأَدْرَكَ، قال سيبويه: وهذا النحو قليل في كلامهم. ولعله ذهب إلى قولهم: «دَرَاكِ» مثل «نَزَالِ» فظنَّ أنه يقال منه «دَرَكَ» كما يقال من «مَنَاع» و «نَزَال»: مَنَعَ وَنَزَلَ. وذهب عنه [أنه] قد جاء

(١) ص: فرض.

الرباعي في هذا الباب، قالوا: قرقار وعرعار، في معنى قرقر وعرعر. فأما الفرق بين الرباعي والثلاثي، فسيبويه يرى إجازة «فَعالِ» في موضعِ فعلِ الأمرِ الثلاثيّ كله، ويمنعه في الرباعيّ إلا مسموعاً، وقال غيره من النحويين: بل هما ممنوعان إلا مسموعين، واعتمد سيبويه في الفرق على كثرةِ الثلاثيّ، وقلَّةِ ما جاء في الرباعي. أو لعله أصغى إلى قول الآخر[1]:

إن يكشِفِ اللهُ قناعَ الشكِّ فهو أحقُّ منزلٍ بِدَرْكِ

فذهب إلى أن «دَرْكاً» مصدرٌ، ولم يعتقدْ أنه كما قرأ حَفْصٌ بالاسكان. أو لعله عَلِقَ سمعه [قول] العتبي:

إذا قلت أوفى أدركتْهُ دروكةٌ فيا موزعَ الخيراتِ بالعُذْرِ أَقْصِرِ

وما أعرفُ له حجةً أقوى منه. أو لعله أراد بقوله: دروك من الدَّرَك مثل: لغوب، وهي لغة تكلَّمتْ بها العرب.

ثم بدأ السائل فسأل عن «الحيّ»، ولم أَقِفْ على صحَّة سؤاله لأني وجدتُ الأبياتَ مكتوبةً بخطٍّ عليل، وإن كان سأل عن «الحِيّ» ـ بكسر الحاء ـ فقد أنشدَ أهلُ العلم قولَ العجاج[2]:

وقد نرى إذ الحياةُ حِيُّ وإذ زمانُ الناسِ دَغْفَليُّ

فقال الحِيُّ من الحياة، والحُيُّ جمعُ حيّ، وأما كونُهُ على معنى الحياةِ فوزنه على فِعْل باختلاف.

---

(١) ورد في اللسان (درك):
بظفر من حاجتي ودرك فذا أحق منزل بترك
وفي التاج:
ان يكشف الله قناع الشك بظفر من حاجتي ودرك
فذا أحق منزل [بترك]

(٢) ديوان العجاج: ٤٨٦ واللسان والتاج (دغفل): والدغفلي من العيش: المخصب الواسع.

قال ابن بسام: ومدَّ أبو القاسم في هذا الجواب أطنابَ الإصناب ثم قال: «والحيّوت» الحية وَزْنُهُ فَعْلوت، والتاءُ فيه زائدة، وكثيراً ما تُزادُ خامسةً مثل عفريت، وإنما هو عفريٌّ.

و «الجلبَحُ» العجوزُ الكبيرةُ، وأنشدوا: «إنّي لأقلي الجِلْبَحَ العجوزا»

و «بِرْقِعُ»: السماءُ الدنيا، قال أمية بن أبي الصلت[1]:

وكأنَّ بِرْقِعَ والملائكُ حولها سَدِرٌ تَوَاكَلَهُ قوائمُ أربعُ[2]

و «الصَّرَنْقَح»: الشديدُ الخالصُ ولا يكونُ فَعَنْلَل إلا وصفاً لا اسماً، قال جران العود[3]:

ومنهنَّ غلٌّ مُقْمِلٌ لا يفكُّهُ من القومِ إلا الشَّحْشَحَانُ الصَّرنقحُ

و «الزِّرِيرُ» الذكيُّ والمتحذّر[4]، وكان شيخنا أبو أسامة[5] يخالفُ جميعَ اللغويين فيه ويقول: هو الزِرّير، ومنه اشتق اسم «زُرَارَةَ»، وقولُ أبي أسامة أصحّ.

و«الملمَّعة» الفلاةُ التي يَلْمَعُ فيها الآل، وفي مَثَلٍ: «أكْذَبُ من يَلْمَع»[6] وهو السراب، ومنه الألمعيُّ، كأنه يلمعُ العواقب بدقة فطنته، وأما اللوذعيّ فهو الذي يتلذَّعُ من شدة ذكائه. ويقال ألمعتِ الوحشيّةُ وغيرها إذا بان لِضَرْعها سِقَالٌ وبريقٌ باللبن، قال الأعشى[7]:

---

(١) ديوان أمية: ٣٥٨ واللسان (سدر) وتجيء قافية البيت أحياناً «أجرد» و «أجرب» وقال ابن بري: صوابه «أجرد» والقصيدة دالية. والجرد: الملاسة.

(٢) السدر: البحر. ولم يسمع به إلا في شعر أمية. تواكلته: تركته، والقوائم هنا: الرياح.

(٣) ديوان جران العود: ٨.

(٤) في اللسان والتاج أن الزرير هو الذكي الخفيف.

(٥) هو جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي (- ٣٩٩) كان مكثراً من حفظ اللغة. أخذ عن الأزهري وغيره، وقتله الحاكم العبيدي (انظر ابن خلكان ١: ٣٧٢ ومعجم الأدباء ٧: ٢٠٩ وبغية الوعاة ٢: ٤٨٨).

(٦) انظر المثل في الدرة الفاخرة: ٣٦٢ (وفيها تخريجه).

(٧) بيت الأعشى في اللسان والتاج (لوع) وديوانه: ٨.

مُلْمِعُ لاعَةُ الفؤادِ إلى جحـ ـشٍ فَلاَهُ عنها فبئسَ الفالي[1]

ويقال إن «لاعة» فَعْلة ومذكرها لاعٌ، وفي الحديث: هاعٌ لاعٌ، وقيل بل لاعة بوزن فاعلة، كان الأصل «لاعية» من اللعو، وهو أشدُّ الحرص، وبين الخليل وأهلِ النحو فيه خلاف يشقّ إحصاؤه.

و«النَّهوك» و «النَّهيك» و «النهاكة» معروفة.

و «البصيرةُ» الترسُ، قال الأسعر الجعفي[2] وليس بالأسعر[2] المازنيّ:

راحوا بصائرُهُمْ على أكتافِهِمْ وبصيرتي يعدو بها عَتَدٌ وَأَى[3]

والبصيرة: الدم؛ [والبصيرةُ: الدية] ومعنى البيتِ على هذا أنهم أخذوا الدياتِ ولم آخذْ، فركبتُ يعدو بي فرسي لطلبِ الثأرِ، ويكونُ هذا مشبهاً لقولهم:

.................[4] ورحتُ أجرُّ ثوبَيْ أرجوانِ

كلانا اختار فانظرْ كيف تَبْقى أحاديثُ الرجالِ على الزمانِ

والبصيرة في هذا الموضع: الحق.

و«المداحي» مُفاعِلٌ من الدَّحوِ وهو البَسْط، والدَّحْوُ أيضاً النكاح.

---

(١) قال الأصمعي: الملمع التي قد استبان حملها في ضرعها فأشرق ضرعها باللبن؛ وقال أبو عبيدة: ملمع: تتوج مقرب، لاعة الفؤاد أراد لائعة الفؤاد أي مستخفة من الحزن، ورجل هاع لاع وهائع لائع مشتاق إلى الشيء. والفالي: الطارد.

(٢) في ص: الأعسر؛ والأسعر الجعفي ـ ضبطه الآمدي بالسين المهملة ـ هو مرثد بن أبي حمران، وأورد له بيتين من قصيدته التي منها هذا البيت التالي وهي قصيدة أصمعية (الأصمعيات: ١٥٦) وانظر اللسان (عتد. وأي) والمعاني الكبير: ١٠١٣ والوحشيات رقم: ٥٧.

(٣) العتد: الفرس الحاضر المعدّ للركوب؛ الوأى: السريع المشدّد الخلق؛ وقال ابن قتيبة في شرح البيت: البصيرة، الدفعة من الدم أي دماؤهم قد خرجت فصارت على أكتافهم وبصيرتي في جوفي يعدو بها فرسي، يريد أنهم جرحوا. ويقال بل أراد أن الذي طلبوه من الذحول على أكتافهم لم يدركوه بعد، فهو ثقل عليهم، وبصيرتي أي ذحلي قد أدركت به.

(٤) لم أستطع قراءة هذا الشطر، وصورته في ص: عدا دل داء لهن حجة.

و «السَّهوك» من السَّهْكِ وهو السَّحْقُ، ويقال: ريح سَيْهُوكٌ وسَيْهُوجٌ، إذا كانت شديدةَ المرورِ والهبوب.

و«الخمطط»[1] هو الكِحْكِحُ، وهو الشيخُ الكبير.

و«المَرْغُ» الريقُ، يقال أحمق ما يجافي مَرْغَهُ، أي ما يمسك ريقه، والمرغ: التراب، في غير هذا.

و«مَعِيك» فعيلٌ بمعنى مفعول من المَعْكِ، وهو كالكنى.

وسأل عن الفَوْهَدِ، والفَوْهَدُ والثَّوْهَدُ: الغلامُ الممتلىء شباباً، وأنشدوا[2]:

تحبُّ منّا مُطْرَهِفّاً فَوْهَدا عِجْزَةَ شيخين غلاماً أمردا

ينشد بالثاء والفاء.

و «القِلْفِعُ»[3] الطينُ الذي يتقلَّعُ عن الكمأة، وفيها خلاف.

و «الهَبْرَجُ» من صفة بقر الوحش.

و«يرتبُّ» يفتعل، من ربَّ الأمرَ، أصلحه.

و «المِرْسَن» موضع الرسن.

و «الهَلوكُ» الفاجرةُ لأنها تتهالك في مشيتها أي تتمايلُ وتتهادى.

و «لَذِمَ» بالمكانِ وألذم، مثل لزم وألزم.

و «الخِرْمِلُ» المرأةُ الفاجرة، وقيل الحمقاء، قال مزرّد[4]:

* إلى خِرْملٍ شرُّ النساءِ الخراملُ *

---

(١) لم أجد هذه اللفظة وأقرب الصور إليها «لطلط» وهي بمعنى الكحكح.

(٢) اللسان (طرهف. فهد) والمطرهف: الحسن التام، والفوهد والثوهد والفلهد: الغلام السمين الذي قد راهق الحلم.

(٣) لم ترد في الأبيات، فلعل فيها سقطاً.

(٤) روايته في ديوان مزرد: ٤٨.

إلى صبيةٍ مثل المغالي وخرملٍ رواء ومن شر النساء الخرامل

و «الهِرْطُ» النعجةُ المسنَّةُ و [اللحم المهزول] في غير هذا، والهَرْدُ: الشقُّ.

و «دعكنّة» أصله السّمَنُ والفتوة، وهو ما لا يُسأل عنه، لأن كلَّ ما زيدت فيه النون في هذا الموضع يدلُّ لفظه على اشتقاقِهِ كما تدل سمعنّة ونظرنَّةٌ على السمع والنظر، ودعكنَّة من الجلادة، كأنه من الدعاك[1].

و «الخِيسُ» الغابة، وفي غير هذا الموضع اللحية.

و «الغانظُ» فاعلٌ من الغنظ وهو الكَرْبُ؛ قال عمر بن عبدالعزيز: في الموت غنظ ليس كالغنظ وكظّ ليس كالكظّ، وهما الكربُ.

و «الخِرْفِعُ»[2] القليلُ من كل شيء.
و «المذيّل» المكمّل.
و «الطوائفُ» الأيدي والأرجل.
و «السَّدوك» لا أُومِنُ به لأنه يقال سدك سَدَكاً وسَدْكاً، فإن جاء فيه سدوكاً فهو شاذٌ قليل، وهو اللزوم.

قال ابن المغربي: هذا ما حَضرنا من القولِ، ولولا أننا لا نودّ أن نَنْهَى عن خُلقٍ ونأتيَ مثله[3] لسألنا مستفيدين، نثراً لما فيه من شفاءِ البيان، لا نظماً لما فيه من التعاطي والطغيان، فسألناه عن اللغة إن كان عُنِيَ بها: عن العُلاَفِقِ بالعين، فهو بالغين معروف[4]، وعن المِصمَّةِ بكسر الميم، فهو بفتحها مشهور، وعن هندٍ لا تضافُ إلى الأحامسِ[5] فإن ذلك معروف،

---

(١) ص: الدعاء.
(٢) الخرفع: القطن وقيل ثمر العشر.
(٣) فيه إشارة إلى قول الشاعر:
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
(٤) ذكر ابن دريد في الجمهرة (٣: ٣٩٦) الغلافق وقال إنه اسم موضع، ولم يذكر العلافق.
(٥) يقال لقي هند الأحامس إذا مات أو وقع في الداهية، وإضافتها إلى غير الأحامس مثل هند

وسُكْرَى بضم السين فهو بفتحها معروف. وعن الدّون بالواو فهو بالياء معروف، وعن القَرْنِ بالفاء فهو بالعين مذكور، وكم في الكلام أفعلة أسماء فهو في الصفات معروف، وما النديمُ في الناسِ فإنه في الجماد معروف، وما الشاهدُ على جوازِ أفلج بالجيم فإنه بالحاء معروف.

هذا إن كانت اللغةُ عنده مهمّةً، فإن قال إنَّ النحو هو المهمُّ عنده قلنا: فما جمعٌ على أَفْعِلَةٍ أَغفَلَهُ سيبويه فلم يُلْحِقْهُ بكتابه أحدٌ من النحويين، وهل ذلك الجمعُ إن كنت عارفاً به مطَّردٌ أو محمولٌ على مكانه في اللفظ؟ وعلى أيّ شيء خفض ﴿وقيله يا ربِّ﴾ في قراءة حَفْصٍ، لا على ما أورده أبو علي الفارسي، فإنه لم يسلكْ مذهبه في التدقيق عليه؟ ولمَ منعَ سيبويه من العطفِ على [عا] ملين، وهو في سورةِ الجاثية بنصب ﴿آياتٍ﴾، ورفعُهُ لا يتَّجهُ إلا عطفاً على عاملين، فإن كان أخطأ الأخفشُ فمن أين زلَّ؟ وإن كان أصاب فكيف تجوزُ له مخالفةُ الكتاب؟ وهل قولُ سيبويه في النسبة إلى أُميَّةَ أمويّ - بفتح الهمزة - صوابٌ أو سهوٌ استمرَّ عليه وعلى جميع النحويين بعده؟ ولم قيل معدي كرب، ولم تحمل الياء في لغةٍ من أضاف ولا من جعلها اسماً واحداً إلا على ما أورده النحويون، فلهم فيه أقاويل غير متجهة. وهل مذهبهم في أنَّ سُدَى وَهُدَى مصدران صحيحٌ أم لا؟ وهل بيض في قولهم: حمزة بن بِيض اسم أم جَمْعٌ، وما معناه في اللغةِ ووزنه في النحو مسموعاً لا مقيساً على ما ذكرناه نحن في هذه الرسالة؟ ولم اختاروا «أنْ» مع عسى وكرهوه مع كاد؟

فإن قال: لست أتشاغلُ بعلوم المؤدبين، وإنما آخذُ بمذهب الحافظ، إذ يقول: علمُ النسبِ والخبرِ علمُ الملوكِ، قلنا له: فمن أبو خَلْدة[1] فإن أبا

= الهنود، وهند بني سعد وما إلى ذلك، ولكني أعتقد ان ابن المغربي يشير إلى ما هو أدق من ذلك.

(١) الخاء غير معجمة في ص؛ وخلدة هي بنت طلق اليمامي، حدثت عن أبيها، وخلدة بنت العرباض =

جِلْدَةَ[1] معروف، ومن العاضُ وما اشتقاقه[2] فإن العاص معروف، ومن حَبْشِيَةُ ـ مفتوح الأول مخفف ـ فإنه بالتشديد وضم أوله معروف؟[3] ومن عمرو بن معدي كرب غير صاحب: «أَمِنْ ريحانةَ الداعي السميعُ»[4] فإن هذا معروف؟ وما اسم امرىء القيس على الصّحة لا على هذا الظاهر وعلى أن في اشتقاقه كلاماً طويلاً فإن هذا معروف؟ ومن الزُّبَيْرُ غير الأسدي واليهودي فكلاهما معروفان؟ ومن الزَبير بفتح الزاي فإنه بضمها معروف؟[5] ومن القائل:

وقابلــة لجلجتهــا فَرَدَدْتُهَا لدى الفرشِ لو نَهْنهتها قَطَـرَتْ دما

أرجلٌ أو امرأة؟ وهل صفية الباهلية قلب أم مولاة؟ وهل المستشهد بشعره في «غريب المصنّف» أبو كعب بالباء أو التاء، وفي أيّ زمان كان، وأيّهما كان اسمه ومن أي شيء اشتقاقه؟ ومن النّطفُ الذي يُضْرَبُ به المثل فيقال: كنز النطف؟[6] ومن العكمّص، لا أسأل عن تفسيره فإنه في اللغة

= بن كلاب، روت عن عمها (الاكمال ٣: ١٨٢).

(١) أبو جلدة بكسر الجيم مسهر بن النعمان، وشاعر يشكري وآخر عجلي (الاكمال ٣ : ١٨٢).

(٢) العاض بن ثعلبة بن سليم الدوسي، وقال الوزير المغربي هو بلا تشديد (تبصير المنتبه: ٨٩٠) وهو من عضا يعضو الجرح أي كان بصيراً بالجراح.

(٣) هنالك حبشية بن كعب بن ثور من مزينة (تبصير: ٤٨٦) وحبشية بن سلول، وهذا الثاني يقرأ أيضاً بفتح الحاء وتخفيف الياء (تبصير: ٤٠١).

(٤) صدر بيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعجزه: «يؤرقني وأصحابي هجوع» (ديوانه: ١٣٦)؛ وهناك رجل آخر بهذا الاسم وهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الأكبر جاهلي قديم (المؤتلف: ٢٣٣).

(٥) الأسدي هو الزبير بن العوام، واليهودي هو الزبير بن باطا من بني قريظة أسلم ابنه عبدالرحمن (الاكمال ٤: ١٦٦) وهناك الزبير بن عبدالله الكلابي وقد عاش آخر خلافة عمر (الاستيعاب: ٥١٠)؛ وأما الزبير ـ بفتح الزاي ـ فهو ابن عبدالله بن الزبير شاعر ابن شاعر (الاكمال ٤: ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٦) هو النطف بن خيبري أحد بني سليط بن الحارث (انظر قصة احتيازه الكنز في ثمار القلوب: ١٣٩ وسرح العيون: ٥٤ ـ ٥٥).

معروف؟[1] وكذلك ذو طلال[2]، وما خَوْعَى فإنَّ جَوْعَى معروف، وهل أخطأ ابن دريد في هذه اللفظة أم أصاب؟[3] وما تقول في عدنان غير الذي ذكره محمد مولى بني هاشم فإنه معروف[4]؛ وهل يخالَفُ فيه أم لا؟ وحبيب والد ابن حبيب العالم رجل أو امرأة، وهل هو لغيَّةٍ أم لرشدة؟[5] ومن أجمد بالجيم فهو بالحاء كثير؟[6] ومن زَبْد بالباء فهو بالنون معروف؟[7] ومن روى عنه عليه السلام: «لا يمنع الجارُ جارَهُ أن يجعل خشبَهُ في حائطه»[8] وقال «خشبة واحدة» وقالوا كلهم: خَشَبَهُ مضافاً؟ ومن يكثر ذكر الحضرمي في شعره من العرب؟[9] والنبيذ المشروب: هل كان معروفَ الاسم أم لا عند العرب؟[10]

---

(١) العكمص: الحادر من كل شيء أو الكثير أو الشديد الغليظ وبه كني أبو العكمص التميمي (التاج: عكمص).

(٢) ص: ذو أطلال؛ ولم يبين ما يريده هنا، وذو طلال: ماء قريب من الربذة وقيل هو واد لغطفان (معجم البكري: ٨٩٢).

(٣) جوعى المعروف هو مؤنث جائع وقال ابن دريد في الجمهرة (٢: ١٠٥) إن جوعى موضع وأثبتها البكري عنه، وذكر أنها خوعى بالخاء المعجمة في شعر امرىء القيس (معجم البكري: ٤٠٤).

(٤) محمد مولى بني هاشم هو محمد بن حبيب نفسه وهو يذكر أن في الأزد عدنان بن عبدالله بن الأزد وقال غيره إنه عدثان (الاكمال ٦: ١٥٣ - ١٥٥).

(٥) حبيب اسم أمه ويقال إن أباه غير معروف.

(٦) أجمد بن عجيان شهد فتح مصر (تبصير ١: ٣).

(٧) زبد بن سنان بفتح الزاي، وزند بن الجون أبو دلامة وزند في نسب عدنان (الاكمال ٤: ١٦٨ - ١٦٩).

(٨) ورد الحديث في البخاري (مظالم: ٢٠ وأشربة: ٢٤) ومسلم (مساقاة: ١٣٦) وسنن أبي داود (أقضية: ٣١) وابن ماجه (أحكام: ١٥) والموطأ (أقضية: ٣٢) ومسند أحمد ١: ٣١٣، ٣: ٤٨٠؛ قلت: خشبة (بالافراد) هي رواية أبي ذر ورواه غيره (خشبه) بالهاء - بصيغة الجمع؛ وقال عبدالغني بن سعيد: كلّ الناس يقولونه بالجمع إلا الطحاوي (وانظر مزيداً من التفصيلات في إرشاد الساري ٤: ٢٦٦.

(٩) الحضرمي: النعلُ المصنوعة بحضرموت، وأراها ترد كثيراً في شعر كثير «إلى مرهفات الحضرمي المعقرب» (ديوانه: ٢٦٥)، و «بأقدامهم في الحضرمي الملسّن» (ديوانه: ٢٥٢) الخ...

(١٠) التسمية معروفة ولكن الدلالة مختلفة، إذ كانت اللفظة تدل على كل ما نبذ في الدباء والمزفت فاشتد، ولكنه كان شيئاً غير الخمر ولهذا نجد القلمس يقول في الخمر:

أروي بها نفسي فتحيا بشربها ... ولا أشتهي شرب النبيذ من التمر

ومن روى عن ظئر رسولِ الله ﷺ وأنها قالت في شارفها: «وكانت لا تغذي أحداً» وما معناه؟(١) ومن تفرَّد من أهل العلم بنصر ذي الرمة وتغليط الأصمعي في قوله: إيه عن أمِّ سالم، لا على ما قاله النحويون من التعريف والتنكير، فإن ذلك معروف؟(٢) ومن قال عن المتنبئة إنها سَجاحِ مثل قَطامِ ومن قال سجاح مثل غمام غيرُ مبني؟(٣) ولم سميّ خليد الشاعر: خليد عينين؟(٤) ومن عُمَيّ التي تنسب إليها الصَكة فيقال «صَكَّةُ صكَّة عُمَيّ»، وهل ذكر في شعر ومن ذكره؟(٥) ومن هو الذي تنسب إليه العرب الصلال ومن ذكره من أصحاب رسول الله ﷺ؟ ومن كرب المنسوب إليه معدي كرب؟(٦) وهل أصاب المبرد في نسبة الأبيات الجيمية:

لما دعا الدعوة الأولى فأسمعني أخذتُ بُرْدَيَّ واستمررتُ أدراجي

---

(١) ذلك هو حديث عبدالله بن جعفر عن حليمة السعدية وكانت قدمت المدينة تطلب ولداً ترضعه ومعها شارف ـ وهي ناقة مسنة: فلما قدر لها أن تكون مرضعة للرسول درّ ثدياها ودرّت الشارف «وقام صاحبي إلى شارفي تلك فإذا بها حافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا» وذلك بعد أن قالت: «ما يجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذيه» (أسد الغابة ٥: ٤٢٧).

(٢) قال ذو الرمة «وقفنا فقلنا إيه عن أم سالم» ـ بكسر الهاء ـ قال الأصمعي: أخطأ ذو الرمة إنما كلام العرب إيهٍ (بالتنوين) وقال يعقوب بن السكيت أراد إيه (بالتنوين) فأجراه في الوصل مجراه في الوقف وكذلك قال ثعلب، كما قال الزجاج إنه ترك التنوين للضرورة ولكن أبا علي الفارسي انتصر لذي الرمة وقال: أما هذا فالأصمعي مخطىء فيه. ديوان ذي الرمة: ٧٧٩ واللسان والتاج (إيه).

(٣) يقول الأزهري وابن دريد والجوهري وغيرهم من اللغويين أنها «سجَاحِ» مثل قطام؛ ولم أعثر على من أجاز أن تكون مثل «غمام».

(٤) قيل سمي بذلك لأنه كان يسكن أرضاً بالبحرين تعرف بعينين (الشعر والشعراء: ٣٧٣).

(٥) الصكة: شدة الهاجرة، يقال: لقيته صكة عمي وصكة أعمى وهو أشد الهاجرة حرّاً. وقال بعضهم: عمي اسم رجل من العماليق أغار على قوم في وقت الظهيرة فاجتاحهم. ويقال هو تصغير أعمى مرخماً. وأنشد ابن الأعرابي:

صكَّ بها عين الظهيرة غائراً عمَي ولم ينعلن إلا ظلالها

(٦) معد يكرب اسم يمني يرد في النقوش، وهو سبأي محض. ولا تنطبق عليه التفسيرات التي يوردها لغويو عرب الشمال.

أم أخطأ؟[1].

فإن قال إنه صاحبُ سِيَرٍ وآثارٍ وأحكام، قلنا: أرشدك الله، وما معنى قوله عليه السلام: «من سعادة المرء خفة عارضيه» وهو عليه السلام لم يكن خفيفَ العارضين، لا على ما فسَّره المبرد فإنه لم يأتِ فيه بشيء؟[2] ومعنى قوله عليه السلام: «تسحَّروا فإنَّ في السحور بركة»[3] ونحن نرى [أنه] ربما أهاض وأتخم، وأضرَّ وأبشم؟ ومعنى قوله عليه السلام: «اتقوا النار ولو بشقّ تمرة»[4] ولو سرق سارق [كيلجة] تمر فتصدق بنصفها كان مستحقاً للنار عند أكثر المسلمين؟ وما معنى قوله عليه السلام: «لا يزال الأنصار يقلّون ويكثر الناس»[5]؛ ولو شئنا لعددنا أشخاصهم أكثر مما كان في البادية والحاضرة؟ ومعنى قوله «إن امرأ القيس حاملُ لواءِ الشعراءِ إلى النار»[6] وهل يثبت الخبر أم لا؟ ولم قال: «إن من الشعر لحكمة»[7]، ثم قال عليه السلام: «أوتيت

---

(١) نسب المبرد هذه الأبيات للراعي (الكامل ١: ٢٨١) وفي ظنه أنها للراعي النميري، وبيّن الآمدي الأمر في المؤتلف: ١٧٧ إذ قال إنها للراعي الكلبي واسمه خليفة بن بشير بن عمير بن الأحوص.

(٢) أورد المبرد هذا الحديث في الكامل (٢: ١٢٩) وقال: ليس هذا بناقض لما جاء في إعفاء اللحى وإحفاء الشاربين.

(٣) ورد الحديث في النسائي (صيام: ١٨) وابن ماجه (صيام: ٢٢) والدارمي (صيام: ٩) ومواضع متعددة من مسند أحمد، منها ٢: ٣٧٧، ٤٧٧، ٣: ٣٢، ٩٩ (انظر معجم ألفاظ الحديث).

(٤) ورد في البخاري (أدب: ٣٤، زكاة: ١٠، رقاق: ٥١، توحيد: ٣٦) ومسلم (زكاة: ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٨٠) والترمذي (قيامة: ١، زهد: ٣٧) والنسائي (زكاة: ٦٣، ٦٤) وابن ماجه (مقدمة: ١٣، زكاة: ٢٨) والدارمي (زكاة: ٢٤) ومسند أحمد ١: ٣٣٨، ٤٤٦، ٤: ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣٧٧، ٦: ٧٩، ١٣٨.

(٥) الحديث في البخاري (الجمعة: ٢٩ ومناقب: ٢٥ ومناقب الأنصار: ١١).

(٦) تورده الكتب الأدبية. انظر مثلاً الشعر والشعراء: ٦٧ وليس في الأحاديث المتعلقة بامرىء القيس ما هو قويّ مقبول منها.

(٧) ورد في البخاري (أدب: ٩٠) والترمذي (أدب: ٦٩) وابن ماجه (أدب: ٤١) والدارمي (استئذان: ٦٨) ومواضع كثيرة من مسند أحمد منها ١: ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٠٩... الخ.

جوامع الكلم»[1] وهل تخرج الحكمة من جوامع الكلم؟

فإن قال: إنما أفنيت عمري في القرآن وعلومه، وفي التأويل وفنونه قلنا: إذن يكون التوفيقُ دليلك، والرشادُ سبيلك: صفْ لنا كيفَ وقعَ التحدّي بهذا المعجز ليتم بوقوعه الإعجاز، وأخبِرْنا عن صفةِ التحدّي: هل كانت العربُ تعرفه أم لا، أم كان شيئاً لم تجرِ عادتُها به فكان إقصارها عنه، بل لأنه التماس ما لم تجرِ المعاملة بينهم بمثله، ثم يُسألُ عن التحدّي هل لقي بمعارضة بان تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضة، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلّمون مع تسليمهم ولم يعارضوه، ثم يسأل عن قوله تعالى ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء: ٨٢) وفيه من الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ما لا يكون أشدَّ اختلافاً منه[2]؛ ويسأل عن قوله تعالى ﴿وغرابيب سود﴾ (فاطر: ٢٧) وما معنى الزيادة في الكلام، والغرابيبُ السودُ هي الغرابيب، فإن قال تأكيداً فقد زلَّ، لأنّ رجحانَ بلاغةِ القرآن إنما هو إبلاغ المعنى الجليّ المستوعَبِ إلى النفسِ باللفظ الوجيز، وإنما يكون الاسهابُ البليغُ في كلامِ البشر الذين لا يتناولونَ تلك الرتبةَ العاليةَ من البلاغة؛ على أنه لو قال تأكيداً لخرج عن مذهب العرب، لأنَّ العربَ تقول: أَسْوَدُ غِرْبيب، وأسودُ حالكٌ وحُلكوكٌ، فتقدم السواد الأشهر ثم تؤكده، وهذه الآيةُ تخالفُ ذلك، فإذاً بطل التأكيد في المعنى[3]؛ وما معنى ﴿فَخَرَّ عليهم

---

(١) حديث«أعطيت جوامع الكلم»في مسلم (مساجد: ٥ ـ ٨ وأشربة: ٧٢) والبخاري (تعبير: ١١) والترمذي (سير: ٥) ومسند أحمد ٢: ١٧٢، ٢١٢، ٢٥٠، ٢٦٤... الخ وحديث «بعثت بجوامع الكلم» في البخاري (جهاد: ١٢٢ وتعبير: ٢٢ واعتصام: ١) والنسائي (جهاد: ١).

(٢) يرى الزمخشري أن عدم الاختلاف هنا معناه عدم التناقض والتفاوت في مستوى النظم والبلاغة والمعاني، وصدق الخبر. (الكشاف ١: ٥٤٦ ـ ٥٤٧).

(٣) قال الزمخشري: فإن قلت: الغربيب تأكيد للأسود، يقال أسود غربيب وأسود حلكوك.. ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك قلت: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر كقول النابغة «والمؤمن العائذات =

السَّقْفُ من فوقهم﴾ (النحل: ٢٦) وهل يكون سقف من تحتهم فيقع لبسٌ يحتاج إلى إيضاحه بذكر فوق وتحت؟[1] ونحوٌ منه قوله تعالى ﴿يخافونَ رَبَّهُمْ من فوقهم﴾ (النحل: ٥٠) وهل لهم ربٌّ من تحتهم؟ وما معنى فوق ها هنا، وهل تدلُّ على اختصاص مكان؟[1] وما معنى قوله ﴿كَلَمْحِ البَصرِ أَوْ هُوَ أَقْـرَبُ﴾ (النحل: ٧٧) وما هذا الأقرب؟[1] وما معنى قوله ﴿فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٤) وهل شيء أشدُّ قسوةً من الحجارة؟[2] وما معنى قوله ﴿إلهين اثنين﴾ (النحل: ٥١) وهل بعد قوله (إلهين) إشكال بأنهم أربعة فيستفيد بقوله اثنين ثباتَ المعنـى؟وما معنى قوله ﴿أَنْ تضلَّ إحداهما فَتُذَكِّرَ إحداهما الأخرى﴾ (البقـرة: ٢٨٢) هَلاَّ كان أوجز وأشبه بالمذهب الأشرفِ في العربية؟ ومـا معنـى قولـه ﴿أو يأخذهم على تخوّفٍ فإن ربكُمْ لَرَؤوفٌ رحيم (النحل: ٤٧) ومن أين تُناسِبُ الرأفةُ والرحمةُ هذا الأخذَ الشديد على الخوف الذي يقتضي العفوَ والغفران؟[2].

وعلى أن هذا السائل لو علم لسأل عن الصناعة التي أنا بها مُرْتَسِـمٌ،

= الطير» وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الاضمـار والاظهار جميعاً (الكشاف ٣: ٣٠٧).

(١) الوجه في «فوق» هنا في قوله «وهو القاهر فوق عباده» أي أنهم يخافون ربهم عالياً قاهراً لهم (انظر الكشاف ٢: ٤١٣)؛ وقوله «كلمح البصر أو هو أقرب» أي كمـا تبالغـون أنتـم حين تستقربون شيئاً (نفسه: ٤٢١)؛ وقوله «إلهين اثنين» الوجه فيه: أن الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريد التأكيد على أن المقصود هو العدد شفع بما يؤكده فقيل إلهين اثنين أو رجل واحد.. الخ (نفسه: ٤١٣) ويأخذهم على تخوف أي وهم متوقعون وقيل هو أن يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم وبـذلك تكون الرأفـة والرحمـة حيث يحلـم عنهـم ولا يعاجلهـم مع استحقاقهم (نفسه: ٤١١).

(٢) إن قلت لم قيل أشد قسوة وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة، ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولـكن قصـد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة (الكشاف ١: ٢٩٠) ولم يورد الزمخشري توجيهاً لتكرير كلمة «احداهما» في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة. وذهب أبو حيان إلى أنه أبهم الفاعل في أن تضل بقوله «إحداهما» ولهذا أبهم الفاعل في «فتذكر» فكرر إحداهما. إذ كل من المرأتين يجوز عليها الضلال والاذكار فلم يرد باحدهمـا معينـة (البحر المحيط ٢: ٣٤٩).

وبشروطها مُلْتَزِمٌ، لا في الترسّلِ فإني ما صَحِبْتُ به ملكاً؛ ولكن في صناعة الخراج، فكان يجبُ أن يقولَ: ما البابُ المسمَّى المجموع من الجماعة[1] وأين موضعُهُ منها، وأيّ شيء قد يكون فيه ولا يحسن ذكرُهُ في غيره؟ وأن يقول: ما الفائدة في إيراد المستخرج في الجماعة ومن كم وجه يتطرَّق الامتثال عليها بالغاية منها؟ وأن يقول: ما الحكم في متعجَّلِ الضمان قبل دخولِ يدِ الضّامن، وأي شيء يجبُ أن يوضعَ منه إذا أراد الكاتبُ الاحتسابَ به للضامن من النفقات، وخاصةً من جاري العامل، وفيه أقوالٌ تحتاجُ إلى بحثٍ ونظر؟ وأن يقول: إنَّ عاملاً ضمنَ أن يرفعَ عمله بارتفاع مالٍ إلاّ أنه لم يضمنْ استخراجَ جميعه، وضمنَ استخراجَ ما يُريدُ على ما استخرج منه خمسَ سنين إلى سنته بالقسط، كيف يصحُّ اعتبارُ ذلك. ففيه كمين يُحتاجُ إلى تقصّيه وتأمله؟ وأن يقول: لِمَ يُقدَّمُ المبيعُ على المستخرج، والمبيعُ إنّما هو من المستخرج، وكيف يصحُّ ذلك؟ وأن يقول: أيّ غلطٍ يلزمُ الكتاب وأيّ غلطٍ لا يلزمه؟ وأن يقول: متى يجبُ الاستظهارُ للسلطانِ في صناعة الخراج ومتى لا يجوزُ الاستظهارُ له؟ وأن يقول: متى يكون النقصُ في مال السلطانِ أسدَّ في صناعةِ الكتابة من الزيادة، ولست أعني نقصَ الارتفاع مع العدل، وعادلَ زيادةٍ مع الجور، فذلك ما لا يُسْأَلُ عنه، وأن يقول: ما بابٌ من الارتفاع إذا كَثُرَ دلَّ على قلّةِ الارتفاع، وإذا قلَّ دلَّ على جمام الارتفاع ووفوره؟ وأن يقول: متى تكونُ مشاهدةُ الغلطِ أحسنَ في صناعة الكتابة من عديمه؟ وأن يقولَ: كم نسبةُ جاري العمل من مبلغ الارتفاع وأوّل من قرَّره ورتَّبه؟ وأن يقول: ما رتبتانِ من رُتَبِ الكتابة إذا اجتمعتا لكاتبٍ بطلت أكثرُ حججه في احتساباته؟ وأنْ يقول: هل يطَّرِدُ في أحكام الكتابة حملها على

---

(١) الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل. ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق ما بين الرافع والمرفوع إليه، فإن انفرد به أحدهما سمي محاسبة (مفاتيح العلوم: ٣٨).

مناصبة أحكام الفقه أم لا، وهل يذهب [إلى ذلك] أحدٌ من متقدّمي الكتاب، وما الحجّةُ فيه، وبالله التوفيق.

- ٢ -

فصل له من رقعة
في الرد على كتاب وصله (١)

وقفتُ على كتابِكَ ولم أزلْ ألثُمُهُ، كأنّي قد ظفرتُ باليد التي بَعَثَتْـهُ، وأضمُّهُ كأنّي أضمُّ الجوانحَ التي نَفَثَتْه، وكأني كلّما أدنيتُهُ إلى الكبدِ المعذّبةِ بِبُعْدِكَ، وأَمْرَرْتُهُ على العينِ المطروفةِ بفَقْـدك، سحبتُ على النار ذيلَ السحاب، وَسقيتُ عَطشَ الحبِّ كأسَ الرُّضاب، وأعَرْتُ أخا سبعينَ ظلَّ الشباب، فأَرَّخْتُ يومَ قدومِهِ لأجعلَهُ موسماً للسرور، وعيداً باقياً على الدهور، أرتقبُ السَّعْدَ عنده كلَّ عام، وأنتظرُ الفرجَ منه من كلِّ غرام؛ واتّفَقَ ورودُهُ في أشْرَفِ فصولِ الدَّهْرِ حَسَباً، وأكرَم مفاخرِ الأيام نَسَباً، حين ابتدأ(٢) الربيعُ يزخرفُ بُرودَه، والروضُ ينظمُ عقوده، وكنتُ أعرفُ هذا الفصلَ باعتدالِ منهاجه، وصحَّةِ مزاجه، وأنّه لو كان الزمنُ شخصاً لكان له مُقبَّلاً، ولو أنّ الأيام غوانٍ لكان لها حُلِيّاً وَحُللاً، لأنّ الشمسَ تخلصُ فيه من ظلماتِ حُوْتِ السماءِ، خلاصَ يونسَ من ظلماتِ حوتِ الماءِ، فإذا وَرَدَتِ الحملَ وافتْ أحبَّ أوطانِها إليها، وأعزَّ مساكنها عليها.

وفي فصل منها: فيا حُسْنَ تلك الصحيفةِ ومدادُهَا يُنْتَهَبُ بالأفواه، ويزيدُ بالتقبيل لَعَساً في الشّفاه، ويا عجبا كيفَ حَفِظَ مع بُعْدِ العهد نَشْرَ عَرْفِك، وكيف علقَ مع تراخي الأيام طيبَ كفِّك، وكيف جاءَ كأنَّكَ كتبتَهُ من أَمَم، وأَنْفَذْتَهُ وبيننا خطوةُ قَدَم، وكيف لم يغيره ما قطعَ من مهاولِ قفار، وليلٍ

---

(١) الذخيرة: ٤٩٦.

(٢) ابتدأ: مكررة في ص.

ونهار، وعدوٌّ كاشح، ورقيبٍ لامح، فأنْعِمْ به من ريحانةِ ألفاظٍ دامتْ لدونتها، وباكورةِ وصالٍ سلمتْ غضوضَتها[1]، ومسحةِ يدٍ بَقِيَ أثرُهَا أرِجًا، وروضةِ كلم دام على الصيف بهجتها[2].

وفي فصل منها: فأمّا سُؤالُكَ عنّي فما يُشْبِهُ سيرتَكَ الحسنى، ولا يليقُ بطريقتك المثلى، كيف تسألني والإجابةُ معك؟ وكيف تستخبرُني ومحلُّ الخَبَرِ والاستخبار عندك؟ ومتى سمعتَ بجوابِ جَسَدٍ رهينة؟ وأين رأيتَ طِماحَ عينٍ لواحظها مقيّدةٌ كليلة؟ ألم أفارِقْكَ وقلبي عندك أعشار، وأضلعي منه قفار؟

- ٣ -

ومن فصل له يصف الموصل حين وردها

وردتُ الموصل التي خالف اسمُها معناها، وكانتْ مَقْطَعاً بيننا لولا خُدَعُ الأماني، وَفَصْلاً لولا المرجوُّ من عفو الليالي، فوجدتُ هواءَهَا يعطّلُ سوقَ بقراطَ اعتدالاً وطيبة، وماءَها يُسْلي عن مُجاج النَّحلِ استمراءً وعذوبة، وصقعها قد تَبَغْدَدَ رقةً ولطفاً، وجوَّها قد تزندق تنعّماً وظرفاً، تكادُ تُثْقِلُهُ عقودُ الغانيات، وَيُخْجِله تتابعُ اللحظات، كلُّ شماله نسيم، وكلُّ جَنُوبه حياً عميم، ورأيتُ أرضَها أطيبَ الأرض خيماً، وأَزْيَنَها أديماً[3]، تُنْسَجُ بالسُّنْدسِ الأخضر، وتفترُّ عن الأُقحوانِ الأحمر، وألفيتُ بنيانَها هو الذي حمده اللهُ في تنزيله[4]، وأحبَّه لنا أن نكونَ مثلَهُ جهاداً في سبيله، مَرْصُوصاً بوَقَاحِ الجلمد، ملاءَماً بينه بالشَّيد الممرَّد، قد حُصِّنَ ظاهره على باطنه عن

(١) ص: غضاضتها، وهو عند بعض اللغويين جائز، وأنكره عليّ بن حمزة، والالتزام به هنا غير ذاهب مع السجع.

(٢) كذا وردت العبارة في ص، ولعلها «دام على الصيف زهرها بهجاً» أو ما أشبه.

(٣) ص: ديماً.

(٤) يعني أنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً (انظر الآية ٤ من سورة الصف).

تداخل الإبر، ومساكنِ الذرّ، يزلُّ عنه ظُفْرُ الطائِر، وتتدحرجُ عليه أحداق[١] الناظر، وتَغْنى به العروسُ عن الماويّ المنير[٢]، وتستبينُ به الجفونُ منابتَ الشكيرِ من أهدابها والغمير، متلاقيةٌ أقطارُهَا على رجالٍ كأنهم أنْسِلاءُ عادٍ وَثَاقَةَ أجسام، وصلابةَ أحلام، وَبُعْدَ مَرام، لطفوا عن بدويةِ الشام وغلظته، وجمدوا عن ذَوْبِ العراقِ وخلابته، قد عُقِدَتْ أَلسنَتُهُمْ بالصّدقِ فما ينتشرُ الباطلُ من عَذَباتها. وصحَّتْ غرائسُهُمْ في المودّة فما يُجْتَنَى الغَدْرُ من ثمراتها، إنْ سلماً فسلماً وإنْ حرباً فحرباً، لا يعرفون تدليسَ الأخلاق، ولا تمويهَ النفاق، وشعراؤهم[٣] ملء اليدين، وكتّابهم أثرٌ بعد عَيْنٍ، أدبهم [حسن][٤] على قلة الملوكيِّ فيه، وعلمهم مُتْقَنٌ لمن تأمّلَ أدقّ مسربٍ[٥] في فِتَنِ معانيه، قد محَّص تهذيبُ المحنِ شرارَهُمْ وأَوْهَنَ خيارهم، بَلَدُهُمْ أَطلالٌ، وأحوالهم آل، قويّهُمْ يئنّ ضعفاً، وضعيفُهُمْ يماطلُ حَتْفاً، بَقِيَتْ عليهم أسمالُ النعم وذهب الدهرُ بأجسامها، وانجلت عنهم ظُلَلُ المحنِ وهم يتأوهون من غيرِ آلامها، إلا أنّ فيهم بقيّةً نقيّة، وفيهم موضعُ تداركٍ إن رُزقوا سيرةً مرضيّة، فلولا ما أَرْجُوهُ من مداواةِ أسقامهم، وإعادةِ صالحِ أيامهم، لقضاني الانتماء بمعايشتهم قبل معاناتهم، وبملاحظتهم قبل مقاساتهم، لكنّي أعلمُ أنَّ من يحيي العظامَ وهي رميم، ويبعث[٦] الروضَ وهو هشيم، وينشيء [. . .] بعد ما كانت قفاراً، ويجعلُ من الشجرِ الأخضرِ ناراً، قادرٌ على أنْ يجعلَ ثوابَ نيّتي فيهم معونتي على ما أنويه لهم، وجزاءَ تأمّلي بهم بلوغ الغرضِ في تداركِ رَمَقِهِمْ.

---

(١) ص: أكداه.
(٢) الماويّ: حجر البلور أو المرآة.
(٣) ص: وسفراؤهم.
(٤) ليس في موضعها بياض في ص.
(٥) ص: متقن من. . . مسرباً.
(٦) ص: ويبلى (دون اعجام).

- ٤ -

وفي فصل من رسالة له [1]

لو أَطَقْتُ تفصيلَ المجمل، وإيضاحَ المُشْكِلِ، لجرتْ لك به يدي طَلَقَ الجموح، ولأَغْنَتْكَ أسمارُهُ عن الوترِ الصَّدوح، إلا أن القلبَ عليل، والخاطرَ كليل، والزمانَ ببلوغِ الأملِ بخيل.

- ٥ -

فصل من رسالة بعث بها إلى ذي السعادتين [2]

للرياسةِ كُلَفٌ لا يستقلُّ بها إلا المهذَّبُ الكاملُ، ولا يخطو تحتَ أثقالِهَا إلاّ الأوحدُ الفاضل، ولا يبلغُ ذوائبَ أعاليها، إلاّ مَنْ شَرِبَ الأُجاجَ من ماءِ واديها، ولا يلذُّ بملكها إلا من أغلى المهرَ من كريم مساعيه، ولا يفضُّ ختامَها إلا من جعل منازلةَ الخطوب سلكاً لعقودِ أيّامِهِ ولياليه، ولذلك قيلَ ما أَنْشدتُهُ استبصاراً، وأنا إلى إيراده أبينُ إصراراً:

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصَّبِرَا [3]

* * *

وإنَّ سياسةَ الأقوامِ فاعلمْ لهـا صَعْداءُ مَطْلَعُهَا طويلُ [4]

* * *

ويظلموا فنرى الألوانَ مسفرةً لا خوفَ ذلٍّ ولكن فضلُ أحلامِ

---

(١) الذخيرة ٤: ٤٩٨.

(٢) الذخيرة ٤: ٤٩٩ وذو السعادتين هو الحسن بن منصور أبو غالب وكان وزيراً للسلطان البويهي بهاء الدولة ثم وزر بعده لسلطان الدولة (٤٠٩) ثم ثالثة لمشرف الدولة (سنة ٤١٢) وتوفي في هذه السنة نفسها.

(٣) من أبيات تنسب لرجل من بني أسد (شرح المضنون: ٤٧٣).

(٤) ورد البيت غير منسوب في اللسان والتاج (صعد)؛ وأكمة ذات صعداء: يشتد صعودها على الراقي.

ويحتاجُ الرئيسُ إلى أعوانٍ يُظْهِرُ بهم كمينَ مكارِمِهِ، وَيُمْضي فيهم وبهم ماضي عزائمه، فلولا الطالبُ لعاش الكريمُ مطوياً على حَسَراتِ أوطارِهِ، ولولا الخاطىءُ لما وجد الحليمُ لذَّةَ حلمه ووقاره، وكلّما كان التابعُ أبعد مذهباً في معناه، كان المتبوعُ أشدَّ جَذَلاً بظهورِ مناقِبِهِ وعلاه.

وفي فصل: وقد كانت مني كبائرُ تكنَّفَتْها معاذيرُ لا أَشينُ وَجْهَ العفوِ بإيرادها، ولا أنتقصُ جملةَ الصَّفْح والغفرانِ بتعدادها، في أنْ لم أَفْتَتِحْ مناسكي بالسَّعْي إلى حَضرتِهِ، ولم أبدأ من مطالبِ شَرْعي بالتوفُّر على خِدْمَتِهِ، وقد عَلِمَ الله أنَّ ذلك ليس من اعتلالٍ بصيرةٍ بشرف الانتماء إليه. ولا انخفاضِ همّةٍ عن سعادةِ المثولِ بين يديه، ولا إمعانٍ في البدويّةِ - وإن كنت من أهلها - حتى أذهلَ عن مطلع النّير الأعظم من الأفقِ الذي سكنتُ ظلّه، ومفيض الفراتِ الأعذبِ من البلد الذي استوطنتُ محلَّه، ولا أنَّ ذِكْرَهُ لم يكنْ في تلك الأوطانِ زينةَ الأعياد، وحليةَ البلادِ، وأُنْسَ الحاضرِ والبادي، وَبُلْغَةَ المسافرِ والحادي، ولا أني لم أكنْ ذكيَّ الخاطر بتلاوةِ مآثِرِ آلائِهِ، ومستشفياً بنسيم الريح من أرضِهِ وسمائه، ومُعْجَباً بما جمع الله فيه لِعُفَاةِ أهلِ الأدب، بل السَّراةِ أهلِ الرتب، ومعنى قول القائل:

يأتيك عن فهم الثناء عطاؤُهُ عَفْواً وتلك عطيةُ المستبصِرِ
كرمٌ تكشَّف عن حُلَى آدابِهِ كالبحرِ يكشفُ غَمْرُهُ عن جوهر

- ٦ -

فصل من أخرى
إلى ذي السعادتين[١]

ولما أزعجتني الأقدارُ إلى هذا المقرِّ الجليل على اضطرارٍ باد، بنبوِّ ذلك المهاد، وردتُ مطروفَ الناظر، كليلَ الخاطر، فقصدتُ مع ذلك خدمتَهُ - في وروده الأول - باللقاء أو استطلاعِ الإذنِ بالمكاتبة، فأعجلهما مسيرُهُ الميمونُ، فأحَلْتُ بذلك على الجَدِّ الظُّنون، والزَّمنِ الخؤونِ، ثم كتبتُ مستبدهاً في هذه الرقعة بأمورٍ يشفُّ عنها الكتمانُ بصادقِ ظنّه، وينمّ بها السرُّ والاختفاءُ إلى نجيِّ ذهنه، فلم أَبْشر بقدومه حتى أُنْذِرْتُ بِصَدَرِه، وقد كان من الحقِّ أن أسيرَ في أَثَره، وأنفذَ في تصيّد العزّ بملاحظة غُرَّته، واستلامِ حضرته، ولكني أهديتُ من ضَعْفِ عذري وقوّةِ ذنبي زينة إلى حلمه ومسامحته، ورجوتُ أنْ يُضيفَ إلى الإغضاءِ عن زلّتي ترثياً لي بما حُرِمْتُهُ طولَ هذه المدة من خدمته. فإن حقّقَ مخيلةَ الظنّ في الإغفاء فَبِفَضْلِهِ، وإن أعرضَ عن كلِّ من تَغْرُبُ عليه الشمس لِجُرْمي فَبِعَدْلِهِ، وإنْ يَكُ ظني صادِقي[٢] فسينخدعُ لي انخداعَ ذوي الإنعام، ويتغابنُ في صمتي عن[٣] إيجابه تغابنَ الكرام، بأريحيّته اللدنةِ الأعطافِ، ورياستِهِ الموطَّأةِ الاكناف.

من جواب ذي السعادتين له

للسؤددِ محلٌّ يدعو إلى نفسه، وَيُسْفِرُ عن شمسه، ويأبَى أن يتقلقلَ به مهاد، أو يتململَ بقرارِهِ وساد، أو يكونَ إلا لمن وطّأ له [كنفاً]، وألانَ بحمله معطفاً، واستقلَّ بأعباءِ تكاليفه، وأغمضَ بدائعَ أفكاره في تضاعيفه، ونصَّ[٤] المذكّياتِ في مضماره، واستبردَ المُصْطَلَى من أواره، وغدا لفاردِهِ

(١) الذخيرة ٤ : ٥٠٠.
(٢) ص : صادقني.
(٣) ص : قيمتي من.
(٤) ص : وتصل.

عَشْراً، وشرح للعناء[1] فيه صَدْراً، وكان كما قيل: إنْ رأى حسنةً قالَ، أو رأى سيئة أَقالَ؛ فقد أحسنَ القائل:

إمّــا يَرِبْنــي مفصــلٌ[2] فقطعته فيوشــك أنْ يَدْوَى لذلكَ سائرُهْ

وإنما نصصتُ على الموقِع الأنبهِ من حضرته، ودللتُ عليه بنارِهِ وسِمته، لياذاً بقوة الدواعي منه في تمثّل ما أجراه الاتفاقُ على ضدّ المراد، وثناه القدرُ الغالبُ فيه عن غَرَضِ الاعتقاد، وسَنَنِ الارتياد.

وفي فصل منه: حتى بدا مطلعُ الأملِ من حَيْث شِمْتُه، وصدَّقَ اليقينُ بتلك الأوصاف اللائقةِ، والفضائلِ الشائقةِ الرائقة، ما تصوَّرْتُهُ وتحققته، وذرَّ البدر[3] الكامل بالكتاب المعربِ عن جميع أدواتِ الفضلِ ومعانيه، وبوارع الأدبِ[4] النبيل ومعاليه، فأكرِمْ به من واصلٍ بالمعنى في مَوْضِعِ العَتْب، ووافدٍ بالحسنى على الإساءَة بالذنب، وأَعْجِبْ بما حواه من رائع البلاغة وبارعِ العبارة، ومستكرم المانّة، ومستغنم الاطالة. ولقد أخبرَ من أنباءِ السلامة في النفس المحروسةِ ما ضاعفَ المسرَّةَ، وضاعفَ الغبطَةَ والحبرة، وأشار فيما عداها إلى ما أسال العَبْرة، وأشعرَ الحسرةَ، ولِلّهِ تعالى في مثل ذلك ألطافٌ تُوضِحُ عن حُسْنِ عواقبِ التفويض، وتقومُ بإكرام الانابةِ والتعويض. وقد استرهن عندي بمبتدأ التطوُّلِ بالمكاتبةِ يداً، اقتضى اعتدادي بها وشكري لها بما يبرهنُ عن توافقنا في الصفاء، وتشاكلنا في الإخاء، وسيّدي يطيعُ في ذلك بواعثَ كرمه، ونوازعَ شيمه.

---

(١) ص: للهاء.
(٢) ص: ما يريني مفصل.
(٣) ص: ودر البر.
(٤) ص: وفوارع الأب.

- ٧ -

جوابه عن رسالة ذي السعادتين (١)

أُلقي إليَّ كتابٌ كريمٌ يكتفي شَرَفُ الهمةِ بخيال عنوانه، ولا يُبْلَغُ بشقِّ النفس شكرُ ظاهره فضلاً عما في طيّ جَنانِهِ، ففضضتُ عن الرَّوْضِ العازب، والتقطتُ منه فرائدَ الكواعب، ووجدتُ فيه نسيمَ الشباب، وتَعلَّلْتُ به في عَطْفِ الأيام السالفةِ العذاب، ووجدته قد احتوى من عقائلِ الفصاحةِ وكرائمِ البلاغةِ على ما يُعْدي المعجمَ العييَّ فينطقُ متخيّراً، وَيُنْشَدُهُ الناطقُ البليغُ فَيُبْلِسُ متحيّراً، وظننتُ أنّ العشّاقَ لو أُعيروا من ألفاظِهِ مزاجاً للمراشف، ووهبوا من أنفاسه عِطراً للسوالف، لصالوا بِحُجَجٍ تجلُّ عن تَسْمِيَةِ المعاذير، وتصبغ الخطأَ بلمعِ الصواب المنير، ولو أنهم جعلوه رميَّ سُهْمَةِ الفراق لكُفَّتْ عواديها، وأُخْذَةً لأعين الرقباءِ لَطَفَرتْ [من] مآقيها، ولو أن الحمَامَ أصغتْ إليه لعاد نَوْحها شَدْواً، ولو أنَّ الليالي تتدثَّر(٢) به لصارَ دُجَاهَا غَدْواً، وعجبتُ مما حملَ على مُتّني الضعيفة من مِنَنٍ كنتُ قبلها نِضْوَ العزيمة فكيف [أنهض] بها، ومن مبارٍّ يكادُ يمنعني فادحُ أثقالها أن أستارَ مرفَقَها، فلو أنَّ ذلك الكتابَ الجليلَ صَدَر إليَّ من عدوّي لاهتززتُ ببدائع ما فيه، ولو أنه تاه عن إنعامٍ عليَّ لغالطتني عذوبةُ لفظه عن مرارةِ معانيه، فكيف وقد جاءني عن الأيام عُتْبى، وجعل قلبي لخواطِرِ الجَذَلِ نهباً، ولستُ أُلمُّ بشكره عن هذه العاطفةِ الكريمةِ فأوهمُ أنها مما تتناوله أفكاري الكليلة، ولا أتعرَّضُ لحمدها فأحبطُ أجريَ في الاعتراف بالتقصير عن مواهبها الجزيلة، ولكن أوفّيها، ما وَجَبَ من إظهارِ العجزِ فيها.

وفي فصل منها:

---

(١) الذخيرة ٤: ٥٠٢.

(٢) ص: تتدهما، وعليها علامة خطأ.

* وأينَ الثـريّا من يدِ المتناولِ *

لو أُعِنْتُ بما تلاقى عليه [. . .] من خواطرَ ملتهبة المطالـع، وألسنـةٍ معروفةِ المقاطع، لما ازداد هذا الدَّيْنُ عليَّ إلاّ توثّقاً، ولا استجدَّ هذا الحقّ إلا تعلُّقاً.

* دَعْ ذا وعـدِّ القـولَ في هرم[1] *

أنا الآن من التشوّقِ إلى خدمته لو وجدتُ إليها سبيلاً، وأعملتُ نحوها رحيلاً، وقد كنتُ ارتحتُ للفقرة التي تضمنها كتابُهُ العالي من ذكر التفويضِ والتعويض، ورأيتُ أنها لو صَدَرَتْ عن الحسنِ البصريِّ لما زادتْ[2] على ما غشّاها في عينيَّ من البهاءِ وجلالةِ الصدق، ولقد انتفعتُ بها ورجوتُ يُمْـنَ نقيبتها [وَحُسْنَ] عاقبتها. وجملةُ ما أَقْتَرِحُهُ أن يتصوَّرَ فيِّ ما يتصوّر في بعضِ الأقربين من خادمٍ يُصْطَنَعُ فَيُجْرَى من الحنوِّ عليه مُجْرَى خواصِّ الأهـلِ وأداني الأصحاب، فلـه الـرأيُ العالـي في إنزالـي حيثُ أنزلـتُ نفسـي من الاختصاصِ بجهته، فأما المكاتبةُ فقد تقدَّمَ القولُ في اقتناعي منهـا بمثـلِ طيفِ الخيال، أو رضائي أن يخطرَ ذكري بالبال، إن شاء الله . .

- ٨ -

وطار للشريف أبي طاهر بازٍ كان يتصيد به، فكتب إليه[3]

بلغنـي خبـرُ الغـادرِ المفـارق، والباشـقِ الآبـق[4]، فشاركتُـهُ في الاستيحاش [مِنْ فراقِهِ] لما كان يُبْدِعُ من مصـايده، ويقـرّب عن مطـارده، ورأيتُهُ قد شابَ فضائلَهُ بهذا الغدر الذي يُسْلي عن تذكاره، والإباقِ الذي

---

(١) صدر بيت لزهير بن أبي سلمى، وعجزه: «خير الكهول وسيد الحضر» (شرح ديوانه: ٨٨).
(٢) ص: رددت.
(٣) الذخيرة ٤: ٥٠٣.
(٤) ص: الأريق.

يُنْسي محاسنَ آثاره، والنَّكْثِ الذي ختم به عواقبَ عهده، وبغَّضَ إلينا، بل إلى سيدنا، استخدامَ أمثالِهِ من بعده، لأنَّ أحقَّ الناس بكراهةِ الغدر من كان الوفاءُ رضيعَ لبانه، والحفاظُ منبتَ أُصُولِهِ ومنشأَ أَغْصَانه، وكأني بفقده وهو عند الدرَّاج من أنعم الأعراس، ومن الوحشةِ منه وهي بين سرابِ الطيور من أَلذِّ الإيناسِ، لأنها أُريحتْ بعدَه من حَتْفها العاجِل، وَسَمِّها القاتل، وأَجَلها القاصر، وَوَجَلها الحاضر، وَعُقْلَةِ قوادِمِها وخوافيها، ودهشةِ نواظرها ومآقيها، والكوكبِ المنقضِّ[1] على مسارحها، والسهمِ القاصِد إلى مذابحها، والآفة التي كانت حُرِمَتْ بها حُسْنَ الرياضِ المونقة، وثكلتْ بَرْدَ الغدران المغدقة، وتنغَّصت مشاهدةَ هذا الجوِّ الرقيقِ الشمائل، اللازورديِّ الغلائل، حتى صارتْ لا تلتذُّ بوكرٍ تَبْنِيهِ، ولا بِفَرْخٍ تُغَذِّيه، علماً بأنَّ لها منه مُفَرِّقَ العدد، وفاجعَ الوالدِ بالولد؛ ولو علمتْ هذه الأطيارُ الشامتةُ بنفاده، السالكةُ سبيلَ الأشرِّ بافتقاده، بما يُعِدّهُ سيدنا لها من ذي ظُفُرٍ مظفّر، ومِنْسَرٍ للطير مُيَسّر، وَخَلَفٍ صالحٍ، وجارحٍ جارح، أشدَّ لها منه اصطلاماً، وأسَدَّ إلى مقاتِلِها سهاماً، لعلمتْ أنَّ كثرتها استجماع[2] له، وأن وفورها توفير عليه.

وفي فصل منها: وما ألومُ هذا المارقَ على مَلِله وانحياشه، لأنه كان قد تعوَّد أن يصيدَ بمقدار قُوْتِهِ ومعاشِهِ، فصار سيّدنا يستخدمه بهمّةٍ تَطْلُبُ الغايةَ البعيدة، وتستسهل المشقة الشديدة، التي هَزْلُها جِدّ، وَجَوْرُهَا قَصْدٌ، ولعبُها ارتياض، يتصيّرُ من لم ينقدْ إليها سريعاً، [ذا] ضراوة على اقتناص من لم ينتهِ إلى أوامرها مطيعاً، فلم يُطِقْ على ذلك جَلَداً، ولم يجدْ بهذا الأمرِ الفادِح يداً، فما أشدَّ بَسْطي لعذره، ومعرفتي بسببِ غَدْرِهِ، وآملُ أن يتذكَّرَ ما كان له

(١) ص: المناقض.
(٢) ص: استجنام.

بفنائِـهِ من نعيمٍ، خَيالُـهُ بين عينيه، وطيبِ عيشٍ، تذكّرُهُ أَجْـدى له من حمـاقيه، فتدعـوه عواطفُ التـربية والإيثـار، وتـزولُ عنـه عوارضُ السَّهْـوِ والاغترار، فيعودُ إلى رسمه، ويعوذُ من جُرْمِهِ، ويرجعُ وقد أَدَّبَتْـهُ النكبـةُ، وهذَّبَتْهُ الغربة.

- ٩ -

كتابه إلى رئيس اعتنق الإسلام[1]

وكان في ذلك الأوان بمدينة [تكريت، رئيس][2] ممن يشار إليه، ويعـوِّلُ قومُهُ عليه، فرأى في منامه[3] النبيَّ عليه السلام مع عليِّ بن أبي طالب، وحضَّاه على الإسلام، ووجد في الانجيل ما دَلَّهُ على البشارةِ بمحمّدٍ عليه السلام، فاستدعيَ إلى الحضرةِ ببغداد، وطيفَ به في سائر البلاد، فكتب إليه ابنُ المغربيّ رقعةً قال فيها:

ويعلمُ الله ما ورد عليَّ وعلى كافّةِ مَنْ حضر من المسلمين من السرورِ بما أَبانَ الله[4] من آية قَطَعَتْ عُذْرَ الجاحدين، و[حجة][5] استهلكتْ شُبَهَ العانـدينَ الجاهلين، لا أنَّ هذا الدينَ - بحمد الله - مفتقرٌ من بعضِ حواشيه، إلى بيّنةٍ تزيدُ فيه، ولا أنَّ الاستـدلالَ الصـادقَ كان تَرَكَ شُبْهَـةً إلا فضحهـا، ولا معجـزةً إلا أوضحها، وزائغاً إلا قوَّمَهُ، وجاهلاً إلا علَّمه، وركناً للباطلِ إلا خفضه، وعقداً

---

(١) الذخيرة ٤: ٥٠٥.

(٢) بياض في ص، وزدته من تاريخ المسبحي: ٢٣٥ ب والرئيس المشار إليه هو أبو مسلم مشرف بن عبيدالله، وكان يعرف بالمطران الكبير، رئيس اليعاقبة؛ ويذكر المسبحي أن إسلام الرجل تمَّ يوم الخميس السابع من جمادى الأولى سنة سبع [. . .] وأربعمائة وأن الوزير المغربي أرسل إليه هذه الرسالة من ميافارقين؛ وقد أورد المسبحي جانباً من الرسالة لم يورده ابن بسام، وانقطع فيها بضياع الأوراق ما أورده صاحب الذخيرة ما عدا سطرين منها.

(٣) ص: مناها.

(٤) المسبحي: سروراً بما آتى الله جلت قدرته.

(٥) زيادة من المسبحي.

للشرك إلا نقضه، إلاّ أنَّ المخالفين قد شغلت الدنيا أكثرَهُمْ عن التأمّل، وحجبتِ العاداتُ خواطِرَهُمْ عن التأوُّلِ، فَبَعُدَ بالحجج السالفةِ ذكرهم، واشتدَّ إلى البراهين المستحدثة فَقْرُهُمْ، فكان أبلغ [برهان] إقبالُ مثلِهِ إلى المحجّةِ عن غير رغبةٍ استفزَّته، ولا رهبةٍ هزَّته، ولا محاسدةٍ أغْرَتْهُ، ولا مناظرةٍ عزَّته، بل أَطلقَ عنانَ عَقْلِهِ ومدَّ به راشداً حتى وقفه على الصراط المستقيم، واستتلاه قاصداً حتى أوردَهُ إلى المنهج السليم، فوردتِ النعمةُ بتخيّرِهِ صافيةً غير مكدَّرة، والمنحةُ في استثمانه وافيةً غيرَ مقصرة، فهنأ الله الإسلامَ ما لا يزال يتولاَّهُ به من إيضاحِ مَنَارِهِ، وتبلُّج أنواره، وإدامةِ صبحه ضاحكاً تتصدَّعُ عنه دياجيرُ الشبهات، وتنجلي منه ملابسُ الضلالات، وهنأ الله الشيخَ ما رآه له أهلاً من هذا السناء الذي تقفُ دونَهُ هممُ المعالي، وتضيءُ به ظُلَمُ الليالي، وغرسَ عنده التوفيقَ الذي يسترهن لواءَ النعمة، ويضمنُ بقاءَ العصمة.

- ١٠ -

وفي فصل من أخرى[١]

ولولا أنّي إذا أردتُ المواصلةَ بنفسي ثَقُلْتُ ثقلين بالزيارة، وبالدالة[٢] المستعارة، لما استنبتُ واللّهِ على لساني قلمي، ولا استنطقتُ يدي قبلَ فمي، ولكن الاضطرار يقود وأَتْبعُ، والزمانَ يقولُ فأستمع.

- ١١ -

وله من رقعة [في] فتح[٣]

ولما تقاربتِ الفئتانِ إذا بِعَدُوِّنا في عُدَّةٍ قد اشتملتْ منهم على كلِّ سهمٍ في كنانتهم؛ قد استكثروا من علوجٍ لا يَخْشُون[٤] حَوْمَةَ اللقاء، ولا يثبتونَ على

---

(١) الذخيرة ٤: ٥٠٦.

(٢) غير واضحة تماماً في ص.

(٣) الذخيرة ٤: ٥٠٦.

(٤) يخشون: يدخلون.

مقارعةِ الأكفاءِ، فلما اجتمع أعداءُ الله وقلوبُهُمْ بالذّعرِ متفرّقة، وأَقدموا وأقدامُهُمْ القهقراءَ راجعة، وكانت لنا عيونٌ تجثمُ على مدارجِ أنفاسهم، وطلائع تقبضُ على مسارح ألحاظهم.

وفي فصل منها: وبادَرَتْهُمْ فتيان بني عامرٍ على الجُرْدِ الصلادم[1]، قد بَزُّوا الجُنَنَ تَعَجُّلاً للطِّراد، وتخفَّفوا من الرماح تقصيراً للبعاد، فوكزوهم بالرماح وكزاً ترك الدروعَ منهم غلائلَ، وأمانيَّ الحياة فيهم قلائلَ، فلم يترك القتلُ منهم إلا أنفساً عافتها كرامُ السيوف، أو آخرين عزين[2] تكفكفُ عنهم الرحمُ العَطوف، يتمسكون بأنفسهم حَوْزاً، ويعتدون ذلَّ الفرار عزّاً، وافترقوا إلى أوطانهم يرقبون الليلَ كما يُرْتَقَبُ الصباح، ويدلجون بكلِّ ماشٍ من الخيل بجناح، وكان أميرهم في بُلَهْنِيَةِ الاستهامة بهم، وقلة الفكر فيهم، قد بات يعملُ كاسَهُ ويلهي جُلاَّسه، وغدا سكرانَ على فَرَسٍ جموحٍ يبادرُ النهابَ وهي أنفسهم، ويحاولُ الغنائمَ وهي مُهَجُهُم، فرقَصَتْ به الفرسُ فصادف ذلك الأَجَلَ المكتوب له. فجزى الله هذا الحيَّ من آلِ عامر أهنأَ الجزاءِ عاجلاً، وأدومَهُ آجلاً، وثنى ببني عمنا الأقربين، وعشيرتنا المستخلصين، خفاجة، وكذلك الجيران، وأهل البلدِ والأعيان وألفاف[3] كانتْ أسماؤهم نكرةً، فعرَّفَتْها المواقفُ الحميدة، وطوائف عاطلة حَلَّتها الخطا البعيدة، وخاملة نبَّه عليها شكرُ السيوف لأيدٍ منهم وَصَلَتْ قصارَها، وأَوْصَلَتْ في زحامِ الوردِ حوارها.

- ١٢ -
وفي فصل له[4]

وكلّما هممتُ بمفاتحتِهِ اعترضتني خَجْلَةُ المتَارَكَةِ، واستوقفتني غفلةُ

---

(١) ص: الصوارم.
(٢) ص: عرينة (دون اعجام).
(٣) ص: والفات.
(٤) الذخيرة ٤: ٥٠٧.

المجانبة، وخانتْ يدي قلمي، فلم تَشْفِهِ بإظهارِ ضميره، ولم تحسنِ النيابة عنه في الاعتذارِ من تقصيره.

- ١٣ -

رسالته إلى أبي العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري وأخيه(١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

هذه أطال الله لسيديَّ الشيخين في سبوغ النعمة البقاءَ، وأدام لهما في ذروة المجد الارتقاءَ، وجعلني لهما من كل سوء الفداء والوقاء، نفثةُ مصدور، وضجرةُ مأسور، بَعَثَتْهما صَبابةُ هوى تذكيها نارُ الغرام، في صبابة لقاء تُقِلّها أيدي السلام:

بقيةُ شِلْـوٍ كَسَّـر البَيْنُ عَظْمَهُ ومـزّقَ جلـداً كان يستـر ما بقي
أقـام فلا تلك الخوافـي تطيعهُ نهوضـاً ولا تلك القـوادم ترتقي

ولا بدَّ للمصدورِ أن ينفث، ولا غرو للمأسور أن يتلهث، وجملتها أني كتبتُ وما لي جارحةٌ إلا وهي جريحةُ حبهما، ولا جانحةٌ إلاّ وهي جانحة إلى قربهما، ولا قلبَ إلا وهو كيفما تردَّد وتقلَّبَ ففي مرضاتهما، ولا نَفَسَ إلاّ وهو كيفما تَصَعَّدَ وتصوَّبَ ففي موالاتهما، فالله يحرس على مُوقِدَيْ جَزْلِ الغضا بين جنبيَّ، ومُوفِدَيْ جيش الصبابة كلَّ يومٍ إليّ، اللذين إن واجهتُ بهما المروءةَ أسفر مربدّها، وسرّ مكمدّها، وإن قابلت بهما الفتوة طلع سَعْدُها وأورى زَنْدُها:

أردّدُ فيهمـا فكري فترجـعُ حُسَّـراً فِكَري
كذاك الشـمسُ تثنـي العَيْـ نَ مُعْشاةً عن النظر

فإذا هاجتْ بلابلي ذكراهما، وإن كنت لا أنساهما، واشتقت أن أراهما، ولم أجد عوضاً ممن سواهما:

---

(١) انظر رسائل المعري ١ : ٢٥١، تحقيق إحسان عباس.

أَرومُ بالـذكر شفـاءَ الذي يُقْلقنـي من لوعـةِ الذكرِ
ولسـتُ بالحاصـل إلاَّ على إطفـاءِ جمـرٍ بلظـى جمر
وعلـةُ الـكون إذا طوليَتْ بالجـري في الإفسـادِ لَمْ تجرِ

مثلت نفسي لديهما، وقرَّرت مكانها بين أيديهما:

وخلـوتُ أجْتَلِـبُ الرُّقـادَ لعلني أَلْقَـى خيالاً منهمـا فأراهما
فإذا عدمـتُ النـومَ لُذْتُ بفكرتي فانجـاب لي من ليلتـي فجراهما
وإذا سئلـتُ بمـن تهيمُ صبابةً قلـتُ اللـذان همـا اللـذان همـا هما

الموفيان بعهدي بالغيب، والساتران لما فيَّ من عَيْب، والمحسنان إليَّ إذا أسأت، والمصيبان في أمري إذا أخطأت:

دليلايْ إن جار بي مُهْتَدٍ وعَوْنَـايَ إنْ خَذَلَ الناصرُ
ولـولا تردد فِكْرَيْهما لمـا كان لي في الدجـى سامر

من أَجْتلي غُرَرَ محاسنهما من جَبَهات الدهر، وأقرأ فضائلهما في صحائف العصر وأطالعُ طلعتيهما في مرآة التخيل وأشاهد سمتيهما بعينِ التفكر والتأمّل، ولا غرو وإن بعد العهد، إذا قرب الودّ، ولا ضيرَ إن تناءَت الأشباحُ، فقد تدانت الأرواح:

ولـكنْ إذا حاسبـتُ نفسـي تأمَّلَتْ فلـم تَرَ إلاَّ فكرةً قلَّ ما تجدي
فلا العين ترعـى غير ما كان من نوىً ولا القلب يلقـى غيرَ ما كان من وجدِ
وإنّـي لجانـي البعـدِ والبعـدُ قاتلي وشاحِـذُ حدِّ البينِ والبينُ لي مردي
فوا أسفـا من ذا أَلـومُ علـى النوى ومـن قِبَلـي كان الفراقُ ومـن عندي
وكم قَدْ أَقَلْـتَ الدهـرَ من خطـأ ثُنىً فهـلاَّ أقـال الدهـر من خطـأ فرد
فنفَّسَ من كربٍ وفـرّج من أسىً وجمَّـعَ من شتّ وقـرَّبَ من بعد

وهيهات هو الدهر الذي يسرُّ نادراً ويسوء مبادراً، ويحسـن مبتدئـاً ويسـوء

آخراً:

ويجـودُ ثم يُجيدُ أَخْـذَ صلاته　　مستـدركاً خطـأ الجميل فَمُدْرِكا
فإلـى الزمـانِ أذمُّ ما ألقـاه من　　غيَرِ الزمـانِ وأستنيمُ إلـى البكا
وإذا شكوت إلـى سواهُ صنيعَهُ　　لم يُشكنـي فإليه منـه المشتكى

فلعلّه أن يغلطَ باجتماع، لا يكدّره انصداع، أو تلاق لا ينغصه افتراق، وهو المرجوّ من طول الله تعالى. ولولا ما أرجوه من عَوْدِهِ إلى ما عوّدَ من جمع الفريقين، ولمٍّ ذات البين، لمتُّ كمداً، ولم أجد على ما أقاسيه جَلَداً. فأما حالي وما أنا عليه، فجملتها أني أصبح وأمسي في غلِّ التدبير، وأروح وأغدو في سجنِ المقادير، هَدَفاً لسهام الليالي والأيام، وغرضاً لأسنّةِ الأحوالِ والأعوام، أجِدُ ما لا أريدُ، وأريد ما لا أجد:

وليتنـي من زماني خرجـتُ راسـاً براسِ
فلـم ينلنـي بخير ولـم يصبنـي بياسِ
وكنـت أصبـح حراً بين ارتجـاءٍ ويـاسِ

وهما يريان ذلك في اضطراب خطي، ورجوع الفاظي شيئاً فشيئاً إلى حُطّي، فإذا هما صرفا التأمّلَ إليّ، وأقبلا بكليّة فهمهما عليّ، وجداني:

وقـد استحـال الهـمُّ بي فتخالني　　من طول ما أجـد الجـوى مسرورا
وقد انطوتْ منّي الضلـوعُ على أسىً　　لو كان محسوسـاً لكان سعيراً

وأَخْلِقْ بمن كانت هذه صفته، أن تتساوى عنده الصحّة والسقـم، وأَحْرِ بمن كان هذا نعته أن يتماثل لديه الراحةُ والألم:

بأيِّ فؤادٍ أقاسـي الهمومَ　　وفـي أيِّ جَفْـنٍ أُحِسُّ السهادا
ومـا ترك الدمـعُ لي مقلةً　　ولا خلَّـفَ البينُ عنـدي فؤادا

وأنا مع كمالِ هذه الأحوالِ أُخاشِنُ الحجر، وأُحاسن القمر وأفاضل الهجانَ

بالهَجَن، وأُفَضّلُ الغَثَاثَةَ على السِّمَن:

أتعاطى نزح الركيِّ وقد قصَّـ ـر عن أن ينالَ ماءً رشاءُ
ولعهدي بفكرتي وهي تنجا بُ بها عن صباحها الظلماءُ
غيرَ أني وإن تَعَاوَرَني الهمُّ وشاءَ الزمانُ ما لا أشاء
ورماني مستيقناً أن قلباً بين جنبيَّ صخرةٌ صمَّاء
لا أبالي بالليل طالَ أم اليو م، كلا الرتبتين عندي سواء
والمغادي هو المراوح من همـ ـي فهذا الصباحُ ذاك المساء
وإذا العينُ لم تعاينْ سوى السُّو ءِ فسيَّان ظلمةٌ وضياء
وابني الهمّ لا ابنه أنا إذ كلّ ابن هم بليَّةٌ عمياء

وبعد فهذا ـ أدام الله عزّ سيديّ الشيخين ـ قولُ أستغفرُ الله منه، وأسأله التجاوز عنه، وأسلم للمحتوم في أمره؛ وأرضى بقدره في خيره وشرّه، وأسأله الجمع بيني وبينهما على حالٍ تسرُّ الوليّ وتسوء العدو بحوله وطوله، إنه ولي الإجابة والقادر عليها، إن شاء الله تعالى.

ـ ١٤ ـ

رسالة أبي القاسم إلى السدة القادرية وقد طعن عليه في مذهبه ونسب إلى الاعتقاد بالمذهب المصري والتديّن به[١]:

الدهر أبو العجائب وذو الغرائب، إلا أني ما ظننتُهُ يُبْدِعُ هذه البدعةَ الشنعاء، ولا ظننته يطرقُ هذه الظنةَ النكراء. وينبغي أن أنزلَ عن الاحتجاج للملك ـ أدام الله بقاءه، وأعزّ نصره ولواءه ـ والمؤتمن على تدبيره والسفير بينه وبين عسكره ـ أدام الله تمكينه ـ فإن الله يعلم، والناسُ يعلمون خلوصَ نياتهما في الطاعة، وَبُعْدِهِما من هذه الشناعة، فإن تشاغلي بما يخصّني من هذه الحال التي ظننت أن العَرْضَ

(١) بغية الطلب ٥: ١٦ ـ ١٧، وذكر ابن العديم أنه حذف من آخرها ما لا حاجة إليه.

على الله يسبقها وأن المعتقدَ المقدّس قد استحكم في الثقة استحكاماً يُقْصِرُ أيدي اللئامِ عن صياغة مثلها لي، فإن كان يظن أن ما وُسِمْتُ به من النسب المستعار، يحملني على الازورار، فإن الأمرَ بضدّه، إذ كان أصلي من البصرة وانتقل سلفي عنها في فتنة البريديّ إلى بغداد، وكان جدُّ أبي وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلفُ على ديوان المغرب، فنسب به إلى المغربي، وولد له جدّي الأدنى ببغداد في سوق العطش، ونشأ وتقلد أعمالاً كثيرةً منها تدبيرُ محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر المملكة.

وكان خال أبي وهو أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي المعروف الذي مدحه المتنبي متحققاً بصحبةِ أبي بكر محمد بن رائق. فلما لحق أبا بكر ابن رائق ما لحقه بالموصل سار جدّي وخالُ أبي إلى الشام والتقيا بالإخشيد، وأقام والدي وعمي رحمهما الله بمدينة السلام وهما حدثان إلى أن توطدتْ أقدامُ شيوخهما بتلك البلاد، وأنفذَ الإخشيدُ غلامَهُ المعروفَ بفاتكٍ المجنون الممدوح المشهور فحملهما ومن يليهما إلى الرَّحبة، وسار بهما على طريق الشام إلى مصر، فأقامت الجماعة هناك إلى أن تجددتْ قوة المستولي على مصر، فانتقلوا بكليّتهم وحصلوا في حيّزِ سيف الدولة أبي الحسن ابن حمدان مدةَ حياته، واستولى جدّي على أمره استيلاءً تشهدُ به مدائحُ أبي نصر ابنِ نباتةَ فيه، ثم غلب أبي من بعده على أمره وأمر ولده غَلَبةً تدلُّ عليها مدائحُ أبي العباس النامي فيه، ثم شجر بينهما ما يتفق مثلُهُ بين المتصاحِبَيْنِ في الدنيا ففارقه من الرحبة، وانحدر إلى الأنبار قاصداً مدينةَ السلام، فلما حصل بالأنبارِ وجد العراقَ مضطرباً، وبهاء الدولة رحمه الله في أول أمره غالباً، فخُوِّفَ من المقام، فركب مغرِّراً بنفسه قاصداً إلى الشام ليتمكن من تَعَرُّفِ أخبارنا، وافتكاكِ إسارنا، فإنا كنا بحلبَ معوّقين من بعده، فلقي بمصر الحظوةَ التي عُرِفَتْ، وليتها ما اتفقت، فإن ختامَها كان سُمّاً زعافاً وعقباها كان بواراً واجتياحاً، وانتقلتُ في أثره، وكانت والدتي من أهل العراق، ولنا إلى اليوم أملاك

بالنعمانية موروثة، فكنا بمصرَ زوّاراً، وبالعراق لما انتقلنا إليهـا قاطنين وأُلآفـاً، فهذا أولاً حديث الأصل الذي وقع الاشتباهُ، وتمّ التمويه فيه.

ثم أرجعُ إلى ذكر الدين: فإني نشأتُ وَغُذِيتُ بكتب الحـديث وحفـظِ القرآن، ومثافنة الفقهاء ومجالسةِ العلماء، ووالله ما رأيتُ قطّ بتلك البلادِ مأدبةً ولا وليمةً إلاّ لمقرئين، ولا كنتُ متشاغلاً إلا بعلم أو دين، ولقد سلمَ لي من جُزازاتِ كتبي ما هُوَ اليومَ دالٌّ على تشاغلي بالدين القيّم، واستمراري على النهجِ الأسلم، لأنه ليس كتابٌ من كتـب السنـة إلاّ وقـد أحطـتُ به روايةً ودراية، وها هنا اليوم نسختان من موطّأ مالك سماعي من جهتين، وعليهما خطوطُ الشيخين، والصحيحان لمسلم والبخـاري وجامـع سفيان، ومسـانيد عدةٍ من التابعين. ولي - وأحمدُ الله - إملاءاتٌ عدّةٌ في تفسيرِ القرآن وتأويله وتخريجاته من الصحاح المذكورة، وسمعتُ كتابَ المزنيّ عن الطحاوي عن المزني. وأما الأحاديثُ المنثورة التي كنتُ أبكّر بكورَ الغرابِ لاستماعها، وأطرحُ زينةَ الدنيا في مزاحمةِ أشياعها، فأكثرُ من أن تُحْصَـى، فكيف يُظَـنُّ بمثلي ممّنْ ظهر تماسكه إن كان لم يظهرْ باطنه تعلُّقٌ بالهباءِ المنثور، وتمسُّكٌ بالضلال والزور؟!...

- ١٥ -
خطبة له بين يدي الحاكم

وقف أبو القاسم الحسين بن علي المغربـي خطيباً بين يدي الحـاكم فقال[١]: السلام على أمير المؤمنين بقدر استحقاقه من ربّه، لا بقـدر مقـالِ

(١) الدواداري: الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية (الجزء السادس من كنز الدرر) تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٦١) ص ٣٠٩ - ٣١٢، وقال المؤلف: وهذه الخطبة لم تثبت في رسائل أبي القاسم إلا أنها ثابتة في سيرة الحاكم. قلت: والنصّ فيه اضطراب وتصحيف كثير.

عبده، ولا زالت الدنيا بعزّه حاليةَ الأجياد، والأعوامُ بسناء دولته مصقولةَ الأطراف، حتى تعودَ الأعيادُ بين أيامه في عموم المسرّة وإشراقِ نور الخلافة، وحتى أقفَ بين يديه خطيباً بنعمةِ الله جل وعزّ في إنجاز ما وعده من مُلْكِ المشرقين والمغربين، وحتى أرى سيوفَ انتقامه تشكو الظماءَ وتتعلّلُ بالأماني، لا عدوّاً أبقت بتلهلها علقاً (؟) ولا عن باغٍ ذهلت، رويت برويها دماً صبيباً. (كذا).

هذا الطاغي ملك الروم بقسطنطينية قد كان خرَّقَ إزارَ السلم، وهتكَ حجابَ الأمن، وأطلقَ مقال الحرب، وظنّ ما أجرى من الحديد، وصوَّبَ من مجاري الجنود، عاصماً له من جُنْدِ الله وملائكته المسوَّمين، وستراً على ما أنزله الله من الفتح المبين، حتى ضعضعه زلزالُ الحروب، وأذابته نارُ الوقائع، فعاد يفتلُ حَبْلَ الهدنة، ويمدُّ إليك أميرَ المؤمنين كفَّ الرغبة، فلمّا أفرشته مراقدَ الامهال، وأسكنته تحت ظلِّ القرار، عاد يستري ويمتري، فهبَّ يشغب قصد القنا، ويستنُّ فلولَ القضب، فكيف بنبشِ الرسم وإحياء الموتى، ألا وإني أقول لكم يا قومنا معشرَ أنصار أمير المؤمنين، كما قال أخو خزاعة:

قاتلوا القومَ يا خزاعَ ولا يدخلْكُمْ من قتالهمْ فَشَلُ
القومُ أمثالكم لهم شَعَرٌ في الرأسِ لا يُنْشَرون إنْ قُتلوا

﴿ قاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله ﴾ (البقرة: ١٩٣).

﴿ ولا تَهِنُوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تألمون فإنَّهمْ يألمونَ كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ (النساء: ١٠٤) و ﴿ عسى أن يكونَ رَدَفَ بكم بعضُ الذي تستعجلون ﴾ (النمل: ٧٢).

هلمّوا رحمكم الله، هلمُّوا نصركم الله، هذا بابُ الزلفى مفتوح، هذا

رواقُ الجنةِ ممدود، هذا أمير المؤمنين لكم أمير، هذا جبريلُ وفئته لكم ظهير ونصير، ﴿ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُه﴾ (الحج: ٤٠) ﴿فإنَّ حزبَ الله هم الغالبون﴾ (المائدة: ٥٦) وآيم الله يا أميرَ المؤمنين، لو لم يكنْ لك إلا هيبتَكَ جندٌ، وإلاّ فَرَسَكَ مَعْقِل، وإلا ذا الفقارِ سَلّة، وإلا عَذَبتي لوائِك ظلال، لدمغهم سلطانُ الحقّ، ورشقتهم سهامُ النصر، والتقت عليهم خيلُ الله بالظفر، ولكان الرعبُ في القلوب خليفةَ سيفك في قَصَرِ الهامات ﴿وإن لكَ موعداً لن تخلفه﴾ (طه: ٩٧) و ﴿إنَّ نصر الله قريب﴾ (البقرة: ٢١٤).

ثم إني يا أميرَ المؤمنين عبدك ووليُّك ابنُ أوليائك، إن شئتَ كنتُ جمرةً تَسْعَرُ في صدورهم، أو سحابةً تفيض على القتال، فأجلوَ عن بصائرهم بالمواعظ، وأحلّلُ عُقَدَ صدورهم بسحرِ البيان، وإن شئتَ فأقمني بحضرةِ سريرِ عزّك خطيباً بنعم الله عليك، وناظماً بسيرةِ أيامك، وسناناً تدرأُ به نَحْرَ كلِّ خطيب أشرقَ في ملكٍ غيرِ ملكك؛ فوالذي أقامك بالحقِّ إماماً، ما سرّني بنظرةٍ نظرتُها إليكَ ملء الأرض ذهباً، ولئن كنتَ نعمَ الامام ونعم الراعي، لأنا بئسَ المؤتمّ وبئسَ الرعيّة، وإني لأَصْدَقُ الناسِ قولاً حيث أقول فيك يا أمير المؤمنين:

[أنت] أعطيتني كتاباً إلى رضوا نَ حتى أُجِزْتُ خيرَ الجزاءِ

الأبيات...

- ١٦ -

رسالة في السياسة

١ - حقٌّ على من رسم رسماً في السياسة أن يجعله في غاية الاختصار، لأن المقصود بفائدته العظماء، وهم مخصوصون بكثرة الأشغال، والتسرع

إلى الملال. على أن أفضلَ ما في الناس عموماً، وفي السلطان خصوصاً، محبَّةُ العلم والتشوقُ إلى استماعه والتقريبُ لحملته، فإن ذلك دليلٌ على قوة الإنسانية ومن أَعظم ما يَتَحَبَّبُ به إلى الرعيّة. ثُمَّ فيه مع ذلك، استعـراضٌ للتجارب، واستعدادٌ للنَّوائب، إذ كانت أخبارُ الأوَّلين تدلُّ على آراء تجلَّتْ لهم أوائلُها، واحتجبتْ عنهم عواقبُها. ونحن بتأملنا ما آلت إليه أُمورُهـم، وأثمرَ لهم تدبيرُهم، نعلمُ من آرائهم الأول والآخر، والهوادي والصدور.

٢ ـ والسياسات ثلاث: سياسةُ السلطان لنفسه، وسياسته لخاصته، والثالثة لرعيته. فالسائسُ الفاضل إنما يُصْلِحُ نفسَه أوّلاً. ثم يصلح بسياستها رعيته، وما يحملها عليه من الآداب الصالحة لرعيته، فينشأ الصلاح على تدريج وتسود الاستقامة على تدريج.

باب
اصلاح السايس نفسه

٣ ـ فمن إصلاح نفسه: إصلاحُ بدنه؛ لأنه كالقالِب لنفسه، والوِعـاء لجنسه: وأول ما يلزمه من إصلاح جسمه تمرينُه على أذى القرِّ والحرِّ، فإنَّ الإنسانَ في هذه الدنيا على جناحِ سفر، وبإزاء غَرَرٍ وغِيَر. والـرئيسُ متى اتصل نعيمُه، ورَقَّ أَديمُه، بانَ أَثرُ المشقةِ عليه، وظهر الجورُ والعجزُ منه.

٤ ـ ومن مصالح الجسم تجويد صنعة الطعام؛ فإنَّ استطابـةَ المـأكل تُقَوِّي الطبيعةَ على الاستمـراء والهضم، وبـالضد أن لا يتناول منه شيئاً إلا بعد استمراءِ ما أكلهُ قبله، ونقاء المعدة منه.

وقال لنا «صاعد»: استعمل الرياضةَ اللائقة بك، ولا تَكُظَّ المَعِدَةَ، وقد أمنتَ الأمراضَ كلها.

٥ ـ ومن الحكمـة في الغِـذاء أن يكون لونـاً أو لونين متجـانسين فإنَّ

اختلافَ الألوانِ يؤدّي إلى سوء الاستمراء، ويجب أن يعتمد الحكيمُ على ذلك، ويوفر غيرَه مما تُزَيّنُ بهِ الموائدُ على ندمائه وجلسائه.

ومن الحكمة فيه أن لا يستوفيَ نَهْمَتَهُ كلّها منه حتى يملأ المعدةَ، لأن الطعام إذا بدأ بالنُّضج رَبا وانتفخ، فإن لم يجدْ في تجويف المعدة متَّسعاً أَعقبَ الكِظَّةَ.

٦ - ومن الحكمة في الشراب أن لا يبلغ الحكيم منه مبلغاً يزيل العقلَ ويُصدىءالذّهنَ، بل ما يُكسِبُ هِزَّة وأَرْيحِية. وأقبح ما بالسلطان أن يبلغ آخر أَمد السكر، فيبقى سلطانُهُ في ذلك الوقت مهملاً، بل يجعل لنفسه وظيفةً يتعلل بشربها ولا يتعدّاها، ويتناول منها في أول مجلسه كؤوساً وافرةً، توقد نار الطبيعة وتذكيها. ثم يتعلَّلُ بعدها بما يستديم المؤانسة إلى أن ينقضي وقتُ الشراب، وهو ثَمِلٌ طيب النفس، غير زائل العقل. وليحذر النهوضَ عن مجلسه وقد انهتك السِّتْرُ بينه وبين خَدَمِهِ وحاشيته.

٧ - ومن الحكمة في الشرب إغْبَابُه، وإفرادُ يوم له ليتناوله على جَمَام له ونشاط إليه، فتتوفر لذته ويكون أكثرُ زمانِهِ لما يهمه.

٨ - ومن الحكمة فيه إخلاء المجلس له إلا من أخصِ الندماء [و] قد اطُّرحت الحشمة معه؛ وأن لا يحضر خدمته إلا العدد اليسير الذي لا يستغنى عن خدمتهم.

٩ - والصبر على السَّهر من أَشرف صفات الملوك، وغلبة النوم من أدونها، ويجب أن يسهر ربعَ الليل الأوَّل، ويستيقظ وقد بقيتْ منه بقيةٌ صالحة، وأن يستعين بنوم النهار، لأنه لا يخاف من طروق حوادثه وفوتِ تلافيها. [و] مما يخاف من حوادث الليل جلب الحوادث الهائلة، ولذلك وُجد في الحيوان المخلوق للحراسة كالكلاب والإِوَزّ طبيعةُ السهر.

* * *

١٠ - ومن حفظ الصحّة الحمّام، وفيها استفراغُ فضولِ الأطعمة والأشربة. والملوكُ إلى ذلك أحوجُ من الرعيّة، لأنَّ الرعيَّة تنفي ذلك عنها بالحركاتِ والصنائع الشاقة. ومن احتاج إلى تنقية بدنه من الفضول بالحمّام، فليدخل البيتَ الثالث، بمقدار ما تحتملُهُ طبيعته. ثم يصبّ على جسده بعده ماءً فاتراً، ليجفف المسامّ، ويردَّ الحرارة إلى قعر البدن ويمنعَ من كثرة التحلل. وإذا خرج منه فليحذر كلَّ الحذرِ، مبادرةَ الأكل والشرب، إلا بعد استراحة ونومة يُسكِّنُ بها ما عرض في بدنه من التموج والاضطراب، فإنَّ ذلك خطرٌ وجالبٌ لكثيرٍ من العلل.

١١ - والرياضة من أعون الأمور على حفظ الصحة، فلتكن أمراً قصداً، وبحسب العادة والاحتمال. ومن أصلحها للملوك اللّعب بالصَّوْلجان، لأنه مع الرياضة تخفيف للحركات، وتعوُّد للمثاقفات.

١٢ - وأول سياسة الملك لنفسه: استعمال تقوى الله تعالى، وأن لا يخلي وقته من ذخيرة يَدَّخِرُها بينه وبين ربه. ثم الاكثار من تذكّرِ نعمة الله عليه في أن رفعَهُ وَخَفَضهم، وملَّكَهُ تدبيرَهم، وفضَّلَهُ عليهم. فليواصل حَمد الله تعالى عليه، ويجعل من مجازاة نعمة الله عليه العدلَ فيما ولاه، والإحسانَ إلى من استرعاه، والسهَرَ لنومهم، والتعبَ لحراستهم. وأن لا يظن أن غرضَ الوالي تحصيلُ الراحةِ والدَعَة، بل هو أحقُّ الناس بالتَعب، وأولاهم بالنَصَب.

١٣ - واللذات إما مباشرةٌ للأعمال ببدنه، أو تفكرٌ فيها بقلبه، والسائس الفاضل لا راحة له بالحقيقة، ولا طريق له إلى اللذة، إلا بمقدار ما يُجِمُّ نفسَه في أوقاتٍ يسرقها من زمان شُغْله. فيجب أن يوازِنَ بها ما يتعوضُه عنه من جميل الذكر، وجليل الذُّخْر، ثم رضى سلطان له إن كان فوقه. ولا رتبةَ أبْهَى من رتبة العزّ، ولا زينةَ أجلُّ من زينة المقتدر النافذ الأمر، ولا حليةَ

أَحْسَنُ من حلية الثناء والشكر.

فهذه لذاتُ الساسة الحكماء، وأَعْوَاضُهم من الكدّ والعناء، وإنْ هم حفظوا الأصول فقد ينالون الفروع، التي هي اللذات، في أوقات لا تخلُّ بأشغالهم، فيجتمع لهم الأمران.

١٤ - ثم ليحذر كلَّ الحذر من تأخر عمل يوم إلى غد، فإن لكلِّ وقتٍ شغلاً. وهذا الخُلُقُ مِنَ المُدَافَعَات بالمهمات أدهى الدَّوَاهي، التي تَتَابعَ لها الخلل، وانهدمتْ لها الدُّول.

١٥ - ثم ليجتهد أن يجعل طاعةَ الخاصةِ والعامةِ لهُ طاعةَ محبة لا طاعة رهبة. فإذا أطاعوه محبةً حرَسوه، وإذا أطاعوه رهبةً احتاج إلى الاحتراز منهم. وشتان بين حالين: إحداهما تجعلُ الناسَ حراساً، والأخرى تحوجه إلى الاحتراس منهم. ولسنا نعني بزوال الرهبة خلوَّ قلوب الرعيّة منها بالموجدة وإنما نعني أن يكونوا في حالِ رهبتهم له، واثقين بعدله آمنين من تعسفه وظُلْمِهِ، فتكون الرهبة حينئذ كمخافة الولدِ لوالده، بفَرقٍ أو بأدب، وهو يَعْلَمُ أنه لا يريدُ إلاَّ خيراً له.

١٦ - ورأسُ السياسة إنجازُ الوعد والوعيد، ومكافأَةُ المحسن والمسيء، والوفاءُ في الجد والهزل، والاستخدام بالكفاية لا بالغاية، والتيقظ للأخبار في القرب والبعد. فَمَن أحرَز هذا الفصل، وأَحاطَ بمعانيه أحاطَ بالسياسةِ كُلِّها، وبالله تعالى الثقة.

١٧ - وليجتهدْ في إحراز الحظ الجزيل من فضائِل النفس وهي: العلم والعفة والحلم والسخاء والشجاعة:

فمن العلم معرفته بما يأتي ويذر، وشدةُ بحثه عن كل ما جَلَّ ودَقَّ.

ومن العفة تنزهه عن المكاسب التي فضلتها الرعية ، ويجتهدُ أن تكون وجوهُ دخله مناسبةً لجلالة قدره وعلوِّ منزلته ، لا يَهْتِكُ فيها للدين ولا للمروءة ستراً ، ولا يبعثُ بها على أحدٍ من الرعيّة انتقاصاً وظلماً .

ومن الحلم تأخيرُ عقاب المُقَصّر إلاّ بعد تكرير تنبيهه ، والإغضَاءُ عن أولٍ وثانٍ من جرمه ؛ فإذا انقطع العـذرُ أوقـع العقوبـة بموقـع السياسـة لا التشفي ، والعدل لا التعدّي .

وأما السخاء فأن لا يمطلَ حقاً ، ولا يخيّبَ أملاً ، ولا يُؤْيِس قاصداً ، فإنه يستعيض بعزِّ الولاية وجاه القدرة خَلَفاً من كلِّ ما ينفقه . وليعلمْ كلُّ والٍ أنّه وكيلُ الله على ماله ، وأن عليه حقاً واجباً لكلِّ ابن سبيل ، ومنقَطَعٍ به . فليخرج إلى موكّله مما يلزمه له ، وإلا لا يأمن من استبداله به وحفظه عليه .

ومن الشجاعة أن يُشْعِرَ قلبَهُ أنه لا يجوزُ أن يكونَ الجبان ضابطاً لأمره ، ولا حارساً لرعيته ، وأنه إذا استشعر أعداؤه وأولياؤه ذلك طمعوا في عطفه ، وتدرّجوا إلى اطّراح مراقبته ، وأن يجعل وُكْدَه كلّه جمع الرجـال والأسلحـة والخيل والعدد .

١٨ ـ وإنْ وثق السائس بتحصيله فليدرُسْ أخبـار المـاضين ، ليجتنب أقبحَها ويعتمدَ أصلحَها ، فإنه بابٌ عظيمٌ من أبواب السياسة .

باب
سياسة الخاصة

١٩ ـ اعلمْ أنَّ سياسةَ الخاصة ليست كسياسة العامة ، لأن سياسة العامة استحفاظُ طاعتها ، وإقامةُ الرغبةِ والرهبة فيها ، وإفاضةُ المَعْدَلةِ عليهـا ، من غير أن يحدّثَ نفسه إلزامها الآداب الصالحة ، فان ذلك عسيرٌ لا يرام . لكنَّ الخاصة يجب أن يعتنى بإصلاح أخلاقهـا ، وتهـذيب آدابهـا ، لتقـوى علـى

حقوق الخدمة التي تلزمها. وإذ كانت للرئيس، فهي كالأعضاء للبدن، فمتى لم تكن الأعضاءُ على الهيئة الفاضلة، أو عرض لها أمرٌ يثني كلها أو بعضها عن فعلِهِ الأصليّ الموظّفِ له، وقع الاضطرابُ في جملةِ البدن.

٢٠ - وأَول ما يجبُ اعتقاده في هذا الباب أن السائسَ لا يستغني عن تثقيفِ خاصَّته، وتفقُّدِ أحوالهم، وتقويم زَيْفهم، وإن كانوا حصفاء أسداداً. مَثَلُهُ في ذلك كالصانع الذي يحتاج في صنعته إلى آلات، وتلك الآلاتُ لا يجوز أن تبقى على حالها مستقيمةً بل منها ما يكلُّ فيشحذه، ويعوجُّ فيقومه، ويفسد فيصلحه. وكذلك السائس يجب أن تكون له عينٌ راعية، تتفقد أصحابه ليتلطفَ في تثبيت صلاحهم ونفي فسادهم بما يتهيأ.

ومما يحتاج إليه في هذا المعنى أن لا يعتقد أنه إن استغنى أو استكفى كافياً أمراً يهمه، فقد استغنى عن تفقده وتعهده، بل يجب أن يتصورَ أنه مضطرٌ إلى مراعاته، وملاحظته بنفسه، كالأستاذ في الصنعة، الذي يكِلُ إلى تلاميذه ما يصنعونه، إلا أنّه يراعيهم ليأمنَ خللاً يجري فيه.

وهذا أَصلٌ عظيم ينبغي أن يوقف الفكر عليه والاهتمام به.

٢١ - ويجب أن يستخدم خواصَّه على المخالصة والمحبة الصرف بلا مزاج، وطريقه أن يستعمل معهم أربعَ خصال:

أولها: الإحسان إليهم، فقد «جُبِلَتْ القُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إلَيْهَا»، وأن يتفقد أحوالهم فيلمّ شَعَثها ابتداءً قبل المسألة، ليدلَّ على خلوص الاهتمام ولطف العناية. فإن قليل الابتداء أَهنأُ وأحسنُ موقعاً من كثير العطاء بعد السؤال.

وثانيها: بسط آمالهم بالعفو عن الزلل.

والثالث: أن لا يستقصي عليهم في أزمنة خدمتهم، حتى لا يجدّد ترحة

لراحة نفوسهم ولذاتهم. ولكلِّ إنسان وطرٌ يجب أن يقضيه، ويتنغص عيشهم بمناقشته فيه، ويلحقهم بالاستقصاء ضجرٌ وملال، يُفْسِدُ الخدمة. فإذا سَاهَلَهم الرئيس بعضَ المساهلة كانوا في خدمته أنشطَ، ومحبته أبداً في قلوبهم تنمي وتتجدد.

والرابع: أن يُؤَمِّنَهم إسراعَهُ إلى قَبُولِ كثيرٍ من ثِقْلِ الأصحاب. وأقلُّ ما يوجد في الناس الكافي الأمين، فإذا اجتمعا فهو الجوهر الثمين:

(١) فأما كاتب الرسائل فمن يوثق بكتمانه، بليغ في بيانه؛ فإن العبارة الحسنة تؤثر آثاراً عجيبة في القلوب، ويكون مُتَفَنِّناً في العلوم، وأن يطالَبَ فيوجدَ عنده علمُ كلٍّ ما ورد إليه وصدر عنه، في أوقاته.

(٢) وأما الحاجب فطلق الوجه مقبول الشمائل محبَّبٌ، ليوصلَ من يصلُ بإكرام، ويصرفَ من لا يؤذَنُ له برفق ولطفِ كلام. ويجب أن يعرفَ طبقاتِ الناس كلَّها، لينزلهم منازلهم، ويُطالب بإنهاء كلٍّ من يحضر في وقته.

(٣) وأما جابي الأموال فَحَسَنُ المعاملةِ للرعية، منصفٌ منتصف، مع طَلَق نَفْسٍ، وطبيعة في التمشية والرفق، وأن يعتبر في كل وقت بمسألته عن دخله وخرجه.

(٤) وأما قائد الجيش فيكون شجاعاً فارساً عارفاً بآلات الجندية، ذا حظٍّ من الرأي، ويُطالبُ بمعرفةِ أحوالِ الجند المضمومين إليه، ليعرفَ الحاضرَ من الغائب، ويلزمهم الباب، في أكثر الأوقات، بالعُدَدِ التامة؛ ليُرْهِبَ بذلك رسل الملوك، وجواسيسَ الأعداء.

(٥) وصاحب الشرطة مهيب المنظر عبوس، جليل في العيون، غير ذي دعابة معروفة، ويؤخَذُ بالاشتداد على أهل الريب، ويتتبعهم في مكامنهم، صاحب ثقة معروف بالصدق، ناصح أمين، معتدل الطبائع، قليل

العُلَقِ في المعاملات، ولا يقيل عثرةَ من كَذَب بنهيه، فإن التدبير كله على قوله.

(٦) والحاكم يجب أن يكون عالماً عاقلاً مأمون الباطن غنيَّ النفس.

(٧) والمحتسب أمين ثقة حميد السيرة عارفٌ بوجوه المكاسب والغشوش ومصالح الرعية.

ومظالم الناس صنفان: صنفٌ ظاهرٌ كالفسق المجاهر به ونحوه، وصاحبُ الشرطة يتولاه. وصنفٌ مكتومٌ، والمحتسب يتولاه. وربما كانت مظالم هذا النوع أعظمَ ضرراً من النوع الآخر لأنها خافيةٌ لا يُهْتَدَى إليها.

(٨) والمختار المتوجه في الرسائل حسن الرواء، مقبول ناصع اللسان حافظ لما يقوله ولما يُقالُ له، يؤمن في التحريفِ والتمويه.

باب
سياسة العامة

٢٢ ـ العامّة هي الموضوع الذي بكثرته يتسع الملك، وكلما كثروا كان الملك أوسع. وإصلاحُ العامّةِ عسيرٌ لكثرتهم، وقلةِ التمكن من مداواة الفساد العارض فيهم. فإنَّ الملك، عند اضطرابهم، إنْ رامَ شفاءَ غيظه منهم لم يتمَّ له ذلك، إلا بخرابِ بعض العمارة، وبلوغ ما زعزع من أركان السياسة. فليجتهد في حفظ نظامهم، وأن لا يحوجوا إلى بلوغ هذه الغاية فيهم.

٢٣ ـ ويستدل على حزم الملك بحسن سياسة الرعية، وجمع كلمتهم على طاعته، للتباين الموجود في أهوائهم. وإنَّ الشّدة والعنف لا تصلحهم، واللين والمساهلة لا تجوز في معاملتهم، فمنهم من تفسده الكرامة، ومنهم من تفسده الإهانة.

٢٤ ـ وأول ما يجب في سياستهم : معرفة طبقاتهم ، وتمييز سرواتهم ، فيطالبهم بالخدمة له ، والسعي إلى بابِه ، إلاَّ مَن ظهر عُذْرُهُ وبانَ عجْزُه . ولا يجوز للزهّاد والعلماء الانقطاع عنه ، إلا مَنْ وقعتْ اليمينُ الخالصةُ بانقطاعه إلى الله تعالى بالكليّة واعتزال الكافة . ويترك ما تختلط به الرعيّة ، كأبي عليّ ابن أبي الهيش على شأنهم ، والتبرك بدعائهم والحذر من الإثم فيهم .

وأما من دونهم ، من المتشبهة بهم ، فليوسعوا عدلاً واستخداماً ، ولا يكونوا من التصوّن عن مجالس الملوك ، والسعي إلى أبوابهم ، فإن في ذلك فساداً ، قد شَرَحَهُ «أرْدَشير» في «عَهْدِهِ» ، يغنينا عن ذكره .

وهؤلاء الذين يطالبهم الملك بقصد بابه ، فلهم عليه حقٌّ يقتضي تعرف أخبارهم ، وصيانة جاههم ، وترتيبهم في مراتبهم ، واختصاص كل واحد منهم من ذلك ، بما يقتضيه طبعه في الخير والشر والنفع به والضر .

ثم يبالغُ في إكرامِ الأخيارِ من الطبقات التي دون ذلك وقمعِ الأشرار ، وقصدِ مَنْ يتحقق بطاعته بمجازاة تزيد في بصيرته ، والانحاء على من ينحرف عن موالاته بما ينكّله وينكّل غيره عن مثل طريقته ، ثم إفاضة العدل العام الذي ينال كلٌّ منهم نصيبَه الموفورَ منه . ثم تسهيل الإذن بقلع الظلم من أصوله ، وغرس محبّةِ الوالي في قلوب الرعيّة . ثم حفظ أطرافهم وأمان سبيلهم ، لتتوفر معايشهم ، وتدرَّ متاجرهم ؛ واستعمال العقوبة الناهكة بأهل الدّعارة واللصوص من القتل المُبير والحبس الطويل ، فهم كالشوك بين الزرع ، لا ينمي ولا يصلح إلا بتنقيته منه . ثم التعطف على الضعفاء وترفيههم عن الكلف السلطانية ، من تسخير لهم أو استعانةٍ بهم .

٢٥ ـ وليعلم أن كثيراً من الفتن تهيج بشكاية الضعفاء ، وحقد الأغنياء . ويجب أن يتناولَ ما بَعُدَ منهم من السياسة والعدلِ بمثل ما يتناولُ به القريبَ أو

أكثر، وليس بسائس ٍ من خصَّ بحزمه بعضَ ملكه. وَمَثَلُ العارضِ البعيد، إذا لم يستدركْ عاجلاً، كمثلِ العضوِ يسقمُ من البدن، فإن تلوفي وإلا سرى فسادُه في الجسد.

٢٦ ـ ولا يكوننّ الملك لشيءٍ أنكر منه لِرُشَا العمال والأصحاب، فإنها رأسُ الجورِ والفساد؛ وصلاحُ الأطرافِ البعيدة بشيئين: رفعُ الحجّاب للمتظلمين، وبعثه في كلِّ وقتٍ الأمناءَ الثقات المتعرفين.

٢٧ ـ ومما يحتاج إليه ـ وقد مَرّ نبذ منه ـ: تعهدُ ذوي الأخطار والعلماء وأهلِ الأبواب بالتقريب، واختصاص الواحد منهم بعد الواحدِ بالتأنيس والإكرام والمؤاكلة والمنادمة. ولا يجعل أنسه كلَّه مقصوراً على خاصته، وليكن ما يفعله من أمر هؤلاء الأماثل بَدَداً غير محصور، والغرضُ فيه الإيناس وإزالةُ النفور.

٢٨ ـ ثم إحسان مجاورة جيرانه في الممالك التي تلي مملكته، فحالُه معهم كحال الواحد من السُّوقة مع جيرانه، لما أُسستْ عليه الدنيا من الحاجة إلى التعاضد. وأن يُبَالغَ في برِّ الواردين عليه من رسلهم، وأن يتصنَّع لهم بتفخيم مجلسه، وإظهار جماله وزينته، ومظاهَرَةِ بِرِّه لهم وتكرمته. والله أَن يُطيل حبسَهم عنده، ففي ذلك من الفساد ما يطولُ شرحُه، والمدةَ التي يقيمونها، فليكونوا محروسين ملحوظين من مخالطةِ أحدٍ من الخاصّة والعامة إلا من عرفه الملك.

٢٩ ـ ثم يتفقد مدينَته بل مدنه كلَّها بضبط طرقها، ومعرفة من يدخلها ويخرج منها، والوقوف على الكتب المختلفة إلى أهلها من التجار وغيرهم؛ وليضبط مدينَته ضبطَ الرجل من الرعيّة داره، ولا يخرج عنها أحدٌ إلا بجواز، ولا يدخلها إلا بإذن.

٣٠ - ثم يوكل فكرَه بالأخبار، والبحثِ عن الأسرار فيما قرب منه وبعد عنه، وجاوره من وليٍّ وعدو، ومبلغ ما عندهم من عُدَّة، وما يتجدد لهم من عزيمة. وهذا أمر يجب أن يسمح به بكلِّ نفيس، ولا يضنَّ عنه بمالٍ ولو كثر، فربما دهمه من مجاوريه، على غفلة، ما يودُّ لو سبق به علمه ولو أنفق الأموال الجزيلة عليه، وبالله التوفيق.

ختام
هذا التعليق

٣١ - وقد رأيْنا أنْ نختم هذا التعليقَ بكلماتٍ لِـ «أبي بكر الصديق» - رضوان الله عليه - مما وَصَّى به «يزيدَ بنَ أبي سُفيانَ» لمَّا أنفذه على العساكر إلى الشَّامِ، فإنَّها من البلاغة البديعة والوصايا العجيبة، وهي قوله:

«ابدأْ جُنْدَك بالخير، وعِدْهم ما بَعْدَه، وإذا وعظت فأَوْجِزْ، فإنَّ الكلام إذا كَثُرَ نُسِيَ الأولُ بالآخر. وَأَصْلِحْ نفسَك يَصْلُحْ لك الناس، فإنَّ الأميرَ إنَّما يُتَقَرَّبُ إليه بمثلِ فِعْله، ولا تغفل عن الصلاة إذا دخل وقتها. وليؤذن المؤذنُ في عسكرك، ثم ابرزْ فَصَلِّ بمن أحبَّ الصلاة خلفَك. وإذا قدمتْ عليك رُسُلُ العدوّ فأكرِمْ منزلهم وأقللْ مقامهم، ليخرجوا مِن عسكرك وهُمْ جاهلون به غيرُ عارفين بِخَلَلٍ إنْ كانَ فيه؛ وأنزلهم في جمهورٍ كثيرٍ من عسكرك، وامنع كل واحدٍ منْ محادثتهم، وكن أنت المُتَوَلِّيَ لكلامهم، ولا تجعل سرَّك مثلَ علانيتك فيختلطَ أمرك. وإذا استشرت فحققْ الحديثَ ولا تكتمْ بعضَه ليتحققَ الرأي. فإذا علمت للعدو عورةً فاكتمها حتى تأتيها، واسهر بالليل في مجلس تتحدثُ فيه مع أصحابك، فإن ذلك يأتيك بالأخبار، وبَدِّد حَرَسك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علمٍ منهم بك، فمن وجدتَهُ قد غفل عن مَحْرَسِهِ

فعاقِبْهُ. واجعل حراسَةَ الليل بينهم نوباً، والنَّوْبَةَ الأولى أطولَ فإنها أيسرُ لاتصال النهار بها. ولا تَجافَ من عقوبتهم، فَيضْغَن الناسُ بأن يروك قد عممتَ بالحدود ثم خصصتَ بالعفو بعض الجنود. ولا تلجنَّ في العقوبة فإن أدناها وجيع، ولا تسرع إليها وأنت تكتفي بغيرها. ولا تَغْفُلْ عن عسكرك فتفسده المتاركة، ولا تجسَّسْهُ فتفضحه المناقشة. ولا تجالس العيابين وجالسْ أهلَ الوفاءِ والصدق، واصدق اللقاء إذا لاقيت؛ ولا تَجْبُنْ فَيَجْبُنَ الناسُ، ولا تُقِمْ بالمسلمين في موضع هَلَكَةٍ، ولا تغرّر بهم لرجاءِ فرصة. ولا تعجلوا إلى اللقاء إن تأخَّرَ عنكم، ولا تتأخروا عنه إذا حلَّ بكم، وتعاهدوا ضعيفكم وذا الخَلَّةِ».

- ١٧ -

ومن رسالة له[١]

فرعوا جميماً قد تأنقت روضته، ورادوا مسرحاً مسحوا عن أعطاف نباته قَطْرَ نداه، ونثروا من لباته عِقْدَ طله.

- ١٨ -

ومن كلامه[٢]

ولقد سمعتُ نبأ من هذا الحادث الرائع، وَذَرْواً من هذا الخبر المكروهِ الطلائع، فكنتُ كالظبي أفزعه القنّاص، وكالهاربِ لاحتْ له الأشخاص، فدافعتُ بتصديقه، وتصاممتُ عن تحقيقه، فلما صرَّح مخضُ الاستخبار عن مَحْض الحِذار، فقدتُ الحسَّ فلا أدَّعي ألماً، وذقتُ سكونَ الموتِ فما أشتكي سَقَماً، وغرقتُ في أمواج الوساوس، وضعتُ بين أجبال الهواجس، فلقد كنتُ يومئذ ـ وكلَّ يومٍ يومئذ ـ عجباً لمعتبر ومثلاً لمفتكر.

---

(١) الريحان والريعان ١: ٤٨.
(٢) الأفضليات: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

- ١٩ -

ولهُ[١]

ووصلت الرقعةُ فاستجفيتُ النسيمَ العذبَ بالإضافة إلى لطافتها، واستثقلتُ محلَّ عقودِ اللؤلؤِ بالقياسِ إلى خفّةِ موقعها.

- ٢٠ -

وكتب هذه الأحرف[٢]

وقد أظّل البلادَ ثلجٌ ذكرني قول الصنوبري:

وردُ الربيعِ مورَّدٌ والوردُ في كانونَ أبيضْ

إلا أنه انتقل إلى ضدّ طباعه معي واستأنس إلى عكس خلقه، فإنه مع برده أحدثَ لي شوقاً إلى سيدنا ألهب جوانحي، وصبابةً نحوه أضْرَمتْ جوارحي، حتى عاد بياضه سواداً في عينيَّ لتذكره، وسقياه ظمأً برَّحَ قلبي بتصوره، على أن قلبي مزحومٌ من جهته مما يزدحم فيه من كآبةِ جفائه، وصبابةِ بعده ونائِه.

- ٢١ -

وله من رسالة[٣]

وغرقتُ في هواجسِ الفكر أو وسواسِ الذكر، حتى نسيتكم من شدة المذّكر، ولقيتكم من حدة التصور حتى عدتُ كأني أجدُ في فمي عبقاً من تقبيل ذلك الوجه الناضر، وفي عيني لمعاً من سناء ذلك الجمال الباهر. والله تعالى أسأل أن يُسْقِطَ بيننا في تشاكي ألم الفراق إسنادَ القلم، بمشافهةِ الفم للفم.

---

(١) مطالع البدور ٢: ١٢٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

- ٢٢ -[1]

وكتب إلى بعض الرؤساء: ثقتي بكرمك تمنع من اقتضائك، وعلمي بأشغالك يبعث على إذكارك.

- ٢٣ -[1]

وكان يقول: لا تعتذر إلى من لا يحب أن لا يجد لك عذراً، ولا تستعن إلا بمن يحب أن تظفر حاجتك.

- ٢٤ -[1]

ومر بمكتب والمعلم يضرب صبياً ضرباً مبرحاً، فالتفت إلى من معه وقال: إن الله تعالى أعان على عرامة الصبيان برقاعة المعلمين.

- ٢٥ -[1]

ومن كلامه: العمر علق نفيس لا ينفقه العاقل إلا في ما هو أنفس منه.

- ٢٦ -

قال الحسن بن أسد أبو نصر الفارقي[2]: مرَّ بي الوزير المغربي فوقف عليّ وقال: نحن بالأشواق إلى لقائك، لما ينتهي إلينا من تلقائك، فلو زرتنا لأنسنا بك، فقلت له: قد كففتُ ذيلَ مطامعي ببيت قلتُهُ، فقال: وما هو؟ فأنشدته:

إذا شئتَ أن تحيا عزيزاً فلا تكنْ ... على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

قال: فصفق المغربي وقال: أيها الشيخ هذا بيت تبرٍ لا بيت شعر.

(١) تتمة اليتيمة ١: ٢٥.
(٢) بغية الطلب ٤: ١٦٧.

قلت [ابن العديم]: وجدت هذا البيت في بعض الكتب منسوباً إلى شاعر قديم[1].

---

(١) فيما رواه الحميدي (جذوة المقتبس: ١١٨) عن ابن حزم أنه قال، أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي:

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

ووالد ابن حزم توفي قريباً من أربعمائة، وحوار الحسن بن أسد الفارقي والوزير المغربي تمّ في ميافارقين وذلك بعد سنة ٤١٥؛ فمن المستبعد أن يكون هذا البيت للفارقي، بل هو أقدم عصراً منه، ووصل الأندلس قبل الأربعمائة.

نصوص من أدب الخواص

- ١ -

أنشد[١] يوماً سيف الدولة أبو الحسن بن حمدان في مجلسه القافية التي أولها: «إن الخليطَ أجدّ البينَ فانفرقا» يعني من شعر زهير بن أبـي سلمـى، فأبدى استحساناً لها، فقال النامي المصيصي أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي: أراك كلفاً بها أفتحبُّ أن أمدحك بخيرٍ منها؟ قال: نعم أشدَّ الحبِّ، فلما كان بعدَ أيامٍ لقيه راكباً على نهر حلب المسمّى قويق، قال: فترجَّلَ ووقف عليه سيف الدولة، وأخذ ينشدُ قصيدة في غاية الحسن أولها:

ما أنت مني ولا الطيفُ الذي طرقا   رُدّا الكرى واستردّا منّيَ الأرقا

فأراد سيف الدولة كيادَهُ والعبثَ به، فأعرض عنه وأظهر استنقاصاً لشعره، فقطع الانشادَ في وسطِ القصيدة وركب ومضى، وسيفُ الدولة يراه، إلى شاطىء النهر، فخرّقها وغسَلها، فاحتمله سيفُ الدولة ولم ينكرْ ما كان منه، ودرستْ آثارُ هذه القصيدة فليس توجد في ديوانه.

(١) بغية الطلب ٢: ٣٦.

- ٢ -

امرؤ القيس[١] بن السمط بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية بن الحارث، وهو الولادة، سمي بذلك لكثرة ولده، ابن معاوية بن ثور بن مرقع الكندي، وفيه يقول امرؤ القيس بن حجر:

ألا هل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

وذلك أنه كان قد صحبه حين خرج من عند المعلى يريد قيصر فلم يزل معه إلى أن فارقه بأرض الروم، فلذلك قال: «بيقر» أي سافر، وقيل أتى أرض العراق، وتملك: والدة السمط؛ وقال آخرون من أهل النسب ثقات: الذي عناه امرؤ القيس هو امرؤ القيس بن المنذر بن امرىء القيس بن السمط والله أعلم [ذكر هذا كله أبو القاسم المغربي في كتاب أدب الخواص].

- ٣ -

أول[٢] ما سمع حجر من شعر ابنه امرىء القيس قوله:

اسقيا حجراً على علاته من كميت لونها لون العلق

وإني لأستقبح أن يقول قائل لأبيه: «على علاته» وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً، فلما سمعه أمر الساقي بلطم وجهه وإخراجه ونهاه عن قول الشعر، ثم سمعه يوماً وهو يشرب من فضلة أبيه وهو يقول:

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

يعني هر بنت سلامة بن عبدالله بن عليم من بني كلب، وابنها الحارث، وهو الملقب بالخرساء، وقيل إن هراً جارية كانت لأبيه، والأول أصح،

(١) بغية الطلب ٣: ٣١١.
(٢) بغية الطلب ٣: ٢٩٣، ٣٠٩، ٣١٠.

فوثب إليه أبوه فضربه، وأمر مولىً له أن يقتله فلم يقتله، وأظهر قتله، ثم ندم على ذلك . . .

وقيل إنه لما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنه وثعلبة بن مالك أحد بني عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن كندة في الملك بعده، فأجمعا للحرب، فأكمن امرؤ القيس أصحابه وبرز إلى ثعلبة وحده وطعن فيهم فحملوا عليه فولى هارباً وهم في طلبه، فخرج عليهم أصحاب امرىء القيس فكسروهم وأسر ثعلبة وقتله صبراً وقال:

لا وأبيك ابنة العامريّ لا يدعي القوم أني أفرّ[1] . . .

[و] بعض الناس يظن أن وفادة امرىء القيس إلى الروم كانت للاستجاشة على بني أسد وليس كذلك، وإنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمي لما عاد إلى الملك أيام أنوشروان أنفذ في طلب بني آكل المرار جيشاً من بكر وتغلب، فأسر منهم ستة عشر رجلاً وقيل اثني عشر فضرب أعناقهم بالحيرة في دور بني مرينا، وهي تسمى لذلك تل الأملاك، ولذلك قال عمرو ابن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مصفدينا

ونجا امرؤ القيس بالهرب ولجأ إلى هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان فاستجاره فلم يجره، فأتى سعد الضباب الإيادي وكان سيد قومه في وقته فأجاره زمناً فمدحه وهجا هانىء وقيل إن أم سعد كانت تحت حجر فطلقها وهي حامل فتزوجها الضباب فولدت عنده سعداً فنسب إليه. ثم تنقل في الأحياء في طيء [وذكر الوزير كثيراً ممن نزل عليه ثم

(١) علّق ابن العديم عند هذا الموضع بما موجزه أن هذا البيت قاله بعد مقتل أبيه، مع أنه من القصيدة التي جاء منها «وهر تصيد قلوب الرجال» وقد أفاد أنه قاله وأبوه حيّ، وهذا تناقض.

قال]: إنه نزل على المعلى بن تيم بن ثعلبة بن جدعان بن مقصور واسمه لوذان بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء، فلما تغيب المعلى عن بيته اغتنمها المنذر وقصد بيته وفتشه فأدخل ابنه امرأ القيس إلى نسائه فلم يجده عندهم، وعاد فمدحهم امرؤ القيس:

كأني إذ نزلت على المعلى ... نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا الملك الشآمي
أصد نشاص ذي القرنين حتى ... تولى عارض الملك الهمام
أقر حشا امرىء القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

فسموا مصابيح الظلام لهذا القول. ثم خرج امرؤ القيس من فوره يريد قيصر.

[وذكر أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ في تقدير ما بين رسول الله ﷺ وبين امرىء القيس أنه نحو مائتي سنة أو مائة وخمسين سنة وأورده في الحيوان] وقال الوزير ابن المغربي: والصحيح الذي يوجبه التقريب في التقدير أن بين مولد النبي ﷺ وبين موت امرىء القيس خمساً وخمسين سنة، وبين مولد النبي ﷺ وبين هجرته ثلاثاً وخمسين سنة.

وقيل إن امرأ القيس لما حصل عند الملك مستغيثاً به على من قتل أباه من العرب زوجه الملك بابنته وأعطاه الرجال وخرج من عند الملك، فتخلفه الطماح قبيحاً وأوغر عليه قلب الملك وقلب ابنته فأعطاه خلعة مسمومة وقال: الحق امرأ القيس وادفع إليه هذه الخلعة وقل له: إن الملك أكرمك بهذه الخلعة من جسده، ففعل، فأعطاه الحلة فلبسها، وعلم أنها مسمومة فقال:

وقد طمح الطماح بي من بلاده ... فلبسني من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد نعمة ... فيا لك من نعمى تبدلن أبؤسا

[و] إن امرأ القيس بن حمام الكلبي تبع امرأ القيس بن حجر حين قصد ملك الروم حين خرج من عند المعلّى يريد قيصر ومرًّ بكلب، فتبعه منهم امرؤ القيس بن حمام الشاعر، وكان من المعمرين وعاش مائتي سنة فيما قالوا.

نصوص من كتابه
المأثور في ملح الخدور

- ١ -

حدثت[1] عن أبي علي أحمد بن نصر المعروف بابن البازيار الأديب الكاتب الظريف، وكان قد صحب سيف الدولة رحمه الله دهراً فذكر الحكاية [حكاية أعرابي قدم على عير وشكا إليه أنه أفقر عشيرته فقال له عليك بالاستغفار].

- ٢ -

[بعد أن ذكر الحسين بن سعيد بن حمدان قال][2]: وأخوه أبو الهيجاء حرب ابن سعيد كان بالعراق وتلك الديار، وكان جليلاً ممدحاً، وفيه يقول سري بن أحمد بن السري الكندي:

ولو لم أكن جار الأمير لكان لي ... أديم بظفر النائبات ممزق
بجود أبي الهيجاء ألبست نعمة ... مجددة تضفو علي وتشرق

وفيها يقول:

إذا ما اعتنقنا خلت أن قلوبنا ... تناجي بأفعال النوى وهي تخفق

(١) بغية الطلب ٢: ٨٨.
(٢) بغية الطلب ٤: ٩٥.

وله فيه :

أنت سعد الكفاة يا ابن سعيد وكفاهم بأن تراءوك سعدا
أنا حرّ إذا انتسبت ولكن جعلتني لك الصنائع عبدا

ـ ٣ ـ

ومن[1] ولد أبي الهيجاء أبو محمد الحسن وأبو الحسن علي : ناصر الدولة وسيفها رحمهما الله ، المتجاذبان ملاءة المجد ، والجاريان على ساقة الكرم والفضل ، وفي مدحهما يقول أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي النامي المصيصي رحمه الله :

بجبلي وايل ركني عزها وعارضي أفق نداها المنهمل
توازن القسمان في المجد اعتلاً تساوي العينين في اللحظ اتصل
يا حسن ابن المحسنين دعوة للمجد تدعاها وأخرى للوهل
ويا علي كم دعاء بك من ثغر مخوف ورجاء مبتهل
هذا مقامي بين بحرين فلا ثمداً منحت ظمأي ولا وشل

ـ ٤ ـ

قال الوزير[2] : وحدثني أبي قال : سألت الحسين بن بكر الكلابي النسابة قال : وكان أحفظ خلق الله لأنساب العرب وأخبارها ومثالبها ومناقبها عن السبب في استرذال العرب غنياً وباهلة فقال : والله إن فيهما لفضلاً غزيراً وفخراً كثيراً ، غير أنه غمرهما فضل أخويهما فزارة وذبيان من غطفان بن سعد ابن قيس عيلان ، وكذلك أصغر من في ولد حمدان أكبر من كبراء غيرهم .

---

(١) بغية الطلب ٤ : ٢٦٠ .
(٢) بغية الطلب ٥ : ٢٧٤ .

سعيد بن حمدان[1] بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن غُطَيف بن مَحْرَبة بن حارثة بن مالك بن عبيد ابن[2] بن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، واسم تغلب دثار؛ وبعض حساد هؤلاء القوم يرميهم بالدعوة ويقول إنهم موالي اسحاق بن أيوب التغلبي، وذلك باطل، وأصله أن كثيراً منهم أسلموا على يد اسحاق هذا، فتطرق القول عليهم لأجل ذلك، وقد قال الشاعر:

إن العرانين تلقاها محسدة ولن ترى للئام الناس حسادا...

كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً بغداد وخاصاً بحضرة المقتدر، قالوا: فكانت أكثر مواقفه على بابه [وكان أمر الرجالة قد عظم] وكانوا في بعض الأوقات ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت والحجرية والساجية، وكان أبو العلاء في دار المقتدر على غير أهبة، فأمره بالخروج إليهم ودفع إليه جوشن المعتضد بالله ودرع وصيف الخادم، فظاهر بينهما وخرج مع من حضر من غلمانه، فضرب فيهم بالسيف وغشوه من كل باب وأثخنوه بالجراح فثبت حتى هزمهم، فقال فيه هوبر الكناني من ولد هوبر صاحب تغلب في حرب قيس وتغلب قصيدة يمدحه فيها، منها:

يبرزون الوجوه تحت ظلال الموتِ والموت منهم يستظل
كرماء إذا الظبا واجهتهم منعتهم أحسابهم أن يزلّوا...

(١) بغية الطلب ٥: ٢٧٤، ٨: ٢٩٣، ٢٩٤.
(٢) قال ابن العديم (٥: ٢٧٤) ونقلت نسبه (أي حمدان) هكذا من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، وبيض ما بين عبيد وبين عدي وضبب عليه، إما لأنه لم يعرف اسم من بينهما، وإما لأنه شك في ذلك.

وكان أبو العلاء شاعراً يعد من شعراء بني حمدان، وكان أوقع ببني عقيل بموضع يقال له شرج من أرض العالية، وراء نجد، فظفر بهم بعد قتال شديد وقال:

نبئتها تسأل عن موقفي ... بأرض شرج والقنا شُرَّعُ
وعن عُقَيل إذ صبحناهُمُ ... وقد تلاقى الحُسَّر والدرّع
وقد أتانا منهم فيلق ... حام حماه ما له مدفع
شددت فيهم شدَّ ذي صولة ... قد جربته الحرب لا يخدع
إذ فلقت هام أسود الوغى ... وَقُطِّعتِ الأسوقُ والأذرع

[ووجدت في هذه الأبيات زيادة قرأتها بخط الوزير أبي غالب عبدالواحد بن مسعود بن الحصين وهي بعد البيت الثالث]:

حتى إذا ما كشرت نابها ... وعيف كأس الموت لا يكرع
تجني نفوساً بين سمر القنا ... فهي ككر الطرف أو أسرع

وبعد بقية الأبيات ختمها بقوله:

لا تزجريني عن طلاب العلا ... ما إن ينال العزّ من يضرع
أنا سعيد وأبي أحمد ... بالسيف ضرّي وبه أنفع

أراد بقوله: وأبي أحمد «حمدان» لأن اشتقاقهما واحد.

وغزا أبو العلاء سنة تسع عشرة وثلاثمائة فأوغل في بلاد الروم وقتل وسبى وغنم، وكان معه خمسة آلاف فارس من العرب، كل ألف بلون من الرايات والعذب على أرماحهم، وهذا منظر عجب إذا تصورته؛ وأبو العلاء فيما قالوا ضمن عن بني البريدي ستمائة ألف دينار ثم أمرهم بالهرب، وداری السلطان عنهم حتى أصلح أمرهم وأقرهم على أعمالهم فما دخلوا مدينة

السلام إلا مالكيها، وأهدوا إلى أبي العلاء هدية بألف ألف درهم فلم يقبل منها إلا عمامة خز.

- ٦ -

خالد بن الحارث بن أبي خالد قيس بن خلدة بن مخلد، وقد قيل مخلد ابن عامر بن رويبل بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد واسمه دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان الأنصاري [هكذا نقلت نسبه من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، قال: وفي صلة نسب قحطان كلام ليس هذا موضعه][1].

قرأت بخط الوزير أبي القاسم المغربي، قال أبو محمد عبدالله بن محمد بن عمارة النسابة المعروف بابن القداح مولى بني ظفر من الأوس في كتابه الذي صنفه لنسب الأوس والخزرج: كان أبوخالد الحسن بن قيس هذا بدرياً عقبياً وابناه خالد ومخلد صحبا النبي ﷺ وحضرا صفين فقتلا يومئذ، وأمهما أميمة امرأة من بني زريق من قومهما فقالت:

أعينـيَّ جودا بدمـعٍ سرب على فتيةٍ من خيارِ العربْ
ومـا ضرَّهـم غير حين النفوس أيّ أميريْ قريشٍ غلب

(١) بغية الطلب ٦:٣.

تذييل

ـ أ ـ

بعد أن أصبح هذا الكتاب على وشك الصدور، وبعد أن استفرغت جهدي في الاستقصاء بحثاً عن كل ما يتصل بالوزير المغربي، حصلت ـ بفضل شيخي وأستاذي الشيخ حمد الجاسر حفظه الله ـ على مختصر لمعجم الأدباء لياقوت بعنوان: «بغية الألباء من معجم الأدباء» اختاره لنفسه أحمد بن علي بن عبد السلام التكريتي فوجدت ترجمة الوزير المغربي فيه تحتوي على معلومات لم تتيسر في الأصل نفسه ولا في المصادر الأخرى التي اعتمدتها في كتابة هذه الدراسة، ولهذا وجدت من المناسب أن استدرك هنا ما يضيف جديداً إلى ما تقدم:

ـ ١ ـ

أنفذ الوزير إلى أبي العلاء المعري قصيدة فعلق عليها أبو العلاء بقوله: «والله لولا أن يقال غاليت، لكتبت تحت كل بيت، فليعبدوا رب هذا البيت».

ـ ٢ ـ

الرجل الذي توفي بجدة وصادر أبو الفتوح أمواله يدعى: المطوعي وهو

من الفرس، وكان عنده أموال الهند والصين (أي كان تاجراً يتعامل مع الشرق الأقصى) وخلف مالاً عظيماً وأوصى لأبي الفتوح بمائة ألف دينار ليصون بها تركته والودائع التي عنده.

- ٣ -

كان للوزير المغربي مملوك، وكان شديد المحبة له، وكان رومياً، وكان أحد أولاد بطارقة الروم، فبلغ خبره أباه، فسأل ذلك البطريقُ ملكَ الروم أن يرسلَ من يستخلصُ ولده ففعل، وأنفذ رسولاً إلى ابن مروان صاحب ديار بكر، فلما وصل الرسول استدعاه الوزير المغربي وسقاه الخمر عنده تكرمةً له، فلما عملت الخمر في الوزير قال ذلك الرسول: أريد من إنعام الوزير يبيعني هذا الغلام، فقال: هو لك هبةً، فأخذه من ساعته، ونفذه على خيلٍ قد أُعِدَّت في كلِّ فرسخ فرسٌ، فلما أصبح الوزير استدعى الغلام، فقيل له: إنك قد وهبته من رسول ملك الروم، فاستدعاه من ساعته وطلب منه الغلام فقال: أيها الوزير، ذلك قد قارب بلادَ أبيه، بلى، مهما أردت من الثمن أعطيتك، فقال الوزير: ما كنت لأُذْهِبَ محبوبي ومروءتي، قد وهبتُهُ منكَ خالصاً، ثم قال:

يا من غدا جبلُ الريّان يحجبُهُ ... ليس التصبرُ عن قلبي بمحجوب
أفلتُّ قلبيَ من صدري وأطلبُهُ ... من بعد ما صار في الشمِّ الشناخيب
فاشمتْ ولا تَرْثِ لي مما أكابده ... يدي لعمرك كانت أصلَ تعذيبي
علمتني الحزمَ لكن بعد مُؤْلمةٍ ... إن المصائبَ أثمانُ التجاريب

[قلت: انظر المقطوعة رقم: ١٤].

- ٤ -

حدث العطوي الشاعر قال: دخلت يوماً على الوزير المغربي بالموصل

وهو جالسٌ على ضفة نهر يخرقُ عَرْصَةَ داره، وبين يديه جاريةٌ كأنها فلقةُ قمرٍ تسقيه وتنادمه وهو يقول:

نديمتـــي جاريةٌ ساقيةْ ونزهتـــي ساقيةٌ جاريةْ(١)

فحكيتُ هذه الحكايةَ لأبي العلاء المعري وأنشدته البيتَ فقال: هذا هو الطبع لا ما ينعقه ذلك الرجل الذي يقول:

أبـــى ريقـــه أباريقـــه، أو كارهـــا أو كارها

يعني البستي.

- ٥ -

حَدَّث الصاحب الوزير جمال الدين الأكرم، وناهيك به معرفةً لأخبار الأيام، خصوصاً ما يتعلق بحوادث مصر قال: لما قدم أبو الحسن علي بن الحسين وولده أبو القاسم إلى مصر وبها الحاكم تلقاهما وأنزلهما وأكرمهما، وعرف لهما حقَّ الكفاية والبيتِ والأدب، وعيَّن لأبي الحسن علي بن الحسين خدمة. واتفق أن دخل أبو القاسم يوماً إلى الحاكم وكان أبو القاسم ذا هيئة ورواءٍ وجسمٍ وشارة مستحسنة، فأعجبَ الحاكمَ ما رآه من فخامة منظره، فخاطبه فوجده لَسِناً حسنَ المحاورةِ أديبَ الألفاظ، فخفَّ على قلبه ونَفَقَ عليه وأمره بملازمة مجلسه، فتكلم أبو القاسم يوماً بشيء استحسنه الحاكم فقال له: يا أبا القاسم احتكم فيما شئتَ حتى أبلِّغكه، فقال: نعم يا مولانا، أحبُّ أن تهبَ لي نفسي ولا تقتلني، فتبسم الحاكم وقال: ما موجبُ هذا الاقتراح؟ فقال: يعلم مولانا أنَّ العصمةَ تفرَّد بها الأنبياء وأنا فبشرٌ أخطىء وأصيب، فأخافُ بادرةَ خطاء يكون فيها حتفي، وقد رأيتُ ذلك في جماعة من أولياء مولانا، والسعيدُ من وُعِظَ بغيره، فقال: لك ذلك، فقال أبو القاسم: أحبُّ أن

(١) انظر المقطوعة رقم: ١١٣.

يكتبَ مولانا خطَّه بذلك، ويعطيني توثقةً من نفسه به، فقد أوجبَ هذا الانبساطَ سوءُ الأَدب في لحظاتِ تحكيم مولانا إياي. فوجد من الحاكم وقفةً في ذلك، فقال له: لا بأس، نحن عبيدٌ والمولى مالك، وأرجو أن لا آتي بما يكره مولانا، وأعيشَ في نعمته على رضاه وما يهواه؛ ولكنْ لي أختٌ لها من قلبي منزلةٌ أخافُ عليها من الريح إذا هبَّتْ، إن رأى أمير المؤمنين أن يكتبَ لها أماناً على نفسها، وموثقاً على بقاء مهجتها وصيانتها، فعل. فقال له لك ذلك على أن تعطيني موثقاً أن لا تفارقَ حضرتي إلا باذني، فقال له: لك ذلك، وكتب كلٌّ واحد منهما بذلك خطَّه وأَيَّدَهُ بيمينٍ حلفها.

وخرج أبو القاسم من مجلسه وتهيأ من وقته للاستتار، فأحضر عجوزاً ممن يوثق بعقلها وديانتها، وأمرها أن تكتري داراً في بعض المحالِّ النائية وتترددَ إليها وتبيتَ فيها تارةً وتنقطع أخرى، ولا تخالط أحداً من الجيران، ورتب ذلك مدةَ سنتين أو ثلاث. فاتفق أنه استدعي يوماً إلى القصر، فدخل والحاكمُ جالسٌ في مستشرف الدار لم يره أبو القاسم، وكان في اجتيازه قد وطىء نواةَ ثمرةٍ، فلما صار بجنب الحاكم جعل ينفضُ نعله عِدَّةَ نُوَبٍ حتى سقطت النواة، ثم التفت فرأى الحاكم، فقبَّل الأرضَ بين يديه، فوجد التغيرَ في وجهه، والانكارُ بادٍ في نطقه، وإن أظهر التجملَ والانبساط، فعلم أبو القاسم أن الحاكم قد ظنَّ أن نَفْضَ نعلِهِ كان استهانةً به واحتقاراً له، وعلم أن الحاكم لا يقبلُ المعذرة، فلما خرج من حضرته مضى إلى الدار التي أعدتها تلك المرأة واستتر فيها. وطلبه الحاكم فلم يوجد، و [استفسر] من أبيه فأنكر أن يكونَ عَرَفَ له خبراً أو وقف منه على أثر، فاعتقل أباه وجميعَ أهله وأوقع بهم، وجاء بأخته المذكورة فعلَّقها وطلب منها أخاها وضربها ضرباً موجعاً، ونادى في البلد بالتماسه فلم يوقف له على خبر، فأخرج أباه وأخاه وجماعةً من أهله إلى المقطم ـ جبل مطلّ على القاهرة ـ وضرب أعناقهم صبراً، ثم

خرج بنفسه حتى وقف عليهم وأمر برفعهم وغسلهم وتكفينهم ودفنهم، ورجع إلى داره بالقصر، وجلس للعزاء بهم، وحضرهم الناس وعليهم ثيابُ الحزن. وهذا من أعجب تلوُّنِ هذا الرجل - يعني الحاكم - فانه كان متناقضَ الأحوال متباينَ الأقوال والأفعال.

واتفق أن حضر بمصر جماعةٌ من شرفاءِ الحجاز على عادةٍ لهم كانت لهم بالحضور بمصر للاستجداء وطلبِ الصلة، فوصلهم الحاكم بما جرت عادتهم، وخرجوا إلى ظاهر القاهرة مبرزين قصداً للعود إلى بلادهم، وبلغ ذلك أبا القاسم فسيَّر من اشترى له مَهْرِيّاً مثلَ جمالهم، ولبس لبسهم، وخرج حتى اختلط بهم وهو متلثّم، وخرج الحاكم لوداعهم، فتقدموا إليه وخدموه واستأذنوه في الرحيل، فقال لهم: امضوا على بركة الله. وكان في من تقدم إليه أبو القاسم، فلما رأى مشيته قال لواحد من جانبه: ما أشبهَ مشيةَ هذا الشريف بمشية ابن المغربي، ورحلوا ورحل معهم.

قال الصاحب: فبلغني أن ابن المغربي فارق الجماعةِ وجلس في جبل المقطم بموضع يقال له الجبل الأحمر، حتى ركب الحاكم على عادةٍ كانت له منفرداً مع غلامين له إلى ذلك الجبل، فلقيه أبو القاسم في جماعة ممن كان يثقُ إليهم، وقد خرجوا إليه مُعِدّين، فلما رآهم الحاكم خاف واستشعر، وعرف أبا القاسم المغربيّ فقال له: يا أبا القاسم، غدرتُ بك، فقال: لا بأس عليك، وإنما أحببتُ أن لا أفارقك حتى أُواقِعكَ على غدرك، ما أعطيتني موثقاً من الله أن لا تسيء إلى تلك الحرمةِ المسكينة؟! فقال: حملني الغضبُ عليك لكونك فارقتني بغيرِ إذن، وقد حلفتَ ألا تفعلَ إلا بأمري وإرادتي، فقال له: أما أنا فما فارقتك حتى استأذنتك، فقال له: ومتى استأذنتني؟ قال: في يوم كذا لما أذنتَ للشرفاء، فأني تقدمتُ حتى سمعتُ خطابك وأنت تقول: امضوا مُصَاحَبين على بركة الله، فدخلتُ في العموم،

فقال له الحاكم: إذا كنتَ قد خرجتَ من هذه بحجّةٍ، فلك عليَّ عهدُ الله أن أطلقَ أختك وألحقها بك، فتركه المغربيّ وتوجه إلى العراق، ورجع الحاكم إلى القاهرة، وجهز خلفه من يردّه فلم يظفر به حتى لحق ببني الجراح وأغراهم بخلع الحاكم...

[قلت: وهذه قصة تنطوي على عجائب وغرائب، ولعل للخيال نصيباً وافياً فيها].

ـ ٦ ـ

يستفاد مما ذكره ياقوت أن ابن المغربي تسلّم الأمان من الحاكم فكان أن أخذ رقعة وكتب فيها:

أأُنْشِبُ كفّي في الرحى ثم أرتجي ... خلاصاً لها إني إذنْ لرقيعُ

ـ ٧ ـ

أنشد أبو القاسم المغربي حال خروجه من مصر:

ونفسكَ فُزْ بها إن خفتَ ضيماً ... وخلِّ الدارَ تندبْ من بكاها
فانك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ... ولستَ بواجدٍ نفساً سواها

[قلت: ولعله تمثل بهما، فلم أجد من نسبهما إليه].

ـ ٨ ـ

قلت: يضاف ذكر بغية الألباء في تخريج القطعة: ١١، ٩٥، ٢١، ٧٤، ١٥، ٧١، ٤٩، وذلك هو ترتيبها بحسب ورودها في المخطوطة.

- ب -

فاتني أن أذكر - من باب السهو - نموذجين آخرين مما يستشهد به من وقفاته اللغوية، والاعتماد على خطه (انظر ص: ١٥ من هذه الدراسة) وهما:

١ - في بيتِ القُلاخِ بن جَناب:

هتَّاكُ أخبيةٍ ولاَّجُ أبوبةٍ

جمعه على أبوبة ليكونَ على وزن أخبية طلباً للازدواج. وقد كان الوزير ابن المغربي يسألُ عن هذه اللفظة على سبيلِ الامتحان فيقول: هل تعرف لفظةً جُمِعَتْ على أفعلة على غيرِ قياسٍ جمعها المشهور طلباً للازدواج؟ - يعني هذه اللفظة وهي أبوبة (التنبيه والايضاح ١: ٤٣).

٢ - حكى الوزير ابن المغربي عن أبي عمر الزاهد أن راحة اسم للدنيا، واستشهد عليه بقول بعض الصوفية:

ولولا جِبَّتي راحَهْ لكان الموتُ لي راحَهْ

(التنبيه والايضاح ١: ٢٣٤).

- جـ -

سقط من الرسالة التاسعة ما أورده المسبحي منها، وهي الرسالة التي كتبها إلى رئيس اليعاقبة حين أسلم، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم: كتبتُ إلى الشيخ الجليل - أطال الله بقاءه - وهذا دعاءُ من حقّقَ الله رجاءَه إذ كان مَنْ سبقتْ له الحسنى، وأدرك من شرف الآخرةِ المنى، فكلُّ يومٍ من أيامه دهرٌ سعيد، وكلُّ وقتٍ من أوقاته أَمَدٌ بعيد، ولأنّ من كان اهتداؤُه تذكرةً للمهتدين فهو شريكٌ في أجورِ أعمالهم وقسيمٌ في

ثواب أفعالهم، وكان عمره قد اتسع لعبادة طالتْ أيامها ولياليها، وكان أَمَلُهُ قد انفسح لطاعةٍ أنجحتْ أسبابُها ودواعيها، فهو لذلك مكتهلٌ في أول فَتَائه، ومذكورٌ بالتعميرِ منذ ابتداءِ زمانه، حتى إذا تهادتْ به خطى المَهَلِ المعلوم، إلى غايةِ الأَجَلِ المحتوم، كان الحيَّ المرزوقَ عند بارئه، المخلَّدَ المحبوَّ بما قَدَّمَ من مساعيه، وكان: حبلُ حياته مبرم، وسلكُ بقائه منظوم لم ينتثر، وأثره جديدٌ لم تُعْفِهِ الأيام، وخيره قريبٌ لم تَنْسَهُ الأفهام، وشخصُهُ ملموحٌ بأعين البصائر، وحديثُهُ مُلْتَقَطٌ بأسماع الضمائر، وعهدُهُ دانٍ وإن بَعُدَ ميقاتُهُ، وزمنُهُ مستقبَلٌ وإن مَضَتْ أوقاته، والصالحاتُ عنه باقيةٌ نوراً في وَجْهِ الزمان، وسروراً في قلبِ الإيمان، وتلك صفاتُ الشيخ الجليل ـ أطال الله بقاءه ـ إذ كان من لزمه حقٌّ رامَ قضاءَه، وتعيَّنَ عليه فرضٌ حاول أداءه، وحدثت له منه ـ أدام الله تأييده ـ أخوّةٌ لطيفةٌ بادر إلى وصالها، ونشأت بينه وبينه رحمٌ سريعةٌ قابلها بِبِلالها، وجمعته وإياه أنسابٌ لا يَجْمُلُ عقوقُها ولا تُضاعُ حقوقها، وأدنته إليه أواصرُ أحكمتْ يدُ الاسلام عقودها، وأكرمتْ ذمَّةُ الايمان عهودها، فأسكن بها التقى روحيهما جسماً، واستودع الهدى قلبيهما صدراً، وصارت كلمتاهما متفقتين وإن بعدت الديار، ودعوتاهما مؤتلفتين وإن اختلف النجار، وسقياهما من ماءٍ واحدٍ وإن تباين المحتدان، ومصدرهما عن نميرٍ واحدٍ وإن تشعَّبَ الموردان، ورتوعهما في رياضِ الملكوت، ورجوعهما إلى موعدِ الجزاء الموقوت. وعلى أني لو وفَّيتُ هذه الأواخي حقَّها، وأعطيتُ هذه الوسائلَ وفقها، لكان السفرُ أقلَّ ما يقتضيه الدين لمشاهدة نعمة الله تعالى على الإسلام وأهله بمكانه، وأدلة الحق على الكرم وذويه ببرهانه، فان التكرمةَ في ذلك لو وُفِّرت عليه لكان لها موضعاً، ولما يزيد عليها مجمعاً، فكيف وهي مقسومةٌ بين أهلِ الملة، وموزعةٌ على أعيان هذه النحلة، إذ كان مكانُهُ ـ أدام الله تأييده ـ من عموم الشرف عليهم، وانتشارِ الفضيلةِ فيهم موضعَ الدليل من إطلاق لسانِ المستدلّ، والبرهانِ من

إعلاء كلمة الخصم المدل. ويعلم الله ما ورد عليَّ وعلى كافّةٍ من حضرني من المسلمين . . . إلخ[1].

(١) تتمة ذلك قد ورد قبلاً، انظر الرسالة رقم: ٩.

فهرست المصادر والمراجع

١ ـ المصادر التي تحتوي ترجمة الوزير المغربي وأخباره:

- مجالس إيليا مطران نصيبين، نشر الأب لويس شيخو، مجلة المشرق (السنة ٢٠) ص ٣٣ ـ ٤٤، ١١٤ ـ ١٢٢، ٢٦٧ ـ ٢٧٢، ٣٦٦ ـ ٣٧٧، ٤٢٥ ـ ٤٣٤.
- كتاب المجالس السبعة التي وقعت بين الوزير وبين مطران إيليا الذي في نصيبين، نسخة مكتبة برلين.
- تاريخ المسبحي (ـ ٤٢٠) الورقة ٢٣٢ ب ـ ٢٣٥/ أ.
- رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء (حوالي ٤٢١) في رسالة الغفران (٥١ ـ ٥٨) تحقيق بنت الشاطىء، القاهرة ١٩٥٠؛ وفي رسائل البلغاء (القاهرة ١٩٤٦) ص: ٢٥٤ ـ ٢٧٩.
- تتمة اليتيمة للثعالبي (ـ ٤٢٩) ١: ٢٤ ـ ٢٥.
- رجال النجاشي (ـ ٤٥٠) ٥٠ ـ ٥٥.
- دمية القصر للباخرزي (ـ ٤٦٧) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، ١: ٩٤ وتحقيق محمد التونجي ١: ١١٥ ـ ١٢٠.
- ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع (ـ ٤٨٨) ٢٣٣ ـ ٢٣٨.
- الاشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي (ـ ٥٤٢) تحقيق عبدالله مخلص، ٤٧.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ـ ٥٤٢) تحقيق إحسان عباس، ٤: ٥٧٥ ـ ٥١٥.
- ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (ـ ٥٥٥) ٦١ ـ ٦٤.

- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (ـ ٥٧١) تهذيب عبدالقادر بدران، ٤: ٣١٢ ـ ٣١٤.
- المنتظم لابن الجوزي (ـ ٥٩٧) ط. حيدر أباد ٨: ٣٢.
- أخبار الدول المنقطعة لجمال الدين بن ظافر (ـ ٦١٣) تحقيق أندريه فريه، المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٧٢، ص: ٤٨ ـ ٥٠.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (ـ ٦٢٦) ط. مصر، ١٠: ٧٩ ـ ٩٠ ومختصره المسمّى بغية الألباء من معجم الأدباء لأحمد بن علي التكريتي.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير (ـ ٦٣٠) ط. صادر، ٩: ٣٢١، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٦٢.
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (ـ ٦٥٤)، أحمد الثالث ٢٩٠٧/ ١٢، الورقة ٤٧ ـ ٤٩.
- إعتاب الكتاب لابن الأبار (ـ ٦٥٨) تحقيق صالح الأشتر، ص: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
- بغية الطلب لابن العديم (ـ ٦٦٠) مصورة عن مخطوطة آيا صوفيا ٥: ١٤ ـ ٣٠، ٢: ٦٤ ٨: ١٢٨ ـ ١٢٩.
- وفيات الأعيان لابن خلكان (ـ ٦٨١) تحقيق إحسان عباس، ٢: ١٧٢ ـ ١٧٧.
- نكت الوزراء للجاجرمي (القرن السابع) نسخة أحمد الثالث ١٩٢٩، الورقة ٥٧/ أ ـ ٥٨/ أ.
- المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا (ـ ٧٣٢) ٢: ١٥٥.
- نهاية الأرب للنويري (ـ ٧٣٣) تحقيق محمد فوزي العنتيل، القاهرة ١٩٨٥، ٢٦: ٢٤٨.
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ـ ٧٤٨) تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي بيروت ١٩٨٣، ١٧: ٣٩٤ ـ ٣٩٦.
- عبر الذهبي (ـ ٧٤٨) ٣: ١٢٨.
- تتمة المختصر لابن الوردي (ـ ٧٤٩) ١: ٥٠٧.
- الدرة المضية لابن أيبك الدواداري (أواسط القرن الثامن) تحقيق صلاح الدين المنجد، ٦: ٣٠٩ ـ ٣١٢.
- الوافي بالوفيات للصفدي (ـ ٧٦٤) تحقيق رمضان عبد التواب، ١٢: ٤٤٠ ـ ٤٤٦.
- مرآة الجنان لليافعي (ـ ٧٦٨) ٣: ٣٢.
- البداية والنهاية لابن كثير (ـ ٧٧٤) ١٢: ٢٣.
- تاريخ ابن خلدون (ـ ٨٠٨) ط. بولاق، ٤: ٤٧٣.
- العقد الثمين للفاسي المكي (ـ ٨٣٢) ٤: ٦٩ ـ ٧٥.

ـ لسان الميزان لابن حجر (ـ ٨٥٢) ٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٢.
ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (ـ ٨٧٤) ٤ : ٢٦٦.
ـ طبقات المفسرين للداوودي (ـ ٩٤٥) تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٧٢، ١ : ١٥٢ ـ ١٥٥.
ـ شذرات الذهب لابن العماد (ـ ١٠٨٩) ٣: ٢١٠.
ـ روضات الجنات لمحمد باقر الخوانساري (ـ ١٣١٣) ط. طهران، ص: ٢٤٠.
ـ أعيان الشيعة لمحسن الأمين (ـ ١٣٧١) ٢٧ : ٦ ـ ٢٧.

٢ ـ مصادر ومراجع أخرى للدراسة والتخريج :

ـ اتعاظ الحنفا للمقريزي، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٧.
ـ إحكام صنعة الكلام لابن عبدالغفور، تحقيق رضوان الداية، بيروت ١٩٦٦.
ـ أدب الخواص للوزير المغربي، تحقيق الشيخ حمد الجاسر، الرياض ١٩٨٠.
ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، مصر ١٣٢٣.
ـ الأفضليات لابن الصيرفي، تحقيق وليد قصاب وعبدالعزيز المانع، دمشق ١٩٨٢.
ـ الإمارة الطائية في بلاد الشام للدكتور مصطفى الحياري، عمان ١٩٧٧.
ـ البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد أحمد بدوي، القاهرة.
ـ بين أبي العلاء المعري والوزير المغربي، لاحسان عباس، مجلة الفكر العربي (٢٥) ١٩٨٢.
ـ تاج العروس للزبيدي، القاهرة ١٣٠٦.
ـ تبصير المنتبه لابن حجر العسقلاني، تحقيق البجاوي والنجار، مصر ١٩٦٤.
ـ تجارب الأمم لمسكويه، القاهرة ١٩١٤.
ـ تحرير التحبير لابن أبي الأصبع، تحقيق حفني محمد شرف، القاهرة.
ـ التذكرة الحمدونية، ميكروفيلم رقم ١٢٣ بمعهد المخطوطات.
ـ التكملة لابن الأبار، القاهرة.
ـ تعريف القدماء بأبي العلاء ، القاهرة ١٩٤٤.
ـ تكملة بروكلمان (بالألمانية).
ـ التنبيه والايضاح لابن بري، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.
ـ جوهر الكنز لابن الأثير، تحقيق محمد زغلول سلام، الاسكندرية.
ـ خريدة القصر للعماد (قسم الشام) تحقيق شكري فيصل، دمشق ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤.

- الدواوين من كتاب الخراج لقدامة، تحقيق مصطفى الحياري، عمان ١٩٨٦.
- ديوان ابن نباتة السعدي، تحقيق عبدالأمير الطائي، بغداد ١٩٧٧.
- ديوان التهامي، تحقيق محمد عبدالرحمن الربيع، الرياض ١٩٨٢.
- ديوان المتنبي، تحقيق عبدالوهاب عزام، القاهرة ١٩٤٤.
- الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (جـ: ٨) تحقيق محمد بنشريفه، الرباط ١٩٨٤.
- ربيع الأبرار للزمخشري، تحقيق سليم النعيمي، بغداد ١٩٧٦.
- رسائل أبي العلاء المعري (جـ: ١) تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٢.
- رسائل أبي العلاء المعري، تحقيق مرغوليوث، اكسفورد ١٨٩٨.
- الريحان والريعان لابن خيرة المواعيني، نسخة الفاتح رقم ٣٩٠٩.
- ريحانة الألبا للخفاجي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، القاهرة.
- سرور النفس للتيفاشي، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٠.
- سلك الدرر للمرادي، القاهرة ١٣٠١.
- سؤالات الحافظ السلفي، تحقيق مطاع الطرابيشي، دمشق ١٩٧٦.
- شرح مقامات الحريري للشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٦.
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٣.
- شروح سقط الزند، ط. دار الكتب المصرية، ١٩٤٨.
- الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب للسيوطي، دمشق.
- الصاهل والشاحج للمعري، تحقيق بنت الشاطىء، القاهرة ١٩٧٥.
- طراز المجالس للخفاجي، مصر ١٢٨٤.
- عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، الوهبية بمصر ١٣٠٠.
- غاية النهاية لابن الجزري، تحقيق برجشتراسر، القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٣.
- غرر الخصائص الواضحة للوطواط، بيروت.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، القاهرة ١٣٠٥ (بيروت ١٩٧٥).
- كناش الأمبروزيانا رقم ١٩ (في الفهرس القديم).
- لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٣٥.
- اللزوميات للمعري، دار صادر، بيروت ١٩٦١.

ـ لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
ـ لمح الملح للحظيري.
ـ مجموعة ورام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر) بيروت ١٣٧٦.
ـ المستطرف للإبشيهي، مصر ١٢٧٧.
ـ المسلك السهل للإفراني، فاس ١٣٢٤.
ـ مطالع البدور للغزولي، القاهرة ١٢٩٩.
ـ معاهد التنصيص للعباسي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٧.
ـ معجم الأدباء لياقوت، القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.
ـ معجم البلدان لياقوت (الطبعة الأوروبية).
ـ المقفى للمقريزي، ميكروفيلم رقم ٥١٠ بمعهد المخطوطات.
ـ المنازل والديار لأسامة، موسكو ١٩٦١.
ـ الموسوعة الإسلامية (بالانجليزية) مادة: ديوان.
ـ نشوار المحاضرة للتنوخي، تحقيق عبود الشالجي، بيروت.
ـ نفح الطيب للمقري، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨.
ـ هداية العارفين للبغدادي، استانبول.
ـ الوافي بالوفيات للصفدي (٢٢) تحقيق رمزي بعلبكي.
ـ الوافي في نظم القوافي للرندي، مخطوطة الرباط رقم ١٧٣٠.
ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢.
ـ يتيمة الدهر للثعالبي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٧٥ ـ ١٣٧٧.

٣ ـ مصادر اعتمدت في تحقيق الرسالة الأولى:

ـ ارشاد الساري للقسطلاني، بولاق ١٣٠٦.
ـ الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة.
ـ أسد الغابة لابن الأثير، طهران ١٣٧٧.
ـ الأصمعيات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر.
ـ الاكمال لابن ماكولا بعناية عبد الرحمن اليماني، حيدر أباد الدكن ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦.
ـ البحر المحيط لأبي حيان الجياني، القاهرة ١٣٢٩.
ـ بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤.
ـ ثمار القلوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥.
ـ الجمهرة لابن دريد، حيدر أباد الدكن ١٣٥١.
ـ حلبة الكميت للنواجي، القاهرة ١٢٧٦.

- الدرة الفاخرة لحمزة الأصبهاني، تحقيق عبد المجيد قطامش، القاهرة ١٩٧٢.
- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق غوبار، بيانة ١٩٢٧.
- ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقيق عبد الحفيظ السطلي، دمشق ١٩٧٤.
- ديوان جران العود النميري، دار الكتب المصرية ١٩٣١.
- ديوان ذي الرمة، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، دمشق ١٩٧٢.
- ديوان العجاج، تحقيق عبد الحفيظ السطلي، دمشق ١٩٧١.
- ديوان عمرو بن معديكرب، صنعة هاشم الطعان، بغداد.
- ديوان كثير عزة، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧١.
- ديوان المزرد بن ضرار، تحقيق خليل إبراهيم العطية، بغداد ١٩٦٢.
- ديوان المعاني للعسكري، القاهرة ١٣٥٢.
- رسالة الطيف لبهاء الدين الأربلي، تحقيق عبدالله الجبوري، بغداد ١٩٦٨.
- سرح العيون لابن نباتة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤.
- شرح ديوان زهير لثعلب، دار الكتب المصرية ١٩٤٤.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، بيروت ١٩٦٤.
- الكامل للمبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، القاهرة ١٩٥٦.
- الكشاف للزمخشري، القاهرة ١٩٦٨.
- لطائف اللطف للثعالبي، تحقيق عمر الأسعد، بيروت ١٩٨٠.
- مسند الامام أحمد، بيروت ١٩٦٩.
- المعاني الكبير لابن قتيبة، حيدر أباد الدكن ١٩٤٩.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، صنعة عدد من المستشرقين، ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩.
- معجم ما استعجم للبكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٤٩.
- مفاتيح العلوم للخوارزمي، القاهرة ١٣٤٢.
- المؤتلف والمختلف للآمدي، نشر كرنكو، القاهرة.
- الوحشيات لأبي تمام، تحقيق عبد العزيز الميمني ومحمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٦٣.

محتويات الكتاب

قال بلى قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك لما عرفوا من هلاك
من أراده من الملوك وبغى عنده فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك فقالا له ما أراد القوم
إلا هلاكك وهلاك جندك ما نعلم بيتا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن
ولتهلكن جميعا معك قال فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه قالا تصنع عنده ما يصنع أهله
تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى تخرج من عنده قال فما يمنعكما أنتما من ذلك
قالا أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها
حوله وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك أو كما قالا له فعرف نصحهما وصدق حديثهما فقرب
النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة وطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة
ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل وأري في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف
ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل
فكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دما
ولا ميتة ولا ميلاتا وهي المحايض وجعل له بابا ومفتاحا • وقالت سبيعة بنت الأحب بن زبينة بن جذيمة
ابن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان وكانت
عند عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة لابن
لها منه يقال له خالد تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها وتذكر تبعا وتذلله لها وما صنع بها
قال ابن هشام وهذا الشعر مقيد والمقيد الذي لا يزاد فيه ولا ينقص •

أبني لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بني ... ولا يغرنك الغرور
أبني من يظلم بمكة ... يلق أطراف الشرور
أبني يضرب وجهه ... ويلح بخديه السعير
أبني قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما ... بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها ... والعصم تأمن في ثبير
ولقد غزاها تبع ... فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربي ملكه ... فيها فأوفى بالنذور
يمشي إليها حافيا ... بفنائها ألفا بعير
ويظل يطعم أهلها ... لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى ... والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه ... يرمون فيها بالصخور
والملك في أقصى البلاد ... وفي الأعاجم والخزير
فاسمع إذا حدثت وافهم ... كيف عاقبة الأمور

ثم خرج متوجها إلى اليمن بمن معه من جنوده
وبالحبرين حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فأبوا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن
قال ابن إسحاق حدثني أبو مالك بن ثعلبة بن أبي مالك القرظي قال سمعت إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله
يحدث أن تبعا لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت
ديننا فدعاهم إلى دينه وقال إنه خير من دينكم قالوا فحاكمنا إلى النار قال نعم قال وكانت باليمن فيما يزعم أهل
اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به

ثم

نموذج من خط الوزير المغربي

تقتل أبناءها وتنفي سراتها وتبني بأيديها لها الذل حمير، تدمر دنياها بطيش حلومها وما ضيعت من دينها فهو أكثر؛
كذاك القرون قبل ذاك بظلمها وإسرافها تأتي الشرور فتخسر. وكان لخنيعة أمر فاحش يعمل عمل قوم لوط فكان
يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه في مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك ثم يطلع
في مشربته تلك إلى حرسه ومن حضر من جنوده قد أخذ مسواكاً فجعله في فيه أي ليعلمهم أنه قد فرغ
منه حتى بعث إلى زرعة ذي نواس بن تبان أسعد أخي حسان وكان صبياً صغيراً حين قتل حسان ثم شب
غلاماً جميلاً وسيماً ذا هيئة وعقل فلما أتاه رسوله عرف ما يريد به فأخذ سكيناً حديداً لطيفاً فخبأه بين
قدمه ونعله ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله ثم حز رأسه فوضعه
في الكوة التي كان يشرف منها ووضع مسواكه في فيه ثم خرج على الناس فقالوا له ذا نواس أرطب أم
يباس فقال سل نخماس استرطبان ذو نواس استرطبان لا باس. فنظروا إلى الكوة فإذا رأس
لخنيعة مقطوع فخرجوا في إثر ذي نواس حتى أدركوه فقالوا ما ينبغي أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا
من هذا الخبيث فملكوه واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن فكان آخر ملوك حمير وتسمى يوسف فأقام
في ملكه زماناً. وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الإنجيل أهل فضل واستقامة من أهل
دينهم لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر وكان موقع أصل ذلك الدين بنجران وهي بأوسط أرض العرب
في ذلك الزمان وأهلها وسائر العرب كلها أهل أوثان يعبدونها وذلك أن رجلاً من بقايا أهل ذلك الدين
يقال له فيميون وقع بين أظهرهم فحملهم عليه فدانوا به. ابتداء وقوع النصرانية بنجران. قال ابن
إسحق فحدثني المغيرة بن أبي لبيد مولى الأخنس عن وهب بن منبه اليماني أنه حدثهم أن موقع ذلك الدين
بنجران كان أن رجلاً من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام يقال له فيميون وكان رجلاً صالحاً
مجتهداً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة وكان سائحاً ينزل بين القرى لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى
قرية لا يعرف بها وكان لا يأكل إلا من كسب يديه وكان بناء يعمل الطين وكان يعظم الأحد فإذا
كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئاً وخرج إلى الفلاة من الأرض يصلي بها حتى يمسي وكان في قرية من قرى الشام
يعمل عمله ذلك مستخفياً ففطن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح فأحبه صالح حباً لم يحبه شيئاً كان
قبله فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون حتى خرج مرة في يوم الأحد إلى فلاة من الأرض
كما كان يصنع وقد اتبعه صالح وفيميون لا يدري فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً منه لا يحب أن يعلم
بمكانه وقام فيميون يصلي فبينا هو يصلي إذ أقبل نحوه التنين الحية ذات الرؤوس السبعة فلما رآها فيميون
دعا عليها فماتت ورآها صالح ولم يدر ما أصابها فخافها عليه فعيل عوله فصرخ يا فيميون التنين قد أقبل
نحوك فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها وأمسى فانصرف وعرف أنه قد عرف وعرف صالح أنه
قد رأى مكانه فقال له يا فيميون تعلم والله أني ما أحببت شيئاً قط حبك وقد أردت صحبتك والكينونة
معك حيث كنت قال ما شئت أمري كما ترى فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم فلزمه صالح وقد كاد أهل القرية
يفطنون لشأنه وكان إذا فاجأه العبد به الضر دعا له فشفي وإذا دعي إلى أحد به ضر لم يأته وكان لرجل
من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون فقيل له إنه لا يأتي أحداً دعاه ولكنه رجل يعمل

للناس

نموذج من خط الوزير المغربي

بين أظهرهم فإنه قتل غيلة فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها فجمع له هذا الحي من الأنصار ورئيسهم عمرو بن طلة أخو بني النجار ثم أحد بني عمرو بن مبذول واسم مبذول عامر بن مالك بن النجار واسم النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر قال ابن هشام عمرو بن طلة عمرو بن معوية بن عمرو بن عامر بن مالك بن النجار وطلة أمه وهي بنت عامر بن زريق بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج قال ابن إسحق وقد كان رجل من بني عدي بن النجار يقال له أحمر عدا على رجل من أصحاب تبع حين نزل بهم فقتله وذلك أنه وجده في عذق له يجده فضربه بمنجله فقتله وقال إنما التمر لمن أبره فزاد ذلك تبعا حنقا عليهم فاقتتلوا فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم ويقول والله إن قومنا لكرام فبينا تبع على ذلك من حربهم إذ جاءه حبران من أحبار يهود من بني قريظة وقريظة والنضير والنجام وعمرو وهو هدل بنو الخزرج بن الصريح بن التومان بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوي بن خير بن النجام بن تنحوم بن عازر بن عزرى بن هارون بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وهو إسرائيل بن إسحق بن إبرهيم خليل الرحمن عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة قال لهما ولم ذلك قالا هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان تكون داره وقراره فتناهى عن ذلك ورأى أن لهما علما وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما فقال خالد بن عبد العزى بن غزية بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار يفخر بعمرو بن طلة

أصحا أم قد نهى ذكره ... أم قضى من لذة وطره
أم تذكرت الشباب وما ... ذكرك الشباب أو عصره
إنها حرب رباعية ... مثلها آتى الفتى عبره
فاسألا عمران أو أسدا ... إذ أتت عدوا مع الزهره
فيلق فيها أبو كرب ... سبغ أبدانها ذفره
ثم قالوا من نؤم بها ... أبني عوف أم النجره
بل بني النجار إن لنا ... فيهم قتلى وإن تره
فتلقتهم مسايفة ... مدها كالغبية النثره
فيهم عمرو بن طلة ملى ... الإله قومه عمره
سيد سامى الملوك ومن ... رام عمرا لا يكن قدره

وهذا الحي من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حنق تبع على هذا الحي من يهود الذين كانوا بين أظهرهم وإنما أراد هلاكهم فمنعوهم منه حتى انصرف عنهم ولذلك قال في شعره

ما بال نومك مثل نوم الأرمد ... أرقا كأنك لا تزال تسهد
حنقا على سبطين حلا يثربا ... أولى لهم بعقاب يوم مفسد

قال ابن هشام الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوع فذلك الذي منعنا من إثباته قال ابن إسحق وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد فقالوا له أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة

نموذج من خط الوزير المغربي

في دينهم وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديها حتى قعدا للنار عند مخرجها الذي تخرج
منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم
بالصبر لها فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير وخرج الحبران
بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما فأصفقت عند ذلك حمير على دينه فمن هنالك وعن ذلك
كان أصل اليهودية باليمن قال ابن إسحق وقد حدثني محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار
ليردوها وقالوا من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها فدنت منهم لتأكلهم فحادوا
عنها ولم يستطيعوا ردها ودنا منها الحبران بعد ذلك وجعلا يتلوان التوراة وتنكص عنهما حتى رداها إلى مخرجها
الذي خرجت منه فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما والله أعلم أي ذلك كان قال ابن إسحق وكان رئام
بيتا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم فقال الحبران لتبع إنما هو شيطان
يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه قال فشأنكما به فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلبا أسود فذبحاه ثم
هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تهراق عليها فلما ملك ابنه حسان
ابن تبان أسعد أبي كرب سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كانوا
ببعض أرض العراق قال ابن هشام بالبحرين فيما ذكر لي بعض أهل العلم كرهت حمير وقبائل اليمن أن
تسير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهليهم فكلموا أخا له يقال له عمرو وكان معه في جيشه فقالوا
له اقتل أخاك حسان ونملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رعين
الحميري فإنه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه فقال ذو رعين

ألا من يشتري سهرا بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين
فإما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي رعين

ثم كتبهما في رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لي هذا الكتاب عندك ففعل ثم قتل عمرو أخاه
حسان ورجع بمن معه إلى اليمن فقال رجل من حمير

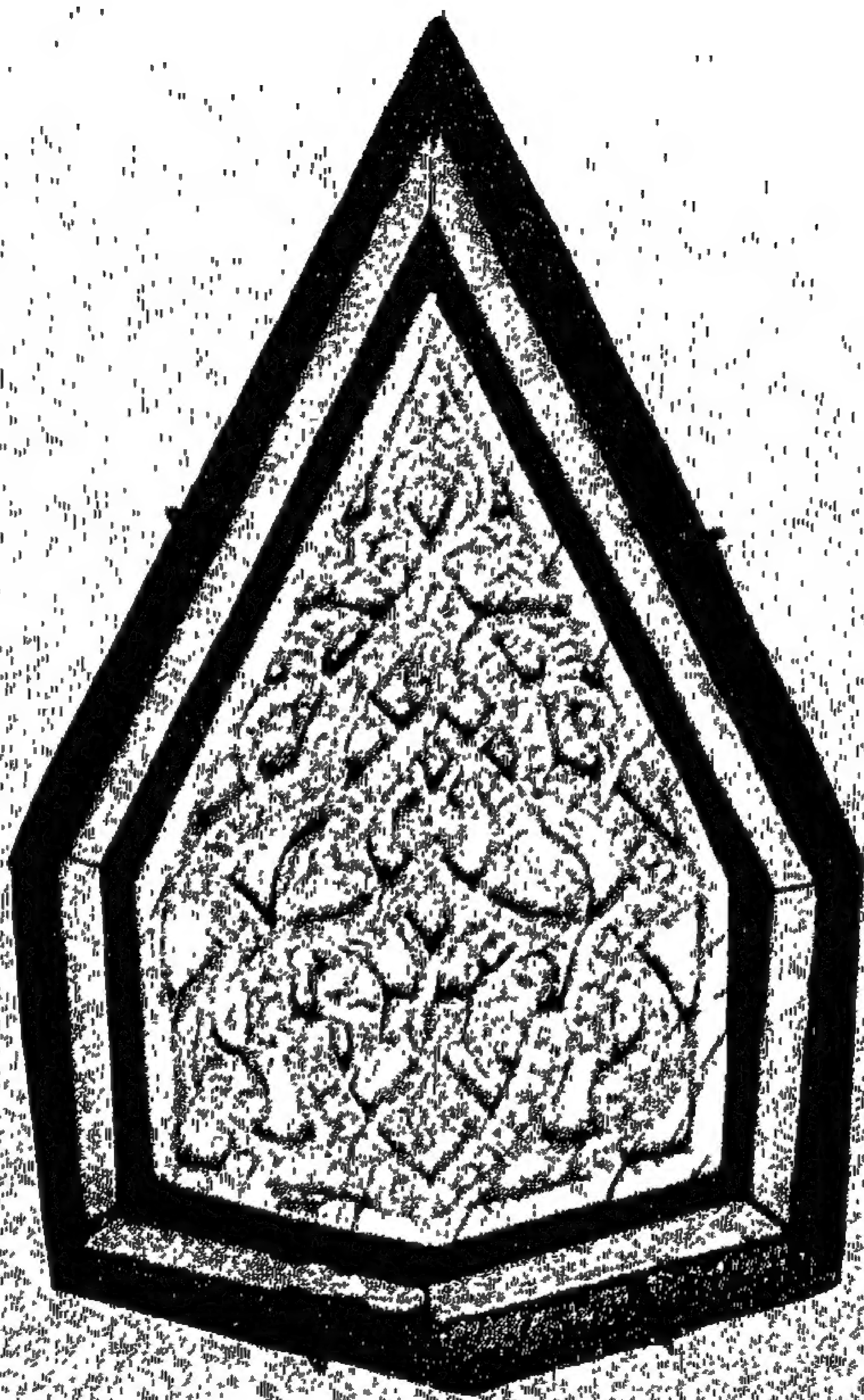
لاه عينا الذي رأى مثل حسا ... ن قتيلا في سالف الأحقاب
قتلته مقاول خشية الحبـ ... س غداة قالوا لباب لباب
ميتكم خيرنا وحيكم ر ... ب علينا وكلكم أربابي

قال ابن إسحق قوله لباب لباب قال لا بأس لا بأس بلغة حمير قال ابن هشام ويروى لباب لباب قال ابن إسحق فلما نزل عمرو
ابن تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما جهده ذلك سأل الأطباء والحزاة من الكهان والعرافين
عما به فقال له قائل منهم إنه والله ما قتل رجل قط أخاه أو ذا رحمه بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه إلا ذهب
نومه وسلط عليه السهر فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسان من أشراف اليمن حتى خلص
إلى ذي رعين فقال له ذو رعين إن لي عندك براءة قال وما هي قال الكتاب الذي دفعت إليك فأخرجه فإذا
فيه البيتان فتركه ورأى أنه قد نصحه وهلك عمرو فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل
من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم فقال قائل من حمير

نموذج من خط الوزير المغربي



تصميم الغلاف: «ماكيت» / طلال يحفوفي



الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
التوزيع: المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش.م.م
بيروت - لبنان